جسر السلوان

بيـــرل بـاك

- Author : Pearl S. Buck
- Title: A Bridge For Passing
- Translated by: Ramzy Yassa
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

- المؤلف: بيرل باك
- العنوان: جسر السلوان
- ترجمة: رمزي يسى
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٧ / ٢٥٠٠٦
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 143 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

بيـــرل بـــاك

جسر السلوان

روايـــة

ترجمة

رمزي يسَّى

مراجعة

مصطفى حبيب

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

باك، بيرل.

جسر السلوان - ترجمة: رمزي يسَّى

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

272 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 25006 / 2017

الترقيم الدولي 1 - 143 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - باك، بيرل

- ١ -

ما زلت أذكر ذلك اليوم الذي قررت فيه إنتاج الفيلم في اليابان، لقد كان يومًا من أيام أبريل منذ عام مضى، يومًا شبيهًا بهذا اليوم الذي بدأت فيه قصة عودتي إلى آسيا، وكنت أعرف دائمًا أن عودتي أمر لا معدى عنه.. وهي عودة غير دائمة لأنني سعيدة جدًّا في وطني بحيث لا أفكر في أن أعيش في أي مكان آخر.. ولكنها عودة مهما يكن من شيء. وما من إنسان يعيش نصف حياته في آسيا دون أن يعود إليها، أما متى تكون هذه العودة فهذا ما لم أكن أعرفه، ولا أعرف حتى إلى أين ولا لأي سبب ستكون. ففي عالمنا هذا المتغير لا يصيب التغير شيئًا قدر ما يصيب الجغرافيا؛ فبلاد الصين الصديقة، مهد طفولتي وشبابي، بلاد محظور دخولها في الوقت الراهن. وأنا أشفق أن أسميها بالبلد العدو؛ لأن أهلها فيما أذكر غاية في الرقة، وأرضها بالغة الجمال.

ومع ذلك فالصين ليست آسيا كلها وإن كانت تشغل معظمها، وهناك بلاد أخرى أستطيع العودة إليها، مثل اليابان والهند، وكوريا وجميع البلاد الأخرى. واليابان فيما أظن هي البلاد التي أعرفها خيرًا من غيرها بعد الصين، فمن البديهي أن تكون عودتي إلى هناك. ولكن متى؟ إنني لست

سائحةً، ولا تلذ لي زيارة بلد من البلاد لمجرد رؤية مناظرها، ولا أستمتع بزيارة أكون فيها ذات صفة مميزة. قلت لنفسي إنني حين أعود إلى اليابان فسيكون ذلك لمشروع ما، بقصد إنجاز شطر من العمل، لشيء يهمني عمله، شيء أستطيع أن أستند إليه في عدم تلبية جميع دعوات العشاء ورحلات عطلة نهاية الأسبوع والولائم التي يدعو إليها شعب مضياف لأصدقائه، ولكن أي مشروع؟ هنا أضيف سؤالًا جديدًا على تساؤلي: أين؟ ومتى؟.

لقد اقتُرِح عليَّ في أحد الأيام وعلى غير توقع مني السفر إلى اليابان مع آخرين لعمل فيلم لكتابي «الموجة الكبرى» فالعمل سيكون شيئًا جديدًا، ولذلك فهو مثير، إذ كنت قد تخطيت منذ أمد طويل حرص الشباب وحذره، وبلغت سن المغامرة. وقصة «الموجه الكبرى» كتاب مغامرات يحكي قصة قرية صيد نائية، وموجة مد، وبركان، وهذه جميعًا لم تقع عليها عيناي منذ عشرات السنين، وكنت أتوق إلى رؤيتها مرةً أخرى. وهنا تأتي الإجابة عن السؤالين. فالمكان هو اليابان، والزمان الآن.

– ولكن لا، فالإجابة لم تكن كاملةً تمامًا، فهناك رأي عائلتي، وبعض أعضائها من الكبار وبعضهم صغير جدًّا، والعائلة الكبيرة تشمل أجيالًا وتتشعب فروعًا، فهل أستطيع، وهل يجدر بي تركهم جميعًا في وقت كهذا؟ أخذنا في مشاورات عائلية، وكان من الواضح أنني أستطيع السفر، بل ينبغي أن أسافر. وقد أكد لي طبيب الأسرة عدم وجود أي سبب يؤخر سفري، وكان أطفالي الكبار منهم اليافعون أقوياء أصحاء، ولكن هو؟ إنه الآن كما كان دائمًا، فإن انتظرتُ الاحتمالَ الأخيرَ فقد تمضي

عليه سنوات، ولو كان سفري هذا منه ستة أشهر لما استطعت تركه، ولكن الفترة القصيرة كانت بالنسبه إليّ كالفرق بين النهار والليل... لقد انسل هو إلى عالم خاص به، ولم أكن آنئذٍ قد تعلمت ذلك الذي حدث، والذي سيظل هكذا دائمًا.

– قال لي الطبيب: «سافري، فلا بد لك من التغيير؛ لأن أمامك طريقًا طويلًا».

وقالت ابنتي المسئولة: «اذهبي، وسأرعى أنا كل شيء».

وهكذا تشجعت، فوقعت العقود، واشتريت تذاكر السفر.

كان لا بد أن يصاغ الكتاب بطبيعة الحال صياغةً جديدةً، فالموجة الكبرى قصة بسيطة، ولكن موضوعها ضخم، يتناول الحياة والموت، ثم الحياة مرةً أخرى بين حفنة من الكائنات البشرية في قرية صيد نائية، على الطرف الجنوبي لجزيرة كيوشو الجميلة جنوب اليابان. والكتاب يمتاز في ذاته بحيوية قوية، وقد أحرز بعض الجوائز في موضوعه، وتُرجم إلى لغات كثيرةً، ولكنه لم يترجم قط إلى لغة الصور المتحركة. واستعمال هذه اللغة في ذاته مغامرة، إذ لا يقتصر الأمر في هذه الحالة على كلمات، بل فيه مخلوقات بشرية تتحرك وتتكلم، وتموت في شجاعة، بل تعيش وتحب، وتحب بشجاعة أعظم. لقد زاولت الفنون العادية وألفت الخيش والفرشاة، والصلصال والحجر، والآلات الموسيقية، أما الصور المتحركة فتختلف عن هذا كله. ومع ذلك فهي فن عظيم أيضًا، وحتى حين يدنسها أناس تافهون ومادة رخيصة، فإن الوسيلة تظل ملهمةً في قوتها، وعندما يكون الفنانون على قدر عظيم من الكفاية، فإننا نستمتع

بأفلام كثيرة عظيمة. وعلى أي حال فلم أكن ممن يتملكه خداع العظمة، وإن كان كل ما آمله أن نوفق إلى إنتاج فيلم يصور تصويرًا صادقًا الشعب الذي أكتب عنه.

* * *

رحلنا صباح يوم من أيام مايو، وكانت اليابان جارةً قريبةً طوال السنين التي قضيتها في الصين، فكنا إبان طفولتي إذا أبحرنا من فنكوفر أو سان فرانسيسكو، كانت اليابان آخر محطة نقف عندها قبل شنغهاي، وهي الممر الذي يؤدي إلى وطني الصيني، وإذا أبحرنا من شنغهاي كانت اليابان أول محطة نحو وطني الأمريكي، كما كانت أيضًا ملاذنا عندما تدفعنا الحروب الثورية إلى خارج الصين. ولقد قضيت ذات مرة شهورًا عديدةً في بيت ياباني صغير بالجبال على مقربة من «أونزن»، وأونزن هذه قريبة من الجزء الجنوبي من جزيرة كيوشو بالقرب من «أوباما» وقد تجولت في سيارة في نفس العام حول كيوشو، وتوقفت قليلًا في أوباما لأستحم في الينابيع الساخنة في ذلك الإقليم ذي الشاطئ البحري الرائع والجبال الخضراء والبركان الذي ينفث الدخان.

وقلت لعائلتي: «سأعرفها حالما أراها» لا بد أن تكون قريةً صغيرةً تحتضن شاطئًا صخريًا ومرفأً رمليًّا بين الجبال، وبها مساكن قليلة من الحجر وراء جدار بحري... إني لأراها كأنما أنفض عنها الذكريات، وإن كنت لا أعرف اسمها.

على أن اليابان وإن كانت في الأيام الماضية قريبةً مألوفةً، فقد بدت لي هذه المرة وكأنها خارج أبواب منزلي في بنسلفانيا مباشرةً. ودخلنا في

نيويورك في طائرة نفاثة، وهي تبعد ساعتين أو نحوهما من بيتي المشيد بالحجر في المزرعة، وسرعان ما حملنا الهواء في دقائق، حيث أطلقت لتأملاتي العنان تسترجع مجريات حياتي فيما مر من أيام عمري، وهي مجريات عجيبة لا تكاد تصدق.

– على أنه إن كان لي أن أعيش بمشيئة من الله عشرات أخرى من السنين على هذا، فإن خبرتي بالحياة والشعوب تحملني على القول بأن حياتي بدأت في العصور الوسطى، ذلك أنني حين كنت طفلةً سافرت في عربة ذات عجلة واحدة، وفي المحفة، وفي عربة يجرها بغل، أو في زورق يسحبه الرجال بالحبال في قناة بطيئة الجريان، وبلغت الثانية عشرة قبل أن أرى في الصين قطار السكة الحديدية، بل وبلغت الخامسة عشرة قبل أن أركب هذا القطار، أما السفن فقد عرفتها قبل ذلك، إذا كانت تجري في نهر ينجتزي وتنقلنا إلى شنغهاي، ومن ثمَّ تجتاز المحيط الهادي، أو تصعد إلى أعلى النهر حتى كيوكيانج وجبال «لو» حيث كنا نهرب من حرارة الصيف المحرقة في السهول. لم أر أو أركب سيارةً حتى التحقت بالكلية، ولم يتكرر ذلك على مدى سنوات، حتى عدت لكي أعيش في وطني، وعندئذ أصبحت سيدةً متحضرةً، فسافرت بالطائرة، وأصبح ذلك أمرًا عاديًّا، لا، بل مهلًا، لقد ركبت مرةً طائرةً صغيرةً لأختصر الرحلة إلى رانجون، وإلا لقضيت نحو ثمانية أيام في السفر، بقارب بطيء، حقًّا. ومرةً أخرى طرت من السويد إلى كوبنهاجن، وأكثر من هذا أنني طرت من جزيرة سيلان إلى جاوة، وهبطت في جزيرة سومطرة التي تتسم برطوبة الغابة وحرارتها. وبعد ذلك بسنوات كانت رحلتي الأولى

بالطائرة النفَّاثة في أوربا، وهي الطائرة الصامتة ذات السرعة المذهلة التي تطير بين كوبنهاجن وروما. لقد جعلني اهتمامي بالعلم شديدة الفضول إلى معرفة تطور النفَّاثة والصاروخ حتى أصبحت أضيق الآن بأي شيء آخر أبطأ من النفَّاثة – أنا التي استهللت حياتي بسرعة لا تزيد على أربعة أميال في الساعة فوق محفة؟!

ومع ذلك فأعترف أنه حين ارتفعت بي النفَّاثة من الأرض إلى الجو، في صبيحة ذلك اليوم من شهر مايو بمدينة نيويورك، شعرت بابتهاج منقطع النظير. وتأهب الطائر المعدني الهائل للطيران، وزمجرت آلاته، واهتز هذا المخلوق بفعل قوته الذاتية الداخلية. ولربما كان جزء من هذا الابتهاج يرجع إلى عدم مبالاتي بعجزي التام أثناء تحليقنا في طبقات الجو العليا؛ إذ كنت قد أسلمت نفسي إلى الآلة ولم يكن أمامي مهرب، فلا أستطيع الهبوط، ولم أكن أمامي قرارات أتخذها، أو لديَّ سبيل إلى الصعود، وهناك مثل صيني يقول: إنه ليس بين الستة والثلاثين طريقًا للنجاة خير من طريق الهرب، ولا أعرف ما هي الخمسة والثلاثون طريقًا الباقية.

من العجيب حقًّا أنني لم أفكر قط في الاستفسار عنها خلال تلك السنين التي عشتها في الصين، ومع ذلك فإن مثْل هذا المثَل لم يعد يصدق في عصرنا الحديث. وحين يسلم المرء نفسه إلى مركبة هوائية، وتُغلق أبوابها دون الأرض والوطن فلم تكن هناك نجاة حتى بطريق الهرب، وتكون نتيجة ذلك شعورًا غريبًا بالأمن، قد يكون يأسًا ولكنه أمن.

طافت مثل هذه الأفكار بذهني في ذلك الصباح وأنا أتطلع من الكوة

الصغيرة إلى دائرة الكرة الأرضية البعيدة عني. وحين أعود إليها بعد ساعات – إن عدت–، فإن القارة الفسيحة حيث مسقط رأسي، والمحيط الهادي المترامي الأزرق سيفصلان بيني وبين وطني. ولئن كانت سفينتنا إبان طفولتي تقضي أسابيع لاجتياز نفس المحيط، ويقضي قطارنا أسبوعًا آخر لاجتياز القارة فإن هذا العالم الجديد لم يبدُ قط غريبًا عني... لقد أصبحت السرعة أمرًا عاديًّا كما أصبحت ضرورةً. وسبحنا فوق بحر من السحب الفضية، واضطجعت في مقعدي أخطط فيلمي.

* * *

إن جزر هاواي نقط ارتكاز بين آسيا والولايات المتحدة، وانني لأذكر هذه الجزر بوصفها جزر الأمل عندما كنت طفلةً أسافر بالسفن، وكانت المسافة المقدرة للسفر عشرة أيام من سان فرانسيسكو إلى هنولولو، أو ثمانية أيام من يوكوهاما إلى هنولولو، وسواء أكان مسيرنا شرقًا أم غربًا فقد كنت أتوق دائمًا إلى بلوغ هذه الجزر الدائمة الخضرة، حيث أشجار جوز الهند التي تقطف ثمارها ويصنع من أزهارها العطرة أطواق مضفرة للتحية اليومية والترحيب. لقد حرمتنا سرعة الطائرة من بعض ما يثيره دخول سفينة هادئة في رفق إلى مرساها بعد رحلة طويلة، ومن رؤية جموع الأصدقاء المنتظرين، بل مما يكتنف لحظات الوداع الأخير من أسى، وتلويح الأصدقاء من فوق رصيف الميناء عندما تأخذ السفينة الهائلة مع رفع مراسيها، وإقلاعها إلى الرحلة الطويلة التي تنتظرها.

هبطنا بطائرتنا النفَّاثة في هنولولو برشاقة وخفة دون أن يتأخر لحظةً، وقابلنا أشخاصًا أكفاء اصطحبونا إلى الفندق لقضاء الليلة، وصممت أنا

على التوقف، لا لأنني أردت رؤية هنولولو مرةً أخرى فحسب، ولكن لأنني أردت خاصةً أن أطوف بسيارتي مرةً أخرى في الجبال المسننة فيما وراء المدينة، ورؤية راكبي الأطواف وهم ينزلقون بها على الأمواج، وأردت قبل كل شيء أن أستشعر جو هاواي بعد أن أصبحت آنئذٍ حكومةً حرةً في أمة حرة، وكنت أظن أن الانتساب إلى أمة كجزء مكمل يجب أن يعني تهدئة تذمر هذه الأمة وتمردها، لا تذمرها المتزايد أبدًا حيث الهواء دافئ دائمًا، والأمطار وأشعة الشمس تسقط يوميًّا على الصالح والطالح على السواء، وكثيرًا ما تسقطان في وقت يروحون ويغدون.. أناس من شتى الأجناس وفي شتى الأزياء. ولم يكن هناك شيء غريب عليَّ سوى النساء السائحات بملابسهن الفضفاضة، تلك الملابس التي ابتدعها المبشرون مرهفو الحس واحد. لا، لا بد أن تكون المسألة نفسيةً.

كان الوقت مساءً حين هبطنا، والقمر يضيء الزبد الأبيض، والبحر المظلم، وكان الفندق فاخرًا. وبينما كنا نجتاز الردهة نطلب حجراتنا لنستقر فيها وننام، كان الرجال والنساء لا يزالون -في العهد الأول- حين كان أهل هاواي مثل آدم وحواء. لا يعرفون أنهم عراة. ولكنَّ المبشرين بطبيعة الحال كانوا على علم بأنهم عراة، ومن ثم فقد عنَّ لي بدافع من الاستمتاع بشطحات القلب البشري وأوهامه أن أتساءل أحيانًا: هل رجال التبشير الأوائل هم الذين أمروا النساء العرايا الجميلات بستر أجسادهن خشية أن يستسلم القديسون للشيطان الكامن فينا، أم أن النساء اللاتي يعلن ذلك حين أدركن عجزهن التام عن منافسة الأجساد المبشرات بأذيالهن وأكمامهن الطويلة وبنيقاتهن العالية من الناعمة السمراء العاطلة

من كل لباس سوى قطعة زاهية من القماش أو حزمة من الحشائش حول خاصرتهن، وزهرة حمراء في شعورهن المتموجة السوداء؟ إن الله وحده الذي يعلم، وهو تعالى الذي يحتفظ لنفسه بمثل هذه الأسرار- وربما بابتسامة! أما اليوم فإن فتيات هاواي يرتدين الملابس الغربية الأنيقة، وترتدي السائحات الملابس الفضفاضة، ومرةً أخرى لتستمتع نساء هاواي بالأحسن دائمًا.

* * *

إن هواء هاواي روحاني كأنه رياح الجنة وهذا أقل ما يوصف به، ولقد أسلمت نفسي للفراش الوثير واستسلمت للنوم، ثم استيقظت لأملأ صدري من هذا النسيم الرقيق المنعش الذي تدفعه رياح البحر الهادئ، ولم ألبث حتى أخذتني سِنَةٌ من النوم مرةً أخرى، لم أستيقظ منها إلا حين وهجت الشمس داخل غرفتي، وعندئذ نهضت واغتسلت وارتديت ملابسي وتناولت طعام الإفطار وحدي في الشرفة خارج غرفتي، كان الهواء الخارجي في مثل حرارة جسمي تمامًا فلم أشعر بتغير سواء في الحرارة أو البرودة، شأني شأن الجنين في بطن أمه لا يشعر بأي تغير في الماء الذي يحيط به ويحميه من كل تقلب، وهو سائل أملس يتعذر وصفه ينجم عنه حالة من الرفاهة ينعدم معها كل صراع بينه وبين البيئة.

كان هناك فعلًا نفر من راكبي الأطواف يستمتعون بتلاطم أمواج الصباح، وكان الرجال والنساء جميعًا لا همَّ لهم غير التسكع على الشاطئ، ويبدو أنني كنت على حق حين رأيت أن هناك تغيرًا روحيًّا في الجزيرة كالخادم الذي أحضر لي طعام الإفطار كان يتحرك في هدوء

وثقة يشفان عن رضاء داخلي، وتحدثنا حديثًا مقتضبًا في الموضوع بعد أن أشرت إلى أنني عندما زرت هنولولو من قبل لم تكن أصبحت عاصمة الدولة.

وقال لي: «لقد أصبح كل شيء الآن أفضل من ذي قبل».

فسألته: «من أي وجه أفضل؟».

فأجاب وهو يهز كتفيه موضحًا: «ليس الأمر مقصورًا على مشكلة الطعام والملبس أو أي شيء مادي ملموس- إن الحالة أفضل كثيرًا في جملتها، فنحن تابعون الآن لدولة، ونستطيع الآن أن نتكلم... إن المربى شهية جدًّا يا سيدتي، برتقال طازج، وأناناس طازج... انني أنصحك بها!».

قلت: «أشكرك، وأظنك على حق... إن كل شيء أفضل من ذي قبل».

وفكرت في هذه الحكمة بعد أن كسر لي البيضة في كأس وصب لي القهوة ثم ابتعد. إن العزلة خطر على الدوام، والاندماج هو الأمان الوحيد إذا كنا نريد عالمًا يسوده السلام. الاندماج في كومنولث قومي أو كومنولث دولي للأمم. وأعتقد أن كل شعب ينبغي أن ينتسب للأمم المتحدة كأمر لا معدى عنه ولا مرد له، كالطفل الذي يولد في عائلة، ينبغي أن يكون الانفصال مستحيلًا، فإذا انسحب الطفل بعد نوبة مشاكسة أو هرب، فإنه يظل عضوًا في العائلة. إن العلاقة الأساسية في الأُسرة يجب أن تطبق بمقياس عالمي على أُسرة الأمم المتحدة، وكل شيء أساسي يكون دائمًا بسيطًا شاملًا، البسيط دون غيره هو الذي يتسع نطاقه

ليشمل كل الخلافات والاضطرابات.

إنني لا أحب ركوب الطوف، وليس بيني وبين البحر عداء، ولكن فلنقل إننا صديقان حذران، وكانت لي تجارب مع البحر الهائج بل ومع البحر المسالم، ولكن مسالمته ليست الا بقدر ما يستطيع الأسد أن يكون مسالمًا، حين يصرع الرجل بضربة مزاح خفيفة.

حدث ذات يوم من أيام أغسطس في كرمة تملكها مارتا أن كنت أنا وهو نسبح في الأمواج الشاطئية، في أعقاب عاصفة كانت قد هبت منذ أيام قلائل، ومع أن السماء كانت صافيةً زرقاء، إلا أن البحر كان يعلو ويهبط بأمواج هائلة.

وقال لي: «امسكي بيدي، فإنا معًا نكون على قدر كاف من القوة». وأمسكت بيده، ومع ذلك فلم نكن معًا من القوة بمكان، ووقعنا في براثن البحر وجرفنا التيار وظل يجرفنا ويجرفنا حتى انقطعت أنفاسنا، وعميت أعيننا وأشرفنا على الغرق، وقذف بنا أخيرًا على الرمال وأيدينا لا تزال متماسكةً، وهكذا نجونا. أما الشيء الذي لا أزال أذكره عن تلك اللحظات فهو العجز التام بين الأمواج، حين كنا تحت رحمة قوة غامضة مجنونة، وسرت وإياه على الشاطئ صامتين يغمرنا شعور بالامتنان والحمد أن نجونا من الهلاك، وبلا رغبة في مزيد من البحر في ذلك اليوم، ومن ثم فلم تكن بي رغبة في ركوب الطوف البحري منفردةً في هنولولو.

ولما لم يكن من المجدي أن يستمتع مثلي بالانخراط وسط الزحام خشية أن يلاحقني هواة التوقيعات المنتشرون في جميع بقاع الأرض،

فقد آثرت أن أبقى وحيدةً، وأن أجنب نفسي مشقة صد الناس، ومن ثم استمتعت بالجلوس وحدي في شرفتي، وبرؤية البحر والجبل، وقراءة الصحف المحلية؛ فهي عون دائم على المعرفة وقضاء شطر من النهار إلى أن يحين وقت الغداء مع الأصدقاء، ثم القيام بجولة بالسيارة «الجيب» حول الجزر. وجزيرة وايكيكي مخصصة للسياح، ولا يرى الإنسان الشطآن الأخرى إلا بعد أن يغادرها، إذ تحميها خلجان صغيرة يجمع فيها سكَّان هنولولو أو من يقطنون بالقرب منها عائلاتهم للهو والنزهة، والطريق إليها ممتاز يحتضن الشاطئ الرائع، وكثيرًا ما توقفنا عن المسير لمشاهدة الأمواج العنيفة تتكسر على الصخور السوداء من اللابا القديمة، هذا إلى ما كان يحدث كثيرًا في حياتي حين كنت أتمهل لأشبع عجبي ودهشتي من الجروف المنحدرة، جروف تلك الجبال القائمة ذات الميل المفاجئ المواجهة للبحر، والتي لا يصدق الإنسان أن هناك من يستطيع تسلق سنانها القائمة من صخور اللابا، أو أن هناك مغاور وفجوات بينها. ومع ذلك ففي عصور أخرى كان يتسلقها الرجال بسهولة ويحملون الزوارق والقوارب إلى مغاورها وفجواتها ليجعلوا منها توابيت لرجالهم من ربابنة البحر المشهورين، ويتسلقها رجال آخرون في هذه الأيام لاستعادة هذه القوارب مرةً أخرى وتنظيفها من ترابها القديم ووضعها في المتاحف. وتذكرت بلاد النرويج والمراكب الكبيرة التي تضمها المتاحف هنالك، والتي كانت أيضًا توابيت لرجال البحر. أما في هاواي فيبدو أنه عمل باهر بعيد عن التصديق لنعومة الجبال الشبيهة بالجروف وشدة انحدارها.

كان الوقت ليلًا عندما رجعنا إلى الفندق، وكانت صحف المساء تحمل عناوين عريضةً عن هزة أرضية واسعة النطاق في شيلي، فقرأت عن هذه الكارثة وحزنت لأولئك الذين أزهقت أرواحهم.

شيلي! لقد تذكرت أن بعثة الرياح السفلية للسنة الجغرافية الدولية الحديثة كانت قد حملت على إحدى السفن أثناء ارتيادها قاع المحيط الهادي جهازًا إذا ثبت في قاع المحيط، أمكنه قياس درجة الحرارة المنبثقة من جوف الأرض إلى قاع المحيط. وحدث أن ارتفعت درجة الحرارة بجزيرة إيستر ارتفاعًا مفاجئًا، فارتفعت درجة الحرارة نتيجة لذلك ارتفاعًا مفاجئًا بجزيرتي إيستر وسالاي جوميز الشيليتين. ويوجد على مسافة من شاطئ شيلي الغربي نفسه منخفض طويل قاعة شديد الضيق، مكافئ لجزر الهند، ولكن يحتمل أنه كان نتيجةً لزحف نهر من مادة باردة، ينبع من وسط المحيط ويتغلغل تحت كتلة القارة الصخرية.. إنه لعالم سفلي صامت، قاع هذا المحيط، وعالم قاس حين تحدث الكارثة نتيجةً للصراع بين النار والماء، الحرارة والبرودة.

كانت جزيرة شيلي تبدو بعيدةً عن جزر هاواي المبهجة، فعنيت بمطالب المساء، وكنا سنتناول العشاء بناد ليلي على الجانب الآخر من الشارع، فذهبنا إلى هناك للاستمتاع بطعام هاواي وموسيقاها ورقصها، وقد أضحكني الرقص مرارًا وتكرارًا، لم تكن الراقصات جميلةً وحسب، بل كانت حاذقةً ومرحةً أيضًا وفيها سخرية بالحياة، وبخاصة رقصة ماجنة يوحي ظاهرها إلى الذاكرة بالإرساليات التبشيرية الأولى، فقد ظهرت على المسرح فتاة نحيلة سمراء ترتدي ثوبًا أبيض من طراز غربي عتيق من

قماش الموصلين (قماش رفيع من القطن) المطرز، لم يكن فضفاضًا، ولكنه نوع من الثياب لعله على طراز ما كانت ترتديه زوجات المبشرين منذ مائة عام، ذو بنيقة عالية وأكمام طويلة، ضيق عند الخاصرة، كامل الطول، يحف ذيله المتعدد الثنيات بالأرض. وكانت الفتاة صورةً للبراءة الحلوة، شعرها الطويل الأسود ممشط معقوص برقة على شكل عقدة على قفاها، وكانت لمسة اللون الوحيدة -فيما عدا شفتيها المكتنزتين الحمراوين- زهرة الخبازي القرمزية التي تضعها وراء أذنها اليسرى، وقد أثارت هذه الزهرة شكوكي بعد دقائق قليلة، فانفجرت بضحك بائس؛ لأن هذه الفتاة، حسناء الجزيرة البريئة، التي يكسوها البياض من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، كانت تؤدي رقصةً حافلةً بكل ما في المرأة من فنون الإغراء المثيرة للرجل، التي لو رأتها حواء نفسها لرغبت في أن تعلمها إياها. وكان الجسم الجميل الأسمر الذي تحتويه الغلالة البيضاء يتلوى وينتفض في نشوة شهوانية غير بدائية؛ لأن مثل هذه النشوة خالدة، ولكنها تجدد نفسها في كل جيل من الرجال والنساء، إنها رقصة الحب.

كانت أضواء المصابيح الخافتة تسقط على حلقة الوجوه المتطلعة، كل وجه منها غارق في حلمه الشخصي أو ذكرياته الخاصة أو رغبته الجائعة. وعندما تعبت من الرقص ساد الصمت، ثم آهة طويلة أعقبها تصفيق مدو. وابتسمت الفتاة الجميلة، وانحنت بالتحية، وانسحبت. وعلى الرغم من أننا صفقنا حتى ألهبنا آكفنا فإنها لم تعاود الرقص..

كان رئيس الاحتفالات يقدم لكل عرض بثرثرة لطيفة، وقد ذكر أثناء المساء موجة المد عدة مرات، فقال وهو يلقي بعبارته كأنها لون من

المزاح، إننا قد نستمتع جميعًا بموجة مد مثيرة، وإنه أمر بعرض إضافي جذاب في المساء. ولم يحمل أحد منا حديثه محمل الجد إلى هذه اللحظة حتى تفتحت أعيننا مرةً أخرى على الحقيقة حين بدأ يثرثر عن موجة المد، وسمعت فجأةً ما قاله بدقة ووضوح، إنه لم يكن يعلن عن موجة مد، بل كان يحذرنا من اقترابها.

ونهضت على التو مع زميلتي وغادرت القاعة، ثم عبرت الشارع إلى الفندق وكان الاضطراب سائدًا هناك. كان النزلاء يرسلون إلى الطوابق العليا، وقد أغلقت الشوارع المواجهة للبحر. فما العمل؟! وأمعن كل منا النظر في الآخر بقلق. وكان موعد إقلاع طائرتنا بعد منتصف الليل بساعة، وكانت الساعة آنئذٍ تقترب من الحادية عشرة، وإذا كنت قد علمت شيئًا من الحياة وأزماتها المتلاحقة فهو أن أستمر في تنفيذ خطتي المرسومة دون توقف حتى يصبح تنفيذها متعذرًا، ومن ثم سرنا في عملنا واندفعنا إلى حجراتنا فحزمنا حقائبنا، وركبنا آخر سيارة من سيارات الأجرة في متناولنا، وذهبنا إلى المطار.

مطار هنولولو كما يعرف الجميع يقع في شبه جزيرة ضيقة فوق مستوى البحر مباشرةً، وكان عند وصولنا خاليًا بصورة مفزعة إلا من بعض الموظفين الذين وقفوا يحملقون إلى الأفق. حتى سائق السيارة التي حملتنا كان في عجلة من أمره ستنجزنا دفع أجره لينصرف. وما إن تركناه حتى وجدنا أنفسنا بعد دقائق قليلة وحدنا في غرفة الانتظار الفسيحة. وقادنا خادم عابس الوجه إلى طابق علوي وحجرة ناد مريحة خالية إلا من مضيفة تقف وراء نضد حساب الطعام، فحيتنا بفتور، وصبت لنا القهوة،

ثم سارت إلى النافذة الواسعة، وتطلعت إلى الظلام الذي يغشى البحر، وجلسنا فوق الحشية وأنصتنا كارهين إلى صوت المذياع المثبت في السقف فوق رؤوسنا، وكان يذيع موسيقى «الجاز»، ولكن كلما مضت لحظة أو لحظتان تتوقف الموسيقى، ويعلن صوت عنيد أن موجة المد قد وصلت إلى جزيرة أخرى، وأنها كبيرة الارتفاع وستصطدم بعد بضع دقائق بجزيرة «هيلو» بارتفاع يقدر بنيف وستين قدمًا. وقد عرفنا أيضًا أن الموجة كانت نتيجةً لزلزال حدث في شيلي؛ لأن هناك اتصالًا قاريًّا تحت المحيط بين الأخدود العميق الممتد بين شيلي وجزر المحيط الهادي.. إنها لإشارة رمزية عجيبة أن يحدث زلزال في أحد نصفي الكرة الأرضية فينجم عنه موجة مد في نصفها الآخر!

انقطع حبل تأملي عندما اختفت المضيفة على حين فجأة.. لقد عادت إلى نضد العد وهي تتمتم بشيء ما عن زوجها وأطفالها الثلاثة.. هل تنبهوا إلى عدم عودتها إلى المنزل في منتصف الليل كعادتها؟ إنني لم أستطع الإجابة عن سؤالها، كما لم تستطع هي نفسها أن تفعل، وتركتنا إلى حيث لم نرها من بعد، ولم تنطق بكلمة أخرى حتى عبارة إلى اللقاء أو أسعدتم مساء.

جلسنا في الحجرة الفسيحة، وتوقف عند منتصف الليل عزف الموسيقى، ولم نعد نسمع غير الصوت الذي يعلن عن اندفاع موجة المد، وأخذنا نتدبر مصيرنا مهما كان من أمره ثم توقف الحديث، وأخبرنا هذا الصوت أن الطائرات قد نقلت من ساحة المطار وأن جميع الرحلات الجوية قد ألغيت. وأغلقت جميع الطرق المؤدية إلى الفندق،

وكان الصمت الذي خيم على المدينة يوحي بالتشاؤم، وأصبحنا جزءًا من هذا الصمت، ولم يكن بوسعنا أن نفعل شيئًا إلا أن ننتظر وحسب.

وفُتح الباب فجأةً في الساعة الواحدة تمامًا، وصاح بنا رجل -وهو يلهث- إلى أن نذهب حالًا إلى ساحة المطار؛ لأن طائرتنا ستقلع في الدقائق القلائل التالية. نعم، لقد وضع جميع متاعنا في الطائرة، وحملنا نحن حقائب اليد وسرنا خلفه مسرعين، وكانت الطائرة هنالك فاندفعنا إلى داخلها، وارتفعت في الجو بأسرع ما عهدته في طائرة أخرى من قبل، وفي نفس اللحظة التي ارتفعنا فيها عن الأرض أعلن المذياع عن وصول موجة المد.

تذكرت الموت بعينه حالما ارتفعنا في الجو، وتذكرت ساعات القلق التي سبقت لحظة الرحيل الأخيرة وانفصالنا الحتمي عن الأرض وعن كل شيء عرفناه، ثم صعودنا إلى الفضاء المجهول - أليست هذه هي تجربة الموت؟ ولكن باختلاف واحد هو أن الانطلاق النهائي لا رجعة منه، أما بالنسبة الينا فكان يداعبنا الأمل في العودة إلى بلاد اليابان الجميلة.

ومع ذلك فقبل أن نتمكن من الوصول إلى الأرض مرةً أخرى كانت موجة المد قد ضربت ضربتها، وعندما اندفعنا إلى طبقة الهواء العليا عرفنا عن طريق الإذاعة أنها سارت نحو الغرب ووصلت إلى اليابان لساعتها، وكانت سرعتها تربو على سرعة طائرتنا لتصطدم بقوة غاشمة بالشواطئ الشمالية الشرقية، وكانت الحكومة قد حذرت الناس، ولكنهم لم يصدقوا لأنهم عرفوا من سابق تجاربهم أن حدوث الزلزال يصحبه

موجة مد، ولم يستطيعوا أن يفهموا أن حدوث زلزال في شيلي قد يعني موجة مد على سواحلهم، فيا له من اتفاق عجيب أن نصل إلى اليابان في نفس اللحظة لتصوير فيلم اسمه «الموجة الكبرى!».

* * *

سألني مراسلو الصحف في مطار طوكيو: «كيف دبرتم أمركم، ومن هو مندوبكم المختص بالدعاية؟».

لقد كانوا يمزحون بطبيعة الحال إذ لم يكن لنا مندوب للدعاية، والواقع أننا قدمنا تستقبلنا دعاية هائلة لموجة المد العالي التي اجتاحت البلاد، وقد أسفت لأن عودتي إلى آسيا قد قُضي أن تتم في أعقاب عاصفة عاتية، ولم أملك سوى أن أبدي شديد أسفي على أولئك الذين قاسوا من جرَّاء هذه العاصفة.

كنت أتوقع أن نصل إلى طوكيو في هدوء بوسائل أخرى، وكانت الساعة ما بين الثانية والثالثة بعد منتصف الليل، ولم أتخيل أن أحدًا سيقابلني في المطار، وفكرت في أن يقابلنا واحد أو اثنان من شركائنا في العمل، وربما نفر قليل من الأصدقاء، ثم تسارع بالسيارة وسط الشوارع المظلمة إلى فندق إمبريال القديم، لنستحم وننام. لقد كانت الرحلة الجوية مع ذلك طويلةً، فقد هبطنا في وقت ما بالليل على جزيرة «ويك» للتزود بالوقود، ولم تكن فيما يبدو جزيرةً هامةً، إذ لم أر من النافذة غير مجموعة من المنازل المنخفضة، ورجالًا مسرعين هنا وهنالك إلى عملهم مما يحدث ليلًا في أي مكان، أما الحياة في طوكيو فشيء آخر.

قلت: «إنني لسعيدة لوصولنا في مثل هذه الساعة في غبشة الظلام،

حيث لا يوجد أحد يمكن أن يقابلنا».

وأجابتني زميلتي: «لا تبالغي في التأكد كثيرا».

واهتزت الطائرة الضخمة أثناء هبوطها، وكانت أضواء طوكيو تتلألأ في جوف الظلام، وتقدم منا رجل في كسوة رسمية بيضاء وسألنا: «هل أنتم..؟».

فأجبت: «نعم، نحن».

فقال: «إذن، مرحبًا بكم في اليابان.. إنني مندوب الخطوط الجوية اليابانية.. من هذا الطريق، من فضلكم.. لحظةً واحدةً من فضلكم.. المصورون، والمخبرون الصحفيون».

وتوقفنا وسلطت علينا الأضواء في الظلام، وطقطقت آلات التصوير، واحتشد حولنا المخبرون الصحفيون بأسئلتهم وصياحهم عن موجة المد.

وقال الرجل عندما أظهرنا علامات الإعياء: «أشكركم.. إن أصدقاءكم ينتظرونكم».

أينتظروننا؟ وأسرعنا إلى الجمرك، وأغرقنا أصدقاؤنا حقًّا بالتحيات والأزهار.

ماذا كان شعوري؟ شعرت من ناحية كأنني عدت إلى الوطن بعد غيبة طويلة، ومن ناحية أخرى كأنني نزلت ببلاد جديدة أجنبية، فالوجوه الباسمة والأصوات الحارة، وأحيانًا الأعين المفعمة بالدموع، كل أولئك يدعون أنني ملكهم، كان يبدو عليهم التغير كما كان يبدو عليَّ، وكان

معهم الأطفال والأحفاد، كما كان لي أبناء وأحفاد في وطني. وكان الأولاد يرتدون الزي «الكومينو» التقليدي.

وقالت إحدى صديقاتي في زهو: «إن بناتي نهضن في الساعة الواحدة، حتى يستطعن ارتداء الكومينو، ويرحبن بكم».

إنني أعرف كم من الوقت يقتضي ارتداء الكومينو بصورة متقنة، وتصفيف الشعر تصفيفًا ملائمًا. وكانت الفتيات جميلات، وسرني أن أشاهدهن مع غيرهن يرتدين الكومينو ليشعرنني لدى وصولي على الأقل كأني في وطنني. عندما كنت أعيش في اليابان قبل الحرب، كانت جميع صديقاتي من النساء يرتدين الكومينو، أما أكثرهن تمدينًا وتحررًا فربما كنَّ يملكن حلةً أو ثوبًا على الطراز الغربي، ولكن هذا لم يكن بالأمر العادي ولم يكن موضع رضاء كبير. وترتدي النساء اليابانيات في الوقت الحاضر الثياب الغربية كل يوم وباستمرار، فيما عدا مناسبات الحياة الرسمية القليلة حين يرتدين الكومينو، وكثيرات منهن لا يملكن أكثر من كومينو واحد، وبعضهن لا يملكن منه شيئًا، وهناك استثناءات بطبيعة الحال، فالنساء المتقدمات في السن يرتدين الكومينو، وكذلك بعض النساء البارزات يرتدينه دائمًا حتى في أثناء العمل. وترتدي صديقتي المقربة الكومينو؛ لأنه يلائمها، ولأنها بلغت السن والمكانة التي تملك معها حرية ارتداء ما يروقها.

وفيما وراء الجمهور الودود الذي اجتمع في تلك الليلة بأزهاره ومصوريه كنت أعرف طوكيو نفسها، وأعرف كيف ضُربت بالقنابل بقسوة أثناء الحرب، وأن بناءها يعاد الآن فأصبحت جديدةً ومتقدمةً،

وربما كانت رمزًا لليابان الغربية عليَّ، ومع ذلك، فحتى الناس الذين أتوا لتحيتي كان يبدو عليهم فيما أظن أنهم أصبحوا أحسن حالًا، وتلاشت المظاهر القديمة الجامدة بطريقة ما، وغدوت أسمع الضحكات السريعة لا الضحك القديم المهذب، وإن كان ضحكًا تلقائيًّا حقيقيًّا. وكان الجميع يتحدثون بحرية دون خوف... كل ذلك كان جديدًا. وظلت الحفاوة عذبةً. ولكن كانت تطفو عليها الحيوية والمرح كان حظرًا قديمًا قد رفع عنهما، كان هذا هو انطباعي الأول في تلك الليلة، وسأتحدث عنه في مرات أخرى؛ لأنه كان واضحًا في كل مكان وفي كثير من الصور.

كان المصورون في نفس الوقت يلاحقون جميع خطواتنا في صبر وأناة، والمصورون اليابانيون جلدون ذوو فلسفة ونشاط لا يصدق، فهم لا يطلبون ابتسامات أو أوضاعًا لطيفة، وآلات تصويرهم لا تكف عن الطقطقة حيثما كان الشخص ومهما كان يفعل، فهم يطيرون ليلًا كاليراع، فكانت صورنا تلتقط باستمرار. وتكدست علينا الأزهار وأحاط بنا الأصدقاء، وأخيرًا سرنا جماعةً إلى السيارات وكانت في انتظارنا، وانطلقت بسرعة جنونية إلى فندق إمبريال، ولا أعرف لماذا لم أشعر بخوف قط من سائقي السيارات اليابانيين!! إنهم يندفعون في طرق غير مخططة، ويمرون بحشود من الناس وهم يصيحون ويحذرون، ومع ذلك لا يرتكبون حوادث أو على الأقل لم أشاهد حوادث، كان يبدو لي كل ذلك طبيعيًّا تمامًا، ويذكرني بأيام أخرى منذ سنوات حين كانت تنطلق بي السيارات على هذه الصورة تمامًا في الشوارع أو على جرف التلال مصعدة فوق الجبال أو هابطة منها، أو مشرفة على البحر

والأمواج الهادرة. ولعل السبب في عدم الخوف أنني في آسيا أتراخى أمام الاستسلام الشرقي حيث لا أملك في الواقع أن أفعل شيئًا حيال أي شيء.

وصلنا في النهاية إلى فندق إمبريال أحياء، إنه المثابة التي تستقبل فيها بلاد اليابان العالم بلطفها وأسلوبها المميزين لها، مقترنين بما يشوق من وسائل الراحة والخدمة الحسنة. ومهما يكن من شيء فخلال ساعة من وصولنا أوينا إلى فراشنا في حجرات مكيفة الهواء، تحيط بنا الأزهار في سلال يابانية.

* * *

على أني مع ذلك لم أستطع النوم إلا بعد وقت طويل، فقد راحت الذاكرة تسترجع الذكريات وكانت الصور تتابع في مخيلتي، وكان أولها وجه أمي المشرق، وشعرها البني، وبشرتها السمراء، وعيناها البنيتان. لقد كنا جالستين في شرفة بيتنا الفسيحة في الصين، ولعلني كنت آنئذ في السابعة من عمري، طفلةً حافية القدمين ذات شعر طويل أصفر، جالسةً أمامها على الأرض، أحتضن ركبتي وأصيخ إليها السمع، وهي تروي لي قصة شقيقتي التي ماتت قبل أن أولد.

قالت أمي: «في مياه البحر الأصفر، بين اليابان والصين، وكنا قد ذهبنا إلى اليابان لقضاء فصل الصيف بالجبال فيما وراء نجازاكي، وكان ذلك قبل أن نعرف «كولنج» بجبال «لو» في إقليم كيانجزي هنا في الصين. وكانت الحرارة شديدةً بوادي يانجتزي، حتى إنني خشيت على طفلتي. وقضينا صيفًا جميلًا في اليابان – وكان الهواء رطبًا صحيًّا

على تلك الجبال، حتى لقد رغبت في البقاء هنالك حتى شهر أكتوبر، ولكن والدك قال إن عودتنا لا بد أن تكون في سبتمبر، وكان ينبغي ألا أطيعه، ولكني كنت قد اعتدت أن أطيعه دائمًا، فعدنا على باخرة يابانية -وهي هيرشيما مارو-، ومرضت الطفلة، ولا أعرف ماذا أصابها -حمى مرتفعة الحرارة ودونستاريا، وكان عمرها ستة أشهر لا تزيد، ولم تكن قوية البنية. وكنت أقاسي دائمًا من دوار البحر- فلم أستطع حتى أن أحملها. وحاول والدك العناية بها، وكذلك كان الدكتور مارتن العجوز يصعد إلى سطح السفينة ويهبط والطفلة بين ذراعيه، ولست أنسى ما حييت كيف كان منظره آنئذٍ- رجلًا فارع الطول، معتدل القامة، يحمل بين ذراعيه الطفلة الصغيرة».

وكانت عينا أمي عندئذٍ تغرورقان بالدموع، وكنت دائمة النحيب لأنها كانت تبكي، ثم أزحف إلى جانبها وتمد إليَّ يدها وأشد عليها بكلتا يدي. وأتوسل إليها قائلةً: «وماذا بعد ذلك؟».

«حسن، أنت تعلمين يا حبيبتي، لقد ماتت بين ذراعيه، وكنتِ راقدةً على أحد مقاعد الباخرة أقاسي من المرض! وكانت ليلةً حارةً يشق فيها التنفس، والقمر في أخريات الشهر آخذ بالغروب في البحر. ورأيته يقف فجأةً ويتفرس في وجه الطفلة، -أما أنا- فقد عرفت».

وشعرت بيدها على وجنتي، وتاقت نفسي إلى مواساتها، وقد نجحت فيما أظن بطريقتي الصبيانية، لأن القصة كانت تنتهي عادةً بأن تجفف عينيها وتقول بسرعة:

«فلنستمتع الآن إلى قليل من الموسيقى قبل أن نأوي إلى الفراش»،

أو ربما تقترح تناول برتقالة أو ثمرة مانجو أو قطعة من الليمون الهندي.

ما أشد تقلب الذاكرة!! لقد تذكرت، حين فكرت في الليمون الهندي، طعم هذه الفاكهة الحلوة الكثيرة العصارة.. إنها شبيهة بفاكهة «الجريب فروت»، ولكنها تفوقها من شتى النواحي بما لا يقاس، فقشرتها يسهل انتزاعها، وأجزاؤها منفصل بعضها عن بعض ورائحتها ممتازة، في حين أن الجريب فروت ليست إلا كيسًا صغيرًا مليئًا بالماء الحامض لا يؤدي أكلها إلا إلى الامتعاض. ولقد صممت على البحث عن الليمون الهندي مرةً أخرى في اليابان؛ لأنني لم أره مطلقًا في البلاد الأخرى.

إذن، فقد سمعت من بين شفتي أمي، لأول مرة عن أسماء المدن اليابانية، ورأيت بعين الخيال منظر الجبل وشاطئ البحر، وعلمت أن أختي أتت ودُفنت بمقبرة مسيحية في شنغهاي؛ لأنني رأيت اسمها فيما بعد بين أسماء ثلاثة أطفال غيرها من عائلتنا، ولدوا بالصين وماتوا بها. حدث كل ذلك قبل مولدي في موطن جدي بفرجينيا الغربية.

وكنت في التاسعة من عمري حين رأيت اليابان لأول مرة، وكان ذلك عند زيارتي الأولى لوطني، إذ رست الباخرة في نجازاكي، وهي باخرة كندية منتظمة، وكان والدي مقتنعًا بأن الإنجليز وحدهم هم الذين يتقنون صناعة السفن وتسييرها، وأن الربان الإنجليزي وحده هو الذي يمكن أن يوكل إليه بسياسة البحارة كما ينبغي. ومدينة نجازاكي ثغر بحري، وكانت تلك الأيام ميناء صغيرًا، ويتحدث السكان هناك بلهجة خاصة لم يسمح لي والدي أن أتعلم حتى بضع كلمات منها، وكان يقول إنها ليست باللغة اليابانية الفصحى، ولا بد عند تعلم الكلمات الأولى من

أي لغة أجنبية أن يكون النطق بها سليمًا، وكان هو نفسه لغويًّا لا يُشق له غبار، وكنت أطيعه دائمًا، ولم يتصادف أن حدث غير ذلك. أما فيما يتصل باسم هيروشيما فقد ظل في ذاكرتي حتى السنوات الأخيرة، بل عشرات السنين الأخيرة، على أنه اسم السفينة اليابانية التي ماتت عليها شقيقتي الطفلة، إلى أن أصبحت مدينة الأموات بعد أن سقطت عليها القنبلة الذرية.

* * *

كانت ردهة فندق إمبريال هي المكان الذي يقابل فيه أي شخص آخر من أي مكان في العالم. وقد هبطت إلى هذه الردهة في صباح اليوم التالي في مصعد تقوم عليه فتاة يابانية جميلة ترتدي الكومينو. وعندما دخلت الردهة اقتربت مني سيدة أمريكية ذات وجهٍ باش وقالت: «يخيل إليَّ أنني أعرفك.. إنني من أوهايو، فهل تسمحين لي بمعرفة اسمك؟».

فابتسمت لها وهززت رأسي، وابتسمت لي ومضت في طريقها. وفي اللحظة التالية، أمسكت بيدي قبضة دافئة، ومثل أمامي صديق قديم من الهند يصيح قائلًا:

«من كان يتخيل أن يراك هنا، ولماذا لا تكونين في نيودلهي؟ إن حجرة ضيوفنا هناك في انتظارك».

وجلسنا، وأخذنا نتبادل الوعود، وقص عليَّ أخبار عائلته وزوجته الحسناء الشابة التي تصغره كثيرًا، والتي تزوجت منه رغم إرادة عائلتها لأنه في سن والدها، ولكنها شابة عنيدة، وكانا سعيدين معًا. وكم كان زهوه كبيرًا حين رزق منها بولدين، وأخرج صورتيهما من حافظة أوراقه

وهو يحدثني عنهما، فرأيت أفراد العائلة يقفون في حديقتهم الجميلة المدارية، وكانت «اسمايا» بديعة في الساري، شابةً رزينةً حسنة الهندام يتشبث ولداها بيديها، ويقف صديقي خلفهم، وهو طويل القامة جميل الوجه أشيب الشعر.

وقال في زهو: «أبدو كأنني جدهم، أليس كذلك؟ ومع ذلك فدعيني أقول لك إنني أنصح الآباء بإنجاب أطفال عندما تتقدم بهم السن.. إن بيتي لن يفرغ مطلقًا، وسأترك هذا البيت قبل أطفالي، فإذا ما وافاني أجلي فإنهم سيهيئون لأمهم الراحة».

كانت سكرتيرتي اليابانية قريبةً مني، فانحنت وابتسمت بلطف وذكرتني قائلةً: «لقد حان الآن موعد المؤتمر الصحفي. والجميع ينتظرونك».

مؤتمر صحفي!! إنه حدث رسمي، بل حدث هائل في اليابان، وهذا ما تبيناه. وكان يومًا حارًّا، فشهر مايو من الشهور الحارة دائمًا في طوكيو. واجتمعنا في حجرة فسيحة بسطت مائدة بأحد أطرافها ونظمت المقاعد في صف حيث اتخذنا أماكننا لا كيفما اتفق، بل بنظام دقيق وفق ما يقتضيه العرف، وقد بحثنا أولًا فيمن يجلس إلى المائدة، ثم في نظام جلسونا.

لقد حضرت عدة مؤتمرات صحفية، ولكن هذا المؤتمر أثيرت حوله ضجة خاصة، وازدحمت الغرفة الفسيحة بمراسلي الصحف من جميع الجرائد والمجلات - كانوا أكثر من سبعين، وعددًا وافرًا من المصورين، ولكنهم كانوا واقفين ينتظرون في هدوء وقد علقوا آلات تصويرهم.

وبدأ المؤتمر الصحفي بكلمات ألقاها أشخاص مختارون كما جرت العادة في اليابان، واتفق فيما يتصل بمؤتمرنا على أن أمهد بملاحظات قليلة مختصرة، وكان ما قلته في بساطة هو أنني سعيدة بزيارتي اليابان مرةً أخرى، شاكرةً لحفاوتهم بي في زيارتي هذه الأخيرة، مستعدة لإعلان نجاح مشروعنا «الموجة الكبرى» وهي قصة اليابان، وقلت إنه يسعدنا أن نخبرهم أن إحدى شركاتهم متعاونة معنا في الإنتاج، وإنني طلبت إلى رئيس هذه الشركة إعلان ذلك رسميًّا.

وبينما كان كل ذلك يجري، كانت الفتيات الجميلات يقدمن لنا كالمعتاد أكواب الشاي البارد.. إنه تجديد كبير هذا الشاي البارد، وهو دون شك من تأثير الغرب؛ لأنني لا أذكر شيئًا من أيامي الأولى سوى الشاي الساخن، والشاي البارد نعمة في الجو الحار الرطب. وكان رجال الصحافة يجلسون بالقرب منا مستسلمين دون أن يتناولوا الشاي، ولم يكن يسمح بتوجيه أسئلة إلى نهاية الكلمات.

كان الحديث في هذا المؤتمر جديرًا بالذكر، وكان مدير الفيلم معروفًا جد المعرفة محترمًا أعظم الاحترام، في مستهل الكهولة، هادئ الطبع، كامل الثقة بنفسه، فيه حماسة هادئة، لم أكن أعرف اللغة اليابانية، ولكن الحديث استطال بعض الشيء، وتساءلت عما كان يقوله رجل مقل في الحديث عادةً، وروت لنا مترجمتنا سرًّا فيما بعد، هذا الحديث، فكيف لا أتأثر بما قال؟ لقد كان حديثًا جميلًا قال فيه إن شركته شعرت بالفخار لإسهامها في فيلم «الموجة الكبرى»، وإنه هو نفسه فكر منذ سنوات في تحويل هذا الكتاب إلى فيلم؛ لأنه قرأه في فترة انهيار ذهني

شديد، وذلك حين وقفت اليابان أمام العالم لأول مرة في تاريخها المجيد أمةً مهزومةً، وهو نفسه لم يعرف كيف يشفى من مزاجه المكتئب. وقد وجد هذا الكتاب الصغير في أحد الأيام، وقرأه، فشعر أن المؤلفة أرادت أن تحمل عن طريقه إلى الشعب الياباني سبيل الأمل، والثقة في أنهم كما عاشوا على القرون معرَّضين دائمًا لدمار الأمواج والزلازل المحتملة الحدوث في كل وقت، -وقد قاسوا فعلًا بصورة مفجعة من جراء هذه الكوارث الطبيعية- فقد عاشوا بعد كل كارثة بشجاعة وقوة مجددتين، ولهذا فهم يستطيعون أن يعيشوا مرةً أخرى حتى بعد الهزيمة. وقد كانت المصادفة العجيبة قد هيأت له فرصة الاشتراك، لصالح شركته، في تحويل القصة إلى فيلم. ولذلك أعلن في هذا المؤتمر الصحفي أن شركته قد انضمت إلى الأمريكيين كمنتجين لفيلم «الموجة الكبرى».

وأصغيت بعرفان لا يُنسى مدى الحياة. إنَّ أسمى جزاء تناله الكاتبة هو أن تسمع أن كتابًا ألفته تحت تأثير الشك والعزلة، قد وصل إلى قلب بشري، وهو يحمل معنى أعمق مما تدركه حتى الكاتبة نفسها أثناء تأليفه.. إن التعويض غير المنتظر هو الشيء الإضافي. وأعقب الحديث أسئلة كثيرة تتصل بالإنتاج والموقع، ومن سيقوم بالتمثيل وما إلى ذلك. ولم نكن على استعداد آنئذٍ للتصريح بأسماء الممثلين. إذ كان لدينا كثير من المتسابقين يجب أن نسمعهم ونراهم، وكانت المفاوضات جاريةً منذ أسابيع مع نجوم معينين، ولم نفصل إلا في أمر نجم واحد فقط، وعقدنا النية على أن نتلطف في تجنب جميع المحاولات التي ترمي إلى استخلاص معلومات منا عن الممثلين. وبينما كنا على وشك

الانفضاض، وردت أثناء تلك المداولات كلمة كانت موفقةً بالنسبة لنجم ياباني واحد، واستطعنا أن نعلن عن قيام الممثل الياباني الشهير «سيسو هاياكاوا» بدور الشيخ المسن في «الموجة الكبرى». وانصرف الصحفيون على هذا الوجه فيما عدا مراسلة إنجليزية لم تكن تعرف اللغة اليابانية، قضيت معها بضع دقائق، وكذلك مع واحد أو اثنين غيرها كان لهما مطلب شخصي.

وهكذا انصرف الجميع، وأصبحت وحيدةً مرةً أخرى.. وكان هذا اليوم نموذجًا لبقية أيام حياتي لا يتغير ما دام هو نفسه قد انتهى -جمهور من الناس ثم لا أحد-، لقد افتقدته آنئذٍ، وبخاصة أنه لا بد كان سوف يستمتع بهذا المؤتمر الصحفي.. لقد كان يتصدر نيابةً عني كثيرًا من المؤتمرات الصحفية في كثير من أنحاء العالم، وكانت أول مرة حين رجعت من الصين، وكنت في حالة من الخجل والخوف بحيث لم أستطع أن أقرر في ضميري ألا أسمح بتغيير حياتي مهما صادفني في الطريق. وقد تغيرت حياتي بطبيعة الحال في اللحظة التي قابلته فيها بمدينة منتريال، إذ حضرت من شنغهاي بالبحر والقطار - ومع أنني عرفته إلى حد ما من رسائله، فقد كتب لي أقوى ما قرأت من الرسائل سحرًا وأوضحها بيانًا- كان حين رأيته لأول مرة أسمر لوحته الشمس، ذا عينين زرقاوين مروعتين، وكنت مع خجلي المعتاد لا أكاد أتكلم، ولكنه كان سمحًا هادئ النفس -على عادته دائمًا- أينما كان ومع أي شخص كان، وكانت هذه الصفة مصدر سعادة لي ومحققة لصالحي حين واجهت المؤتمر الصحفي الهائل الذي عقد في نيويورك في اليوم التالي، ومهما يكن من شيء فقد كان على صلة

وثيقة بمراسلي الصحف يحبهم ويحبونه؛ لأنه بدأ حياته الوظيفية في الصحافة معهم. ومن ثم أشاع بيننا روح الاطمئنان، مما شجعني على أن أجيب عن أسئلتهم بصراحة، بل في كثير من الصراحة، كما قال لي فيما بعد مداعبًا، لدرجة أنهم حين سألوني عن سني لم أحجم عن ذكره ما دام كل عام في عمر الإنسان يعتبر في العميق شرفًا على شرف. وفي الحق لقد كان هدوؤه وسماحته الطبيعية من الصفات التي أهلته بامتياز لرئاسة أي اجتماع، وما أكثر الهيئات التي كان يقوم على رئاستها على اختلافها وسياستها – وما أندر مثل هذه الاجتماعات التي لم أحضرها وأشاهده، وقد بدا وكأنه لا يبذل جهدًا ما في إدارتها، في حين أنه كان يسمح لكل صوت معارض للرأي أن يتكلم، ولكل مناقشة أن تُسمع، ثم لا يلبث في هدوء وبكلمات قليلة أن يجمع الآراء ويصوغها في قرار حاسم!! كان يملك الموهبة النادرة، موهبة خلق النظام من الفوضى، موهبة الرياسة. ولكنه كان يملك فوق ذلك موهبة فهم الناس، تلك الموهبة التي مكنته من اختيار الضروري من غير الضروري، وأن يجد نقاطًا مشتركةً من التوافق بين أولئك المختلفي الآراء.

* * *

ومرةً أخرى، اقتربت مني سكرتيرتي الصغيرة، وقالت:

«لدينا متسع من الوقت للذهاب إلى مزار «ميجي» القديم قبل أن تضطري إلى الذهاب إلى المكتب، فأنا أريد أن تريه أولًا إن تفضلت؛ لأن طوكيو أصبحت جديدةً تمامًا بعد ضربها بالقنابل، ولكن مزار «ميجي» قديم، وسوف تتحسن حالتك لدى رؤيته».

واستدعت مركبةً اخترقنا بها المدينة التي تغيرت معالمها تغيرًا كبيرًا حتى كدت لا أعرفها.. مدينة جديدة مزدحمة ولكنها ليست جميلةً، ومع ذلك فقد ظل القصر كما كان لم يمس، ورأيت أسقفه المائلة، كما كانت قديمًا، تبرز من وراء الجدران الحجرية المحاطة بالخندق، ثم دخلنا مزار «ميجي» ثم إلى الهدوء القديم، فأدهشتني الممرات. وكانت «سوميكو» تسير إلى جانبي في هدوء رصين، حتى ذهبنا لنستريح بجانب البحيرة التي ظلت كما كانت إبان طفولتي حين كنت أقف هنالك مع مربيتي اليابانية.. نفس سمك الشبوط السمين الكبير الحجم الذي يتحرك في تكاسل بين زنابق البحيرة، وذكرت ذلك لسوميكو، فأجابتني بقولها:

«لا، من فضلك، ليست كما كانت، إذ كان يأتي إلى هنا ليلًا كثير من الناس الجياع ابان الحرب لصيد سمك الشبوط وأكله».

ومع ذلك فقد أصررت على أن بعض هذا السمك كعهدي به من قبل، وإلا لما استطاع حتى خلال عدة سنوات أن يكبر إلى هذا الحد.

وقالت بأدب: «ربما، ومهما كان الأمر، فقد حان موعد ذهابنا، ولا شك أن المكتب في انتظارنا».

وسرنا إلى الباب حيث ركبنا سيارة أجرة ذات سرعة خطيرة، وقصدنا إلى مكاتب شركة الأفلام اليابانية الكبرى.

وأقف هنا لأستريح قليلًا.

إن أشد ما يثير الدهشة من مظاهر اليابان الحديثة، مظهر المرأة اليابانية، وقد كانت أول صديقة يابانية لي، زوجة رجل إنجليزي كان

يعيش في منزل فسيح على منحدر الجبل بالقرب من منزل طفولتي الريفي بالصين، ولا بد أنني عرفت نساء يابانيات غيرها أثناء ذهابنا إلى اليابان وعودتنا منها، ولكن واحدة منهن لم تترك مثل هذا الأثر العميق في ذاكرتي كما فعلت السيدة زوجة الرجل الإنجليزي، والسبب في ذلك فيما أظن، أنني لم أكن أراها إلا أثناء مرورها في هودجها يحملها أربعة من الحمَّالين في بزتهم الرسمية، وكانت ترتدي الكومينو دائمًا، وترجل شعرها بالفرشاة وتصقله بعناية على طريقة نساء اليابان القديمة، وتضع على وجهها المسحوق الأبيض (البودرة)، وعيناها العقيقتان تشخصان أمامها في حيرة حتى تراني واقفةً على أرض الشارع. وكانت تحمل في الصيف مظلةً صغيرةً من الحرير الأبيض عليها رسوم لأزهار الكرز، وترتدي في الشتاء فوق الكومينو معطفًا موشًّى بالحرير الملون. وتبادلنا النظرات، وكانت نظراتها حزينةً شاردةً إلى أن ابتسمت لي فاتسعت عيناي بالدهشة والإعجاب؛ لأنها كانت جميلةً. إن المرأة الحسناء، والرجل الوسيم، والطفل الجميل مصدر متعة للناظرين وحسب إن لم تكن لأي شيء آخر. ومن أجل هذا تذكرتها، ومن أجل ابتسامتها اتخذتها صديقةً بطريقة ما.

ولقد أُتيح لي في السنوات التالية أن أعرف السيدة اليابانية العادية معرفةً وطيدةً، وأن أتخذ منها صديقةً، وكان يبدو عليها دائمًا – كائنةً من كانت– الميل الدائم إلى العزلة، وكان يخالطها شيء من الحزن، وكانت مثقلة بأداء واجباتها، وكان هذا يصدق عليها سواء أكانت زوجة فلاح، أم زوجة ثري من ذوي المكانة. إن على الانسان أن يُمتحن بقارعة ما،

كاليأس من الحياة أو تجربة شخصية محزنة قبل أن يتهيأ له الوصول إلى أعماق المرأة، وقد يتعذر الوصول إلى ذلك مطلقًا.. لقد كان صوتها ناعمًا رقيقًا، وتصرفها متواضعًا ومنصفًا بالنسبة للآخرين، وكانت تتخذ الصمت لباسًا، وتبدو كأنها غارقةً فيما وراء الظلال إن لم يُوجَّه إليها حديث مباشر.

لم يعد يصدق الآن شيء من هذا، فالمرأة من الطراز القديم، أو التي تبدو لي كذلك، اختفت بهدوء من اليابان، ولم يتغير الرجال إلا قليلًا جدًّا في مظهرهم وسلوكهم على السواء. أما النساء؟؟ لا أستطيع أن أصف في يوم واحد أو موضع واحد الاختلافات الغريبة التي شاهدتها في المرأة اليابانية. ولنقترب من الموضوع شيئًا فشيئًا عن طريق تجاربي مع أفراد النساء اللاتي أُتيح لي معرفتهن أثناء إنتاج الفيلم.

والحق أنه ما إن دخلنا مكاتب شركة الأفلام حتى أذهلني ما رأيت، ففي السنوات السابقة كان يحتفى بي رجل شاب، وسكرتير ومساعد لمن هم أعلى منهم مركزًا، فقد كان من الضروري أن يزود المكتب بالرجال الشبان، أما الآن فإنه يزود بالشابات من النساء، ومع ذلك فجميعهن في ملابس أنيقة على الطراز الغربي وتجيد كثيرات منهن اللغة الإنجليزية، وانطبع في ذهني أنهن جميعًا ذوات كفاية وجمال. وأقبلت علينا إحداهن عندما ظهرنا، وكانت دون شك بالغة الحسن، وكان شعرها قصيرًا مجعدًا - ولأذكر هنا الآن، وأكرره مرات، مدى أسفي لهذه الموجة المستمرة في اليابان.. إن الشعر الناعم الأسود الذي كان يومًا ما مفخرة النساء اليابانيات أصبح الآن قصيرًا عادةً مضغوطًا بشدة في خصلات شبيهة

بالأجنحة. وأسوأ من هذا كله ما تبين لي من أن أحدث طراز وبخاصة بين الممثلات، يقتضي أن يصبغ الشعر الأسود بلون الصدأ البني، ويختفي اللمعان الطبيعي، ومسخ اللون الطيني وراء لون البشرة الأصفر الباهت الذي كان يومًا بالغ الجمال، ولسبب ما أضعف لون الصدأ البني أيضًا ما كان للعيون السوداء من أثر، رغم أن اليابانيات هن آخر من يصطنع زينةً للعين أو مساحيق للوجه، سائلةً كانت أو جافةً أو في شكل معجون.

ومع ذلك، فإن هذه السمات الحديثة لا تساوي شيئًا إذا قورنت بالسلوك الحديث، فقد ذهبت النظرة الوديعة المنكسرة، وذهب التحفظ الرقيق، والاتصال غير المباشر بالرجال، ليحل مكانه النظرات الجريئة والحديث الصريح، ومهاجمة أي رجل، يمكن أن تتيحه الظروف، مهاجمةً جنسيةً خليعةً، مع تفضيل الرجل الأمريكي السريع التأثر، وهي القاعدة المرعية في هذه الأيام.

ولأمض قدمًا في قصتي. لم أقف على هذا كله بمجرد دخولي مكاتب شركة الأفلام اليابانية الكبرى.. كان ما رأيته سربًا من النساء الجميلات الأنيقات الرصينات، ذوات الكفاية، المتفوقات، الدائمات الشباب كأنما الوهن لا يحل بهن. وقادتنا إحداهن إلى المكتب الداخلي، وأعترف أن نفسي قد اطمأنت دون شك حين رأيت صديقتي الحميمة جالسةً خلف مكتب على أحدث طراز، مرتديةً كيمونو من الحرير المفضض ذي لون رمادي، وحزام عريض لونه قرنفلي باهت. ونهضت لتقابلنا وهي تنحني بشدة، وبكل ما في أسلوب التحية القديم من رشاقة. وهي تتقن اللغة الإنجليزية، وعرفت أنها تتكلم الفرنسية والألمانية والإيطالية على

السواء، وذلك أن السفر إلى دول أوروبا جزء من عملها، وهو الترويج للأفلام اليابانية، ولم يكن فيها من الملامح القديمة غير ثوبها. وهي تشارك زوجها مع زميلين من الرجال مشاركةً كاملةً في العمل، وينقادون لحكمتها وكفايتها ورأيها، وإن كنت قد سمعت اتفاقًا من مدير الإنتاج كثيرًا من الحقد المستور عليها لما لها من تأثير أخذ يتفاقم كثيرًا في هذه الأيام، ومع ذلك فما دام أعزب فإن هذا القول في ذاته يستوجب في اليابان أن يلام عليه رجل جاوز الخمسين من عمره، ولذا لم أحمل حديثه محمل الجد.

كان المكتب جميل التنسيق، كل شيء فيه على أحدث طراز حتى آخر مقعد فيه. وكانت هناك لوحة قديمة لطيفة معلقة على الجدار، وبعض كتابات رائعة. ودعتنا صديقتي إلى الجلوس، وقدمت لنا سيدتان أو ثلاث من الحسناوات الصغيرات الشاي الأخضر في طاسات يابانية فرشفناه وتحدثنا قليلًا، ثم دعتني إلى قضاء نهاية الأسبوع في بيتها الريفي في «كاماكورا»، فلبَّيت الدعوة. وسأروي فيما بعد شيئًا من ذلك. ولم نبق طويلًا، إذ ليس من العادات الحميدة في اليابان إطالة الزيارة أكثر من اللازم في أول دعوة. وبعد خمس عشرة دقيقة أو نحوها، قادتنا السيدة الحسناء الصغيرة إلى مكتب مدير الشركة، وهو رجل مليح طويل القامة، ليس بالشاب وليس بالعجوز.

كان يجلس خلف مكتبه، ونهض عند دخولنا، وانحنى لنا، ثم دعانا إلى الجلوس حول مائدة طويلة عريضة، ولم يكن يتكلم الإنجليزية كثيرًا، فقامت سكرتيرته، وهي سيدة أخرى صغيرة حسناء بالترجمة له

ولنا. وكان رجلًا ذكيًّا إن استطاع المرء أن يحكم بهذا من وجهه اللطيف المهذب، كما كان مجربًا ثابت الجنان واثقًا من نفسه، مجاملًا. وكانت الحجرة مثل معظم حجرات رجال الأعمال باليابان – حسنة التصميم في وقار، ولكنها ذات أثاث حديث فاخر وجو هادئ. وجلسنا إلى المائدة على مقاعد مريحة من الجلد، وقدمت الشاي الطازج فتاة أخرى أو اثنتان. وبينما كان الرجل يتحدث إلينا عن طريق المترجمة الحسناء كنت أتفحص الحجرة.. هناك ثلاث صور زيتية معبرة قيل لي إنها لمؤسسي الشركة، معلقة على الجدار القريب منا، في نهاية الحجرة. وكانت الصورة الوحيدة فيما عدا النتيجة الكبيرة التي لاحظتها أخيرًا معلقةً على الجدار المقابل، مطبوع عليها في شكل إعلان صورة حسناء تستحم في وضع رشيق، بألوان زاهية.. شيء يشغل أعين السادة الثلاثة الوقورين، وإن كانت أعينهم كليلةً إلا أنها كانت فيما يظهر لا تزال تحدق فيها.. وتساءلت وأنا أضحك في سري عما يحدث إذا علقت إحدى هاته الفتيات الأنيقات الجميلات صورتها الشخصية هناك بقصد المزاح.

كان الحديث يجري أثناء ذلك سريعًا، واتضح أن مضيفنا كان يجيد الإنجليزية، ولكن الفتاة الحسناء كانت تترجم عنه بنفس الإجادة باعتزاز ونشاط. ومن الواضح أنه كان يعتمد على لباقتها كما يعتمد على كفايتها. فما رأي الرجل الياباني في هذه المرأة الجميلة؟ لقد فكرت في الكشف في أحد الأيام عن إجابة ما، أما بالنسبة اليها، فقد أظهرت فائدتها التامة له، فضلًا عن كونها زينةً أو حليةً. وفوق ذلك يبدو أنها سعيدة، فقد ذهب عنها حزنها القديم وطلقتها مأساتها، فإذا كان الذي حل مكانها ليس

ملهاةً بالضبط، فقد كان شيئًا فيه حركة وبهجة.

وتحددت في وقت قصير يدعو إلى الدهشة التفصيلات الخاصة بالتعاون بيننا - أمكن القول بأن التحديد ممكن في إنتاج الفيلم بما يلابسه من تميع وضرورات. كان ما امتاز به رئيس هذه الشركة الكبرى الثلاثية من فضائل على الأقل هو الذي حفزنا إلى مقابلة الثلث الباقي من الرؤساء، وهو مدير الإنتاج. وقد عرفنا الآن أننا وصلنا إلى الذروة، إلى رجل التنفيذ، الرجل الذي سنتعامل معه مرارًا وتكرارًا، ومع ذلك فإن مقابلته لن تكون مستطاعةً قبل عطلة نهاية الأسبوع، فقد كنا في آخر النهار، في آخر يوم من أيام أسبوع العمل. وعطلة نهاية الأسبوع في المجتمع الياباني أصبحت حدثًا هامًّا، كما هو الحال في معظم البلاد الغربية، فلا يمكن إنجاز شيء قبل انتهاء هذه العطلة.. إنها الوقت المثالي لتلبية دعوة صديقتي..

* * *

إن مدينة كاماكورا الهادئة لا تبعد كثيرًا عن مدينة طوكيو الضخمة الحديثة، وهي مشهورة في التاريخ الياباني، ولكنها تشتهر الآن بأنها موطن نفر من أشهر الكتاب اليابانيين، وكان زوج صديقتي في أوربا، ولكنها حضرت إليَّ بنفسها في سيارتها المريحة التي يقودها سائق. وسرنا إلى الريف فاخترقنا المدينة المزدحمة وضواحيها المتناثرة، وكان ذلك بعد ظهر يوم مشمس من أيام شهر أغسطس، ولم نكن نعرف أنه مشرق حتى خرجنا من المدينة، وذلك بسبب الضباب المنتشر في كل مكان آخر، وقد يكون الضباب في طوكيو أغرز وأكثر كثافةً، وكانت

الحال كذلك في ذلك اليوم.

واستمتعت كثيرًا بهذه الرحلة، ولم يكن ذلك لسنوح الفرصة، فرؤية الشكل العام المثير لمدينة طوكيو الجديدة المذهلة، أو رؤية ناحية واحدة منها على الأقل، ولكني رأيت أنني أستطيع التحدث كذلك إلى المرأة اليابانية الحديثة المحيرة التي تجلس بجواري، لقد ظلت المرأة اليابانية كما هي جميلة بكيمونها الحريري الرمادي اللون وشعرها الناعم ووجهها الودود المطمئن، إلا أن عقلها كان سفسطائيًّا دوليًّا بكل ما تحمل الكلمة من معنى... وهي تستطيع المحافظة على شخصيتها، وعلى مقومات هذه الشخصية بسهولة في أي بقعة من بقاع الأرض، وفي أي عاصمة، لقد اعتدت رؤية نساء ذوات نزعة عالمية وسفسطائيات في كثير من البلاد، ولكن صديقتي تمتاز بصفة فردية غير عادية، وهي أن المرء لا يخطئ مطلقًا كونها يابانية، ومع ذلك فإن هذا التشبع بالسمات القومية الذي يرجع إلى المولد والتعليم ليس إلا الوسيلة الوحيدة التي تنقل بها تجربةً عالميةً بحكمة وافتتان، فالوردة هي الوردة أينما وُجدت في أي مكان من العالم، ومع ذلك فإن الوردة حين تُوضع في حجرة يابانية، وتُنسق في زهرية يابانية، وتحت مظلة «توكونوما» يابانية، فإنها تصبح بصورة ما يابانيةً، وتلك هي صديقتي.

أخشى أن أكون سألتها مئات الأسئلة، وسرتني إجاباتها الصريحة الذكية. ومضت ساعتان كأنها دقائق.

وقالت لي أخيرًا: «لقد دعوت بعض كتابنا للاجتماع بك، وسيكون عشاؤنا في فندق شهير».

وعندما وصلنا إلى «كاماكورا»، كانت الشمس قد مالت توًّا إلى المغيب، فذهبنا مباشرةً إلى الفندق، ووقفت السيارة على مسافة بعيدة إلى حد ما من الفندق، وسرنا على الأقدام في ممر ضيق بعيد عن شارع كاماكورا الرئيس، ودلفنا إلى باب خشبي، ثم سرنا فوق معبر حجري انتهى بنا بعد أن اجتزنا حديقةً، إلى مرج أخضر مضاء بفوانيس حجرية، واستقرت سقوف المباني الوطيئة تحت الأشجار الضخمة التي تسلقت منحدرات الجبل الشديدة الميل فيما وراء الفندق.

كان الوقت متأخرًا والضيوف ينتظروننا، وهم عدد قليل من أحب كتَّاب اليابان، يرتدون جميعًا الكيمونو الياباني القاتم اللون، ويجلسون على مقعد مستطيل يرشفون الشاي، فقدمت إليهم الواحد بعد الآخر، وعرفت بخاصة مستر «كاواباتا»، وجيرو أوساراجي. ومستر كاواباتا رئيس الجمعية الدولية للشعراء والناشرين ومؤلفي التمثيليات والمقالات والقصاصين في اليابان، وكان قد عاد معي لتوه على نفس الطائرة من زيارة لأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، ولما كنت لم أره قط من قبل فلم أعرف من هو، وكان يجلس أمامي مباشرةً على الجانب الآخر من الممر، فظللت أنظر إليه بين الحين والآخر.

وهمست إلى زميلتي في المقعد: «لا شك أنه رجل اليابان العظيم».

لم يكن طويلًا، وإن كان رقيق العظام دقيقها، ومع ذلك فقد شفت العينان عن الرجل... عينان واسعتان سوداوان تشعان بالذكاء، فكانتا تمثلان في الحقيقة نافذتين يستطيع المرء أن يرى من خلالهما عقلًا حساسًا لامعًا.

كنت آنئذ أتفرس فيها مرةً أخرى، وقد عرفته على الفور..

وصحت: «أنت، أنت الذي كنت على الطائرة!».

فأبتسم قائلًا: «لقد عرفتكِ، ولكنك لم تعرفيني».

قلت: «إنني أعرفك الآن.. لقد قرأت كتبك، وعرفت أنك ذهبت إلى أمريكا الجنوبية، وعرفت - واغفر لي هذا- حين تفرست فيك في ذلك اليوم أنك شخصية ذات أهمية».

وضحك من غفلتي، وأعجبت في دخيلة نفسي بقسماته ذات التكوين الرقيق، وبشرته العاجية المشدودة، وشعره المشعث الأشيب، إنه يبلغ الثانية والستين من عمره، وكان الكيمونو السميك الذي يرتديه يكمل ملامح الأرستقراطية. ومع ذلك فهو نشيط ومتمدين للغاية. وعندما أثنيت بعد ذلك، في المساء،على الخدمة الممتازة في طائرات الخطوط الجوية اليابانية، بدا عليه التخابث وهز رأسه قائلًا:

«ولكن لديَّ شكوى، وهي أنني لا أجد المضيفات رائعات الجمال على الدوام!».

وضحكنا جميعًا، وشرحت صديقتي ذلك في لباقة قائلةً: «إن هذا الكاتب يجتذب انتباه الفتيات الصغيرات، ولهذا فهو خبير بهن».

ومكثنا ساعةً نعجب بالقمر ونتلذذ بعصير الفاكهة البارد، وكان الحديث باللغة الإنجليزية، أو اليابانية التي تترجم من أجلي إلى الإنجليزية، ولم يستخدم معظم الكتَّاب الإنجليزية. واستدعينا إلى المطعم فقصدنا إليه على مهل، وخلعنا أحذيتنا عند المدخل ودلفنا

إلى حجرة فسيحة مفتوحة من جانبيها على الحديقة.. وهناك جلسنا في مهب مروحة كهربائية كبيرة نتحدث أو بجانب «جيرو أوساراجي» وكانت صديقتي تترجم لنا، وكنت قد فرغت لتوي من قراءة قصته اللطيفة «العودة إلى الوطن» للمرة الثانية، وهي في معظمها قصة أنثوية في رشاقتها ودهائها، نستريح بين آن وآخر، ثم نلوذ بالصمت الهادئ. وجلست فكان من الصعب أن نتخيل كاتبها هذا الرجل الطويل القوي الوسيم المتوسط العمر، فهو دون شك لا يمت إلى النعومة بأقل صلة، ولكن الربط بين الرقة والقوة، واللطف والقسوة تجده شائعًا بين الكتَّاب اليابانيين، ولربما كان ذلك ملازمًا للطبيعة اليابانية.

وبينما كنا نتحدث، كان يُقدم لنا طبق بعد طبق، وكنا في موسم سمك اللوت البحري الذي قيل لي إنه أول موسم وافر منذ أمد طويل؛ لأن اللوت البحري كان قد هلك في السنوات الأخيرة بسبب مجهول، ولعله تلوث المياه بالإشعاع الذري. ومهما كانت الحال فقد كان مذاقه لذيذًا، وكان اللوت يُشوى ويُقدم لكل منا على حدة فوق أحجار ساخنة بدلًا من الأطباق، وتوضع كل سمكة كما لو كانت تسبح في قاع المحيط، ومعها صف من الملح يرمز إلى الشاطئ، وقطعة من غصن الأرز تمثل العشب البحري. لقد كان أفخر من أن يُؤكل، ولكنا أكلناه، فوجدناه لذيذًا. وبعد أن رفع هذا الطبق قُدمت قطعة مشقوقة من الغاب الهندي الأخضر يتصاعد منها البخار، بداخلها قطعة طرية من لحم السمان الصغير، وهكذا حتى نهاية الوليمة، ثم عدنا مرةً أخرى إلى الحديقة، وهنالك تحت مظلة من الحصير، قُدِّم لنا «جنكيز خان»؛ وهو طبق منغولي مكون

من شرائح اللحم البقري والخضر مسلوق في مجمرة من فحم الخشب، لعله شبيه جدًّا بطبق «السوكياكي» الحديث. ومن المناسب أن يُجهز ويُؤكل في العراء كما فعلنا نحن تذكارًا لحياة المغول الرُّحَّل. ولأكف عن الإسهاب في ذكر الأطعمة اللذيذة؛ فليس هناك نهاية لبراعة اليابانيين وسعة خيالهم في شئون الطبخ. ومضت الأمسية، وسرعان ما حان وقت الفراق، فتبادلنا تحية الوداع، ومضينا في طريقنا.

وبيت صديقتي فسيح، يجمع فن العمارة القديم والحديث، ويقوم في حديقة هائلة يحيط به جدار حجري، وألقيت نظرةً عاجلةً أثناء دخولي على حجرة جلوس واسعة مؤثثة بمقاعد ومتكآت من الطراز الغربي، وبجانبها غرفة على الطراز الياباني. ولما كان الوقت متأخرًا لا يسمح بالتمهل، فقد أدخلتني غرفة في الطابق العلوي بها حشية ووسادة وملاءة بيضاء لا شائبة فيها، موضوعة على حصير من الخشب على الأرض، وأرتني الحمام الخاص، وخبرت «الترموس» لتعرف إذا كان الشاي ساخنًا، ثم تلطفت، فتمنت لي ليلةً سعيدةً.

وعندما افترقنا، تسللت خلف «الشوجي»، فوجدت فيما وراءها شرفةً تطل على الحديقة الجميلة. وكانت تسبح آنئذٍ في ضوء ذهبي يرسله القمر، ضوء بلغ من سطوعه أن طغى على ضوء المصابيح في الفوانيس الحجرية. كان المنظر يُوحي بهدوء خالد يعجز عنه كل وصف، فالقمر يرتفع في السماء فوق هامات الأشجار كما كان منذ سنين لا يحدها حصر، فالله يرسله عسانا نرقبه يعلو في نفس الطريق عبر السماء قرونًا قادمةً، ولكني تذكرت أنه نفس القمر الذي أوشك أخيرًا أن يقود عالمنا

إلى نهاية مفجعة، فقد أعلن ذات ليلة جهاز رادار ضخم أُقيم لالتقاط أدق انفجار ذري غير عادي في أي بقعة من بقاع العالم، إن انفجار كهذا قد حدث فعلًا، وطارت التحذيرات حول الكرة الأرضية، فلم تعد المسافة مشكلةً من مشكلات الإرسال، ففي مدى ثانيتين كان في الإمكان إرسال الأوامر للانتقام واستقبال هذه الأوامر، وفي التو وصلت رسالة معجلة تأمر بالتمهل.. فماذا حدث؟ لقد ظهر القمر مكتملًا، وأهمل شاب مختلط العقل، في مكان ما، تسجيل ظهوره، وهذا يفسر انبعاث الطاقة، ومن ثم لم تصدر الأوامر وأنقذ النوع البشري.

ولَّيتُ ظهري إلى القمر، وذهبت إلى فراشي، وظلت الفوانيس الحجرية موقدةً في الحدائق طوال الليل، وكانت الصراصير تغني أثناء نومي.

* * *

قررت صديقتي في الصباح أن أرى مزار كاماكورا، فغادرنا المنزل بعد أن تناولنا طعام الإفطار في ساعة متأخرة، وحملتنا السيارة إلى هذا المزار العتيق الذي بُني في عهد «الميجي» منذ مائة وخمسين عامًا تقريبًا، وكان يوم أحد احتشد فيه هناك جمع من المتفرجين.. هناك كانت اليابان الشابة تتسكع.. الفتى والفتاة متشابكا اليدين - يا للعجب، ظلال من اليابان القديمة- أو جنبًا إلى جنب مع سلال الطعام. وجاء إلى المدينة جماعة من القرويين فكان الكبار يسيرون في وقار، أما المرأة فكانت هناك. لا تزال متخلفة عن الرجل بضع خطوات.

ولكن عندما اقتربنا من سرادق الدخول العظيم المصنوع من

خشب الأرز، وجدنا هرجًا؛ إذ كانت تجري هنالك عملية التقاط فيلم تليفزيوني.. رجال يرتدون الحلل الرسمية القديمة (الشوجن والدايميو الخاصة بكبار قادة الحرب والنبلاء) ويتبارزون بالسيف ويتقاتلون في تمثيلية تاريخية فانضممنا إلى جماعة المتفرجين. وفي نفس الوقت الذي كان يصيح فيه المدير – وهو شاب قلق يضع على عينيه نظارات سوداء عرفته هوليود –قائلًا: «إلى العمل!» وكانت آلات التصوير على وشك الطقطقة– في نفس هذا الوقت توقف العمل؛ وذلك لأن شابًّا يركب دراجةً هبط من فوق التل قادمًا من المزار أثناء التقاط المنظر الأوسط. وهنا تعالت صيحات المدير المحمومة على طريقة هوليوود أيضًا، يحذر الشاب صاحب الدراجة لكي يتجه إلى الغابة، وأطاع الشاب في انزعاج. وعاد المحاربون إلى مواقعهم مرةً أخرى، واندمجوا في جو المعركة. وفي هذه اللحظة اندفعت للأسف جماعة من أطفال المدرسة وسط المشهد، وعادت الصرخات، ودفعوا الأطفال إلى داخل الغابة، وعدنا مرةً أخرى إلى الماضي. وهكذا سار العمل قدمًا، ولعل ما حدث كان فيه شيء رمزي من القديم والحديث – شعر فيه المرء بالترابط في أي مكان باليابان– نبيذ جديد في زجاجات قديمة..

عرفت لدى عودتنا أن حجرة الجلوس الفسيحة في ذلك البيت الياباني الجميل، المؤثثة على الطراز الغربي مخصصة للعائلة، أما غرفة الجلوس المؤثثة على الطراز الياباني فمخصصة لوالدة صديقتي، وكانت تبلغ الثمانين من عمرها، وكانت تجلس على خشبة موضوعة على الأرض وتثني ساقيها تحتها. وتضع كل حاجياتها النفيسة على مائدة

منخفضة أمامها: كتبها، وزهرية، وقفص فيه ببغاؤها الصغيرة الخضراء. وقد تكون هي نفسها نتاج قرون مضت، ولكنها كانت سعيدةً كل السعادة في البيت الياباني الحديث المريح، وكانت من العائلة بمثابة القلب، موضع الترحيب والحنان، ولكن هي نفسها كانت تمثل اليابان القديمة. ومرةً أخرى نجد شيئًا قديمًا بجانب شيء جديد.

وانقضى النهار في هدوء سار، في الحديث والشرح، حول الحديقة والمكتبة، ورجعت وحدي في المساء إلى طوكيو في سيارة مريحة مكيفة الهواء من صنع اليابان، وأخذت أفكر في عطلة نهاية الأسبوع، إلا أن حادثًا صغيرًا ظل طافيًا على ذهني فوق كل ما عداه. لقد كانت في هذا البيت الهادئ الفاخر أخت صغرى لطيفة غير فضولية، ولكنها لم تعد بعد صغيرةً، فلم أمسك عن التساؤل عنها، ولم يكن وجودها هناك مما يعنيني في شيء.. كانت نافعةً وراضيةً، ولكن فضولي القصصي المتأصل الذي يتعذر ضبطه وإشباعه تغلب عليَّ قبيل مغادرتي البيت مباشرةً. حقيقةً إنني كنت على صلات صداقة قوية بهذه العائلة اليابانية، إلا أنني شعرت بضرورة بدء حديثي بالاعتذار، فقلت لصديقتي: «إنه ليخجلني أن أوجه كل هذه الأسئلة الكثيرة، ولكن إذا لم أسأل فكيف أستطيع أن أعرف؟».

فقالت لي بلطف: «اسألي كما تشاءين».

فسألتها: «من فضلك، ألم يسبق لأختك أن تزوجت مطلقًا؟ إنه أمر غير عادي».

ومرت لحظة من التردد الذي ظهر على وجه تلك الأخت الكبرى الهادئ، ثم أجابت: «لقد تزوجت مرةً منذ عشرين عامًا.. وكان رجلًا

طيبًا.. صديقًا قديمًا.. وبعد الزواج بأربعة أيام عادت إلى البيت».

وانتظرت على أمل ألا أضطر إلى توجيه سؤال آخر إليها، ولكن هذا لم يحدث؛ إذ قفز السؤال إلى شفتي، فقلت: «ولماذا عادت إلى البيت؟».

فأجابت الأخت الكبرى في بساطة تامة: «لا نعرف، ولم نرغب مطلقًا في سؤالها».

ولم أوجه مزيدًا من الأسئلة -عشرون عامًا ثم لا يرغبون في سؤالها!!

إن هذه الإجابة كشفت عن تحفظ شديد عند شعب بأسره.. لا. إنه ليس إذَنْ نبيذًا جديدًا في زجاجات قديمة، بل يجب أن يكون المثل على العكس- نبيذ قديم في زجاجات حديثة.... إن الفرق بينهما يسير الفهم، ولكنه عميق.

* * *

وتقابلنا في صباح اليوم التالي، على موعد، بمدير الإنتاج وهو شخصية هامة في أي شركة من شركات الأفلام، ولكنه في هذه الشركة اليابانية يشغل وظيفة رئيس الوزراء، فكل شيء في الشركة يشير إليه وينتظرون منه عمل المعجزات، وكل قبول أو رفض يصدر من الجهات العليا إنما يكون عن طريقه هو.

وفي صبيحة يوم الإثنين -وكان يومًا شديد الحرارة- أدخلتنا إلى مكتبه فتاة جميلة، فرأينا رجلًا يابانيًّا ضخمًا يضع ذراعيه في كمي قميص. شعره مشعث وعيناه ثاقبتان، كئيب الوجنتين، منتفخ الفم، مرتفع الصوت كان يجأر في أحد التليفونات، بينما كانت تشغل ثلاثة تليفونات غيره في

مواضع مختلفة بالغرفة ثلاث فتيات جميلات، تتحدث كل منهن وفقًا لإملائه، ولكن بأصوات عذبة.. وأدار فينا عينيه المنتفختين الغاضبتين، ولكنه لم يعترف بوجودنا إلا بتلويحة متغطرسة من يده الضخمة يطلب إلينا الجلوس، فجلسنا على مقاعد منخفضة حول مائدة منخفضة. وقدمت لنا الشاي أثناء انتظارنا فتاة مليحة، وقطع حديثه أخيرًا بجئير عنيف، ثم راح يحيينا بتحيات مليئة بالترحاب والعطف والملالة، وفي نغمة خاصة متهورة عرفنا فيما بعد أنها طريقته المعتادة..

وترك الأمور الرسمية جانبًا، وتحدث بصراحة واضحة الصراحة التي يقتضيها الموقف دون شك.. ويرجع اختياري لهذا الوصف إلى ما تعلمته حتى في بلادي نفسها من أن الصراحة اللطيفة الواهنة التي يتبعها المواطنون الملازمون لعالم المسرح لا تحمل بالضرورة ما يُسمى صدقًا؛ لأن الصدق في المسرح قد يكون مؤقتًا وفي نطاق الأمل والتمني، أو ربما في نطاق القصد، فمدير الإنتاج إذَنْ يتبع بدقة عالم المسرح.. وكان يتكلم اليابانية، وتقوم بالترجمة له إحدى الشابات الجميلات اللائي تلقين تعليمهن بالولايات المتحدة، فخففت من حديثه دون أن تمسخ قوته، وكانت في ذلك بالغة البراعة، ولكنه حتى تلك اللحظة لم نعرفه على الوجه الحقيقي، ولم يقل في ذلك اليوم -وقد بدا عليه الضيق- سوى أنه سيبذل قصارى جهده لمعاونتنا، وطلب منا مساعدةً واحدةً وحسب، وهي أن نسمح له بتنسيق الشئون المالية مع هيئة الممثلين، وأخبرنا أن شركات الأفلام اليابانية لم تكن ترحب كثيرًا بإنتاج الأفلام الأمريكية المشتركة؛ لأن الأمريكيين يدفعون أجورًا غير معقولة، وبذلك يتسببون في تذمر الممثلين

وعنادهم فيما بعد حين يتعاملون مع شركاتهم اليابانية، ثم ضرب المائدة بشدة بقبضة يده الغليظة، وقال بصوت خشن: إن الدليل على ذلك ما حدث في إيطاليا! وهذا يجب ألا يحدث في اليابان! فوعدناه، وانصرفنا.

أما الآن -وقد تقابلنا مع الأشخاص ذوي الشأن، فقد أصبحت مهمتنا التالية رسم البرنامج، ورسم البرنامج في عمل فيلم من الأفلام السينمائية لا يقل أهميةً عن تجميع المواد للآلة الحاسبة؛ لأن جميع العناصر يجب أن تتوافر حالًا، وبنظام يضمن النتيجة الملائمة، ومن ثمة لم يكن من واجبنا النظر في الترتيبات مع شركات الأفلام اليابانية المتعاونة معنا فحسب، بل علينا في نفس الوقت أن نفكر في الكشف عن مواقع لتصوير الفيلم، وكذلك في الممثلين والملحن والمصور وبقية الأشياء التي يقتضيها إنتاج فيلم معقد ضخم.. أما وقد انتهى الفيلم الآن، فأجدني أحمل قدرًا من الاحترام أوفر كثيرًا من ذي قبل لجميع الأفلام السينمائية، حتى الرديء منها، فمهما كانت غير مرضية من الناحية الفنية، إلا أن إنتاجها اقتضى عناءً جسيمًا، وكثيرًا من الإخفاق، وكثيرًا من الكفاح الشديد، ناهيك بقلق الفكر وكلال البدن.. إن إنتاج الفيلم عمل ضخم..

وبينما كان مدير الإنتاج يعمل على الوفاء بوعوده ومساعدتنا على إيجاد الممثلين، صممنا نحن على البدء في اختيار المواقع، وكانت المجموعة المطلوبة: شاطئ بحر، وبيت صياد، وبيتًا ريفيًّا، ومنزلًا لأحد السادة، وبركانًا ثائرًا.. أما المنظر الخلوي والواقعة فمن شأنهما إشباع القصة التي سيعيشها الممثلون في هذه الأماكن.. وهناك أيضًا موجة المد التي سنذكر عنها الكثير فيما بعد..

ورحنا نتشاور فيما يجب أن نعمله أولًا، وكانت قد تمت الاتصالات الأولية، وقررنا إيجاد المواضع وبخاصة البركان.. وكنا نأمل أن نجد كل شيء بالقرب من طوكيو إن أمكن، ذلك لأن «الأستديوهات» في طوكيو نفسها، ولكن مثل هذا الأمل لم يداعبني أنا شخصيًّا؛ إذ إنني رأيت فيما أذكر قريةً صغيرةً على مرفأ بالقرب من البحر تعلوها مزرعة على جانب تل مدرج، وعلى مقربة منه منزل أحد السادة القدماء.. وأعتقد أن مثل هذه البقعة لا يمكن أن توجد بالقرب من طوكيو، ومع ذلك فقد كان للبركان شأن آخر، ولم تكن جزيرة أوشيما العجيبة السوداء بعيدةً عن المدينة -على مسافة ساعات قليلة بالباخرة الساحلية الصغيرة المتداعية، وخمس وأربعين دقيقة بالطائرة- وقررنا ونحن على ظهر الباخرة مداومة البحث عن قرية صيد أثناء إبحارنا بحذاء الشواطئ المسننة لنتمكن من الرجوع إليها.

قيل لنا إن المحيط يغلب أن يكون هائجًا، ولا شك أن السفينة خفيفة، ولكنها مع ذلك كانت نظيفةً صغيرةً، وحين صعدنا عليها وجدناها ملأى بأطفال مدرسة في رحلة مع مدرسيهم..

إن أطفال المدرسة أحباب اليابان، ويستطيع أن يتبين ذلك كل شخص، وهم يرتدون الآن الملابس الغربية، وترى في الساعة الثامنة صباحًا جماعات من الأولاد والبنات الصغار في ملابس أنيقة نظيفة لا شائبة فيها، يحمل كل منهم حقيبته و«ترموسا» في طريقتهم إلى المدرسة.. وفي أيام العطلة أو الأعياد الخاصة يسيرون في مظهر نظيف أيضًا إلى شتى الأماكن الشهيرة، يسودهم النظام دائمًا، وتبدو عليهم السعادة..

أزعجتنا جماعة التلاميذ الصغار الذين كانوا على الباخرة الصغيرة في ذلك اليوم، فقد غاص من هيكل السفينة جزء كبير جدًّا تحت خط الماء، ومع ذلك لم يَبْدُ الفزع على أحد، ولما كان اليوم صحوًا والبحر مشرقًا بقممه البيضاء، فقد صممت على طرح مخاوفي جانبًا والاستمتاع بالرحلة القصيرة، وسرنا طوال الصباح بمحاذاة الشاطئ الرائع الجمال دون أن يقع نظرنا على قرية يمكن استخدامها، وأخيرًا سرنا شمالًا إلى حوض واسع للسفن فوجدنا أنفسنا في المرفأ.. وكان لا بد لنا من قضاء ليلتنا هنالك والعودة بسفينة الصباح، فذهبنا لساعتنا إلى الفندق وهو مبنى فسيح، ونزل صيفي أقرب قليلًا إلى الرثاثة كمعظم الفنادق الصيفية في أي بقعة كانت. ومما أثار دهشتي أن خصصت لي حجرة بجناح الإمبراطور، وأكد لي صاحب الفندق في ود أن الإمبراطور والإمبراطورة نزلا بهذه الحجرة منذ أسبوع واحد، ووجداها مريحةً جدًّا بحيث لم يرغبا في النهوض لتناول طعام الإفطار، وقد قلقت لهذا الأمر كثيرًا حتى أنني رجوته أن يختار لي غرفةً أقل منها فخامةً.. واستخدمنا سيارةً طافت بنا حول الجزيرة، ثم ذهبنا إلى البركان..

إن أوشيما سوداء، وقد أعادت إلى ذهني أنشودة الملك سليمان التي أنشدها لحبيبته السوداء «أنت سوداء يا حبيبتي، ولكنك جميلة» وهكذا كانت أوشيما، فالجزيرة برمتها كوَّنها البركان، ومعنى هذا أن تربتها مكونة من اللابة التي فتتها الزمن وعوامل الجو.. ولا توجد بها مزارع، ولكن الأودية ومنحدرات التلال المنخفضة تكسوها الخضرة ونبات الكاميليا البري.. وعندما يحل موسم ازدهار هذا النبات في مطالع

الربيع تتحول الجزيرة إلى «تعريشة» ذات شهرة في جميع أرجاء اليابان.. ومع ذلك فإن معاش السكان لا يتوقف على أزهار هذا النبات، بل على الزيت الذي يستخدم من أكمام بذوره- وكم لعبارة زيت الكاميليا من وقع يوحي بالترف!! إنه في الواقع سائل خفيف القوام في صفاء الماء عديم الرائحة، ويستخدم في كل شيء من طهو الطعام إلى دهان الشعر..

ويتصل بساحل الجزيرة عدد قليل من القرى، والسكان قليلون لفقر الأرض وشاطئها بدائي، ولذلك كثيرًا ما أوقفت السيارة لأستمتع برؤية الأمواج العالية البيضاء التي تتكسر على الصخور السوداء كالأبنوس، وما في هذا المنظر من جمال يبعث في النفس الرهبة..

كانت الطرقات وعرة، ففرحنا لتوقف البحث أخيرًا لكي نذهب إلى البركان ذاته، وكنت أراه طوال اليوم ينفث الدخان والبخار فوق رؤوسنا، وتنبعث منه سحب من غاز الكبريت الأصفر- إنه لمنظر مفزع. وعندما بلغنا قاعدته تملكتنا الدهشة حقًّا، فالجبال ناعمة سوداء عاطلة تمامًا من الحشائش بل ومن أشجار الكاميليا، إذ قضى الغاز والبخار على كل شيء على مدى مئات الأميال المربعة.. وتحيط الجبال الشاحبة بالبركان ضاربةً بقننها السوداء العالية إلى السماء.. وقد يبدو القمر هكذا عندما يهبط عليه رائد الفضاء لأول مرة، وقد شعرت أنا شعور رائد الفضاء، إذ لم يكن مما يصدق أن أرضنا يمكن أن تكون هكذا. ولم نستطع كذلك الاقتراب من فوهة البركان في هذه الرحلة على الأقل، وقيل لي إن طول الطريق المتعرجة يبلغ من سبعة أميال إلى عشرة، ويجب أن يقطعها الشخص على ظهر حصان.. ووقفت عشرات من الخيل المطهمة في

انتظارنا مع أصحابها المتحمسين، ومع ذلك لم يكن لزامًا علينا تسلق البركان لنعرف أننا وجدنا ضالتنا، فوقفت على قبة تل مقفر عند سفح البركان، ورأيت الشمس الغاربة تصبغ بالحمرة البخار المدوم الأبيض حتى أصبح كلهيب النار المتأججة. وكان لا بد لنا من العودة إلى هذا المكان مع ممثلينا ومصورينا وعمالنا فيما بعد، وسنتسلق إلى أعلى فوهة البركان ونلتقط منظر بطلنا الصغير «يوكيو» ابن الأب وهو واقف يتطلع إلى أسفل ويتفرس في قلب كوكبنا..

وهل أنسى مطلقًا أننا رأينا اتفاقًا -قبل عودتي إلى طوكيو، بعد ظهر ذلك اليوم- مخروط جبل «فوجي» الثلجي يرتفع فوق السحاب إلى منتصف المسافة إلى السماء! قد يظل زوار اليابان عدة أشهر دون أن يروا «فوجي»؛ فإن ظهور الجبل المقدس لأعين البشر لا يكون إلا بمحض المصادفة وبنعمة الله..

كنا نسير في طريق على جانب التل في منتصف وقت العصر، وكان الجو ملبدًا بالسحب، وبينما كنت أحلم برؤية هذا المنظر لم أتجاسر أن أؤمل في رؤيته.. ورأيته على حين فجأة.. القمة الناصعة البياض، تقابلها مساحة من سماء زرقاء.. إن قليلًا - قليلًا جدًّا من المناظر الشهيرة أجمل في واقعها من شهرة جمالها، «فتاح محل» مثلًا أحد هذه الأشياء، «فوجي» هو الشيء الثاني.. ووقفنا ثلاث دقائق ونصف دقيقة نتطلع في حبور ووجل، ثم أخفت السحب هذا المنظر الرائع مرةً أخرى..

فتحت عيني في طوكيو صباح اليوم التالي في الساعة الخامسة في يقظة تامة وانتباه كامل.. لقد استدعيت بطريقة ما، لا بواسطة صوت،

أو على الأقل لم أسمع صوتًا، إنما أدركت بصورة ما أنني استدعيت.. لم تكن الغرفة مظلمةً ولا مضيئةً.. كان الليل قد بلغ نهايته، ولكن الفجر لم يكن بعد قد انبلج، فظللت راقدةً في فراشي أصيخ السمع مترقبة، إذ كنت مقتنعةً أن أحدًا ما كان يحاول الاتصال بي، ثم ضعف هذا الظن شيئًا فشيئًا وأصبحت وحيدةً مرةً أخرى، ومع ذلك لم تكن حالي كما كانت من قبل، فقد كان هناك شيء ما على وشك أن يحدث ولا بد أن أتهيأ له..

ودق جرس التليفون في الساعة السادسة إلا ربع. فعرفت لتوي ما سوف تنطوي عليه هذه المحادثة..

قال الصوت: «من فضلك.. محادثة من وراء البحار من الولايات المتحدة، من فضلك بنسلفانيا تتكلم -هل أنتِ مستعدةً؟».

قلت: «أنا على استعداد للمحادثة»، وعرفت آنئذ أنني كنت أنتظرها منذ ساعة».

وقال الصوت: أرجو أن تظلي على مقربة من التليفون.

لقد كنت قريبةً منذ ساعة، وبقيت أنتظر، وفي مدى سبع دقائق، وكانت ساعتي تحت نظري، جاءني صوت ابنتي وبيننا آلاف الأميال من الأرض والبحر.

«والدتي؟».

«نعم يا حبيبتي».

«لا بد أن أبلغك شيئًا، فهل أنتِ مستعدةً؟».

«نعم يا حبيبتي»..

«والدتي» ثم تلعثم الصوت الواضح الشجاع الفتي، واستمر في إصرار يقول: «لقد فارقنا والدي في هذا الصباح أثناء نومه».

«لقد فكرت في أن ذلك هو ما أردت أن تخبريني عنه».

«كيف عرفت؟».

«عرفت.. في هذه اللحظة».

«أستعودين إلى الوطن؟».

«اليوم.. على أول طائرة».

«سنقابلك في نيويورك».

«سأبرق لكم حالما أعرف موعد الطائرة».

«لقد حضر الجميع، نحن جميعًا هنا وسنعنى بكل شيء إلى أن تحضري».

«أعرف ذلك».

وتبادلنا الكلمات القليلة الخاصة.. كان القلب يتحدث إلى القلب، ثم توقفت. وبعد لحظة كان الحنين، آه، لو لم أفارقه أبدًا، لو كنت هناك حين فارق الحياة.. ثم طرحت كل ذلك جانبًا.. لقد بحثت ذلك بدقة في نفس الوقت مع طبيب العائلة، فقال لي منذ سنوات إجابة عن سؤالي: «قد يحدث ذلك بعد عدة سنوات، وقد يحدث غدًا.. يجب أن تستمري في حياتك كما تعيشين تمامًا.. إن قلبه قوي وهضمه مضبوط، أظنه سيعيش وقتًا طويلًا، ولكن تذكري أنك وقتما يحدث وكيفما يحدث لن تستطيعي عمل شيء لمنعه، بل لن أستطيع أنا عمل أي شيء حتى ولو

كنت جالسًا بجانبه».

وقد تردد الطبيب آنئذ قليلًا، ثم تابع حديثه: «إن عقله أصيب بعطب شديد، وينبغي أن تتوقعي بطبيعة الحال تغيرًا تامًّا في شخصيته -لا نعرف»..

ذلك العقل اللامع الذي يستجيب بسرعة كبيرة لكل فكرة من أفكاري، نعم، لقد حدث تغير في الشخصية، الرجل الذي عرفته كل المعرفة، الزميل الحكيم أصبح شخصًا آخر، أصبح طفلًا سريع التصديق، طفلًا لطيفًا لا يملك من أمره شيئًا، ولا يملك أحد إلا أن يحبه.. كنا سعداء حتى على هذه الصورة، عندما يتهاوى العقل ولا يبقى غير الجسم، يحدث في الواقع تغير مخيف في الشخصية في بعض الأحيان. ويعتقد الصينيون أن للكائن البشري ثلاث أرواح وسبعة أطياف أرضية، فحين ترحل الأرواح تبقى الأطياف الأرضية وحدها، ويصبح الشخص شريرًا شرسًا بوسائل لا يمكن التنبؤ بها، ولكن الحال لم تكن كذلك معه، فإن أطيافه الأرضية كانت قطعةً واحدةً مع أرواحه الثلاثة إذ استمر في حياته كما كان دائمًا، محبًّا صبورًا عازفًا عن إثارة المتاعب كالمعتاد، فيما عدا توقفه شيئًا فشيئًا عن الاتصال، فقد فقد النطق وأصيب بضعف البصر وكف عقله عن العمل.

* * *

كان الوقت مبكرًا جدًّا لا يسمح بإيقاظ أي شخص لأبلغه الخبر، وفي هذه الحالة لم يكن إلى جواري شخص ما يشاركني أفكاري أو ذكرياتي، يا للسرعة! في لحظة واحدة تنقضي سنوات الحياة السعيدة،

فتصبح مجرد ذكريات!! إن الإعداد الطويل البطيء خلال السنوات السبع الماضية قد تم الآن.. اليوم الذي كنت أخشاه قد حل، والعزلة النهائية أصبحت أمرًا واقعًا..

إن الأخبار لا تخفى، فقد أبلغه شخص في مكتب التليفون لشخص آخر، وخلال ساعة انتشر الخبر، وأخذ التليفون يدق والأصدقاء يهرعون إلى بابي يتساءلون عن صحة الخبر، كنت أسمع أصواتهم، يسألون، أسمع إجاباتي: نعم، إن الخبر حقيقي، ويجب أن أستقل أول طائرة إلى الوطن، ولكن لم أجد لي فيها مكانًا، وعاد أصدقائي فدبروا لي مكانًا إذ تنازل لي شخص ما عن مكانه حين عرف، ولكن أول طائرة كانت سترحل في منتصف الليل، ومن ثم كان أمامي يوم بأكمله عليَّ أن أقضيه بصورة ما.. وكنت في حال لا أحتمل معها حتى عبارات المواساة والمشاركة العاطفية.. وكان من الضروري أن أغادر المدينة إلى الريف بعيدًا عن الاتصالات التليفونية.. بمنأى عن الأصدقاء الذين كانوا يترددون عليَّ.. وفي تلك اللحظة قالت لي ميكي: «تعالي إلى بيتي لقضاء سحابة هذا اليوم».

وصديقتي ميكي تعيش على مسافة ساعتين من طوكيو، ينقلك إليها القطار السريع بسرعة وراحة -والقطارات اليابانية ممتازة-، ولكنا سافرنا في سيارتها الخاصة.. وعندما بلغنا المدينة الصغيرة التي تعيش بالقرب منها، سرنا قدمًا إلى سفح تل منحدر لا يبلغ أن يكون جبلًا، وفتح الباب الكبير لمرورنا.

وقالت ميكي بسرعة: «من هنا يمكنك أن تسيري على الأقدام».

واطمأنت نفسي إلى ذلك الصوت الواثق العملي، ومما خفف عني أن ميكي نفسها سوف تتصرف تمامًا كما لو كنت قد حضَّرت لقضاء يوم عادي وحسب. ولم أكن في الواقع قد رأيت بيتها من قبل، رغم أنها زارتني في بيتي في بنسلفانيا أكثر من مرة وعرفت شيئًا عن أعمالها لصالح الأطفال أنصاف الأمريكيين المولودين في اليابان. إنها لسيدة فريدة الطراز بين اليابانيات.. ولكن لماذا أذكرها بين اليابانيات! إنها سيدة منقطعة النظير، لم أعرف قط واحدةً من طرازها.. فهي متمدينة حتى آخر خلية في عقلها، ولكن دماءها قديمة ومن أشراف اليابان، وتنتسب إلى إحدى الأسرات الكبيرة باليابان، وقد شغل زوجها عدة وظائف مشرفة.. وكانت تعيش في أوروبا وتزور الولايات المتحدة مرةً أو مرتين في العام، وترتدي الملابس الغربية لكي تستطيع التحرك فيها بحرية، ولكنها تستطيع أن تكون يابانيةً وحسب في أي بقعة من بقاع العالم.. وهي تسخر من هيئتها وتطلق على نفسها «وجه القرعة» والحقيقة أن وجهها مستدير، ولكنها جميلة، وفي عينيها حيوية، ومزاجها مزاج شخص اعتاد أن يُصغى إليه، وقصة حياتها الخاصة كما ترويها بنفسها شيء شبيه بما يلي:

ركبت القطار في أحد الأيام في أعنف فترات الحرب قاصدة إلى الريف بحثًا عن الطعام.. وكان القطار مزدحمًا، واحتللت آخر مقعد فيه، وسقطت على حجرها أثناء جلوسها حزمة من فوق رف الأمتعة المثبت فوق رأسها وكانت ملفوفةً في جريدة، والأغلفة مفككةً فحلتها لتعيد حزمها بإتقان فإذا أمام عينيها المفزعتين طفل ذكر حديث الولادة.. لقد كان ميتًا.. وفي نفس اللحظة دخل رجال الشرطة البحرية عربة القطار

للبحث عن المشتغلين بالسوق السوداء ورأوا ما كان على حجرها، فقضبوا عليها لتتهم بتهمة محاولتها التخلص من الطفل الميت، ظنًّا منهم أنه طفلها. ومرت بها دقائق عصبية إلى أن تكلم لصالحها فلاح عجوز فقال:

«إنه ليس طفلها، فقد دخلت سيدة شابة، ووضعت هذه الحزمة على الرف، ثم مضت مبتعدةً»..

واقتنع رجال البوليس آخر الأمر، وأُنقذت السيدة. ولكنها لم تكن تنسى مطلقًا ذكر هذا الطفل الميت كلما روت قصتها، لتردد دائمًا: «إنني لأشعر دائمًا بثقل هذا الطفل الميت على ركبتي».

وبعد أيام، بينما كانت تسير في حديقتها الجميلة في الصباح الباكر، لاحظت شيئًا يتحرك تحت شجرة كثيفة الأغصان فظنت أن هناك أرنبًا، فانحنت لترى إذا كان مصابًا، وحينئذ رأت طفلًا صغيرًا.. لقد تركته هناك أم صغيرة بائسة.. وجذبت الطفل وحملته إلى مسكنها وعنيت به.. ومنذ تلك اللحظة كرست نفسها للأطفال أنصاف الأمريكيين المولودين في اليابان، ونما العمل الذي بدأ صغيرًا بطفل واحد ميت، وأصبح عملًا حيًّا لصالح آلاف من الأطفال أمهاتهم يابانيات وآباؤهم أمريكيون من السود والبيض.. وأسست وكالةً خاصةً بها للتبني ضمَّت أكثر من ألف طفل يتيم من أنصاف الأمريكيين، يعيش آباؤهم الأمريكيون بالولايات المتحدة، ولا يزال الأطفال يولدون، ولا تزال هي تكفلهم، ولكنَّ كثيرين منهم يعيشون معها، وسيظلون في بيتها إلى أن تشتد سواعدهم ويصبحوا قادرين على العناية بأنفسهم..

بينما كنت أتسلق التل في ذلك اليوم سمعت أصواتهم من أعلى تصيح وتضحك وتصرخ أثناء اللعب، وكان الطريق المتعرج بين الأشجار مرصوفًا بالأحجار به درج من الحجر يؤدي إلى أشد المنحدرات ميلًا.. كان يومًا معتدل الطقس، وكانت تنفذ أشعة الشمس من بين جذوع الأشجار على الأرض المغطاة بالطحلب، ومن تحتنا على مسافة بعيدة بيوت قروية متلاصقة سقوفها من الغاب والقرميد. وسرت على مهل، أتذكر طاقاتي القوية المعتادة وهي تتقوض من أعماقي.. كنت ألقي الأسئلة وأسمع إجاباتها، ولكني كنت طوال الوقت بعيدةً جدًّا عن كل إنسان، لا أشعر بأحد بالقرب مني كما لو كنت معلقةً في الفضاء منعدمة الوزن.. كان العقل والقلب في خدر، وأدركت على حين فجأة أنها كانت تتحدث فلا أدرك ما قالت..

سألتها لمجرد الرغبة في الحديث: «كم طفلًا لديك يا ميكي؟».

فأجابتني وكانت تسير بسرعتها الرشيقة المعتادة، ثم تريثت حتى ألحق بها: «أربعمائة وثمانية وأربعون طفلًا».

أربعمائة وثمانية وأربعون! لقد كانوا منتشرين في كل مكان من هذه الأبنية اليابانية الجميلة القديمة وفي حدائق بيت أسلاف ميكي، كما شيدت هي أيضًا بعض البيوت الحديثة التي تصلح لمدرسة وعنابر لنوم الأطفال.. وقد رأيت بأحد العنابر طفلتين منهمكتين في العناية بأرنب وبعض الفيران البرية.. وكان يسمح للأطفال بالاحتفاظ بحيواناتهم الأليفة على مقربة منهم، ويختص كل طفل بمكان يحفظ فيه ممتلكاته الشخصية.. إن معظم ملاجئ الأطفال يسودها الحزن، ولكن ميكي

جعلت مؤسستها الضخمة -بطريقة ما- بيتًا لا ملجأ..

ولاحظت أن نحو نصف الأطفال من أبناء الزنوج، ونسبة مواليد السود بطبيعة الحال أقل من النصف بكثير، ولكنها تبنت معظم الأطفال أنصاف البيض، ولم تكفل إلا قليلًا من أنصاف الزنوج، وذلك لسبب بسيط هو أن قليلًا من الأزواج الزنوج من يستطيع تحمل مصروفات التبني..

تجولنا في أرجاء المدرسة، وكنا نقف هنا وهنالك لنشاهد ناحية معيشة من نواحي الاهتمام.. إن المدرسة أعظم متعة لميكي، لقد كانت تنشط لبناء مدرستها الثانوية للكبار، وقد شغلت طوال السنوات العشر الماضية في أعمال المدرسة كأنها في سباق مع الزمن، واضعةً أطفالها نصب عينيها.. وشاهدنا جميع حجرات المدرسة فيما أذكر، ولاحظت أن على كل باب خريطة تمثل ولايةً من الولايات المتحدة. وقد أجابت ميكي عن سؤالي: «أذهب كل عام إلى بلادكم، وأركز طلبي في ولاية واحدة، وعندما يعطيني الناس هناك قدرًا من المال يكفي لبناء حجرة بوضع خريطة على الباب تمثل الولاية، وأحفر عليها تقديرًا لأهل تلك الولاية»..

قلت: «ولكن خرائطك مختلفة في حجمها النسبي كل الاختلاف عن الحقيقة، فمثلًا رود آيلاند كبيرة هنا للغاية، في حين أنها في الواقع أصغر ولاياتنا.

وفتحت بابًا آخر بينما كنت أتحدث إليها، فرأيت بداخله غرفةً صغيرةً لا يزيد اتساعها على مقصورة ضيقة أصغر كثيرًا من أن تكون

حجرةً للدراسة.. أيحتمل أن تكون مخزنًا؟ وكان على باباها خريطة لا تزيد مساحتها على راحة يدي، وهي توضح مدى التقدير الموجه لأهل تكساس!!

وأدهشني أن ضحكت ميكي وقالت بصراحة: «إن أهل تكساس يفضلون الاحتفاظ بأموالهم في تكساس نفسها، وإنني لأشكرهم بقدر ما قدموا من مال لصالح أطفالهم أنصاف التكساسيين.. ولكنك ترين أن تكساس صغيرة جدًّا هنا في مبنى مدرستنا»..

– لم يكن في صوت ميكي المبهج أقل استنكار، بل إنها شرحت لي مدى رضاها عن الناس بقدر ما تلمسه فيهم وحسب.

وواصلت طريقها مترددةً، بين المطابخ وحجرات الطعام النظيفة، وكان الأطفال يعنون بأنفسهم إلى حد كبير. فهم في كل مكان يساعدون ويثرثرون ويضحكون أثناء عملهم، وكانت هي تصلح قليلًا هنا وهنالك ويُصغي إليها الأطفال بانتباه، ولكن دون خوف. أما إذا تحدثت، فحديثها قاطع إلى حد معين، ولم تكن عاطفيةً، ومع ذلك فأظنني لاحظت أن هناك إعزازًا خفيًّا لمن تسميه «ولدي الشقي» أو «ابنتي الشقية». حقيقة إنها تقدر بل وتستمتع بالمعاكسة التي تفصح دائمًا عن نفسها في هذا المكان كأي مكان آخر، وهي تفسر ذلك بقولها إنها هي نفسها كانت «بنتًا شقيةً» عندما كانت صغيرة، وهي تضحك الآن في نفس الوقت الذي تقوم به بالتعنيف أو العقاب الضروري. وهي لا تخاف أطفالها، وهم يعرفون أنها تضعهم في شغاف قلبها. قد عرفت أنها تنام في غرفة واحدة مع أشقى الأطفال وأحدثهم عهدًا.

وقالت لي: «ويحدث أحيانًا أن يرغب طفل «شقي» في الهرب؛ لأنه اعتاد الحرية الهمجية في الشوارع، فعندما أظن أنه سيحاول الهرب، أربط رسغه بطرف خيط متين لا يستطيع الفكاك منه، وأربط رسغي بالطرف الآخر، فإذا ما جرى أثناء الليل استيقظتُ وقبضتُ عليه».

وأعظم ما تفخر به هو مسرحها، وإن كانت لم تذكر لي ذلك إلا أخيرًا لتختم به الضيافة. وميكي ممثلة بالسليقة، لا شك في هذا، فكل شيء تقوم به مسرحي وقوي، وهي تقرُّ أنها تحب المسرح فوق كل ما عداه، ولذلك خلقت في وسط المكان الذي تعتبره حياتها مسرحًا صغيرًا جميلًا، حديث الطراز مريحًا، يقدم عليه الأطفال التمثيليات والرقص..

ووعدتني قائلةً: «سيغني لك أطفالي ويرقصون بعد تناول الغداء».

حقًّا، لقد انقضى الصباح الذي تخيلته قرونًا، وارتفعت الشمس إلى السمت، ودق الناقوس للأطفال فألقوا بلعبهم على الأرض وأسرعوا إلى حجرة الطعام. إنني لم أنس قط أنني وحيدة في العالم، ولكن المعرفة الخالدة لم تكن بعد قد نفذت إلى أعماق نفسي، وظلت ميكي طوال اليوم تريني الحياة... جعلتني أسير من مركز للحياة إلى آخر. وقبل أن نذهب نحن لتناول الغداء كان لديها منحة أخرى من الحياة خصتني بها.

قالت: «سنلقي نظرةً على الأطفال».

وسرنا إلى آخر الحديقة، وكان هناك بيت مشمس بني خصيصًا، فرأينا هناك الأطفال الرضع حديثي الولادة، والأطفال الصغار الذين يتعلمون الجلوس والمشي، ونسوة عطوفات يعنين بهم ويتعلق بهن الأطفال. وقد ارتاحت نفسي حين رأيت الأطفال ينثنون عني لأنني

غريبة عن أولئك اللائي يعنين بهم، فكثيرًا ما زرت ملاجئ كان أطفالها يسرعون إلى الغرباء ويتعلقون بنا حين نتركهم.

وقالت ميكي: «إن جميع هؤلاء سيذهبون إلى التبني فيما عدا هذا الطفل الصغير المتخلف عقليًا فسأفكر في أمره... البنت الصغيرة ستذهب إلى نيويورك، وهذا الصبي سيسافر في الأسبوع القادم إلى سان فرنسيسكو.. سأصحبهم بنفسي -أحد عشر طفلًا- إلى والديهم الأمريكيين الجدد، وسأطير عبر القطب الشمالي».

تأملت هؤلاء الأطفال عن كثب بملء الحب.. إنهم أطفال يتسمون دائمًا بالجمال -هؤلاء الذين يحملون الشرق والغرب في عروقهم، ولقد نسي كبلنج هؤلاء الأطفال حين قال: «لا يمكن أن يلتقي الشرق والغرب»؛ إذ إنهما يلتقيان دائمًا كما ينبغي أن تتلاقى القلوب الصادقة في الحب، وإن لم تتلاق في السياسة. إن الحب هو الذي يجمع الكائنات البشرية في صعيد واحد. وهناك ضروب من الحب كثيرة، ولكنه حب وحسب. وتركت الأطفال الصغار على مضض لأنهم جلبوا لي راحةً عميقةً... إن الحب أقوى من الكراهية والحياة أقوى من الموت».

عدنا أدراجنا نسير في الحدائق، وكان ضوء الشمس آنئذ قد بلغ غاية حدته، ووصلنا إلى بيت ياباني ضخم مشيد من الخشب العتيق، أحد جوانبه مفتوح كله فقد كان يومًا حديقةً يابانيةً جميلةً. ولكنه أصبح الآن ساحةً مترببةً للعب البيسبول، وكان جماعة من الأطفال قد تناولوا طعامهم في غبطة وعادوا إلى ساحة اللعب بالمضارب والكرات، فدرنا حولهم، ثم دخلنا المنزل بعد أن خلعنا أحذيتنا عند الدرجة الأولى، ولم

يبق أمامنا غير درجة أخرى لنصل إلى غرفة ميكي الجميلة المخصصة للجلوس. وهي تضم نفس الخليط العالمي المشاع من الشرق والغرب الذي تمثله ميكي نفسها. وفي أحد أطراف الغرفة حشيات سميكة مغطاة بالأطلس ممزقة بعض الشيء، وهي تؤلف دائرة مضيافة. وكانت الستور الجميلة القديمة معلقةً في مختلف الأماكن، والجدران مغطاة بالكتابات القديمة والصور الشمسية الحديثة، وفي الطرف البعيد من الغرفة مائدة طعام طويلة عريضة، وصوانان مصقولان من طراز قديم.

وقالت لي ميكي عند دخولها: «أعرف أنك تحبين الطعام الصيني ولذا دعوت قائدًا صينيًّا، وهو صديق لي قديم وأحسن طاه في طوكيو لإعداد طعامنا».

وظهر «الجنرال» من ركن بعيد في الغرفة وقدم نفسه، وكان رجلًا وسيمًا إلى أبعد حد، أبيض الشعر، يبدو عليه التناسق والتحول. ومن الأمور العادية تمامًا لدى القادة الصينيين الاشتغال بالطهي في عواصم البلاد الأجنبية بدلًا من تقاعدهم؛ لأنهم ليسوا أهل ذوق وحسب، بل قد يكونون احتفظوا لأنفسهم بصرًا بالعواقب بطبخات خاصة وفق النظرية القائلة بأن الرجل الواثق من قدرته في فن الطبخ الرفيع يمكنه تحمل أي شيء، بما في ذلك الهزيمة في الحرب، بل ربما تساعد فكرة إجادة القائد للطهي على وقف القتال قبل طعام العشاء، ومع ذلك فليس جميع القادة في نحافة «الجنرال وانج».

إنني لأتمنى أن أستطيع نقل التصرف الرائع الذي اتبعته مضيفتي وزملائي الضيوف أثناء الوليمة الصينية اللذيذة، فقد كنَّ جميعًا يعرفن

ما أصابني، ومع ذلك لم تتحدث عنه واحدة منهن، كما أنهن بمعنى آخر لم يتظاهرن بالانبساط المصطنع، بل تحدثن باهتمام هادئ في شتى الموضوعات، وأثرن انتباهي كلما رحت في الصمت الطويل، فيصرفنني عنه بمبادلتي حديثًا يستدعي الإجابة، ويحرضنني على تناول الصنف اللذيذ الواحد تلو الآخر لا بدافع الشهية إلى الطعام التي يعرفن أنني فقدتها، ولكن كمجاملة للطاهي الذي قد يؤلمه صدوفي عن الأكل، وأذكر أنني سمعت جرس التليفون يدق مرةً، ولكنه أسكت بحجة مصطنعة هي الانتظار حتى تفرغ من الطعام. إنني لا أذكر صنوف الطعام، ولا أستطيع أن أتذكر موضوعات الحديث، لأنني كنت أبتسم وأقول ما أحسبه إجابات مناسبةً، والذي شد من أزري لم يكن الحديث الذي قيل، ولكن ذلك الجو القوي من الفهم الكامل الذي يتعذر التعبير عنه بكلمات. وأذكر جيدًا سيدةً يابانيةً جميلةً شعرها الرمادي مصفف على الطريقة الإيطالية الحديثة، كانت تجلس عند الطرف الآخر من المائدة، وترتدي ثوبًا من الأطلس الأسود.. وكيونودا لون الأحمر، وتتكلم الإنجليزية بطلاقة، وأذكر قولها إنها عادت لتوها من باريس مع أخت زوجها..

وأذكر أيضًا أن مباراةً عنيفةً في لعبة البيسبول كانت تجري أثناء تناول الطعام، وكنت أسمع مرارًا وتكرارًا ضربات المضرب الحادة وأصوات الأقدام الراكضة، والصياح وتصفيق الأيدي، وكانت ميكي أثناء كل هذا تشرف على المباراة بعين يقظة، وتصيح بين حين وآخر تصدر تعليماتها أو تعلن عن استحسانها.

عندما فرغنا من تناول الطعام، أخبرتني ميكي أنني استدعيت لمحادثة تليفونية من وراء البحار، وصحبتني آنئذ إلى حجرة صغيرة، فأغلقت بابها وناولتني السماعة، وسمعت صوت ابنتي مرةً أخرى على مسافة آلاف الأميال من الأرض والبحر، واضحًا كل الوضوح كأنها بالغرفة المجاورة.

قالت: «لقد دبرنا كل شيء، ولكنا أردنا أن نعرف إذا كنت توافقين، وستقام الصلاة بعد غد، وسيقوم بها قسيسنا الخاص بطبيعة الحال، وقد رأينا من الأفضل أن تقام الصلاة بالمكتبة لأنه كان يحب تلك الغرفة كما تعلمين، ويمكنه أن... ويمكن وضع التابوت أمام المدفأة -ولن يكون هناك أحد غير أهل المزرعة والبيت- والممرضات اللائي كن يعنين به- ونحن جميعًا، ثم ننقله إلى مقبرة الأسرة- ولن تكون هناك أزهار، فقد فكرنا أن نطلب إلى الناس تقديم النقود إلى «بيت الضيافة».

لقد دبر الأطفال كل شيء كما لو فعلت هذا بنفسي، فلم يبق عليَّ إلا أن أعود إلى البيت بسرعة، وقلت لها: حسنًا، حسنًا، حسنًا وكررتها مرات ومرات، وبعثت لهم جميعًا بحبي وامتناني. وعندما وضعت سماعة التليفون شعرت فجأةً بأن هذا كله أكثر مما يحتمل، ولأول مرة أدع نفسي تشعر وتسلم بأن ما تحملته كان فوق الطاقة منذ ذلك اليوم، لسبع سنوات مضت، في متنزه مشمس في «شريدان ويمنج» حين نزلت به الصدمة الأولى، وتصورنا في ذلك الوقت أن مثل هذه الصدمة لا تزيد على صدمة شمس خفيفة، وكنا قد فكرنا منذ سنوات عدة في القيام برحلة عائلية صيفية بين ربوع الغرب إلى «يلوستون بارك» ثم إلى

«أوريجون ووشنجتن». وقضينا جميعًا وقتًا مسليًّا سعيدًا في سيارة مكيفة الهواء يقودها سائق مدرب أصيل. وكان طبيب العائلة قد أخبرنا أن هذه الرحلة ستفيده ما لم يقد السيارة بنفسه».

كان هذا ما ظهر من الموقف حتى ذلك اليوم المشمس، وفي اليوم التالي كان علينا أن نسير إلى «يلوستون» ولكنا، هو وأنا، مكثنا بدلًا من ذلك في بيت ريفي لطيف بينما ذهب الأولاد إلى هناك، ثم عادوا، وقصدنا جميعًا إلى بيتنا، وكنا لا نزال نظن أن ما حدث لا وزن له، ولكنا فضلنا على كل حال الرجوع إلى البيت لنكون قريبين من طبيبنا الخاص؛ لأن طبيب «شريدان» لم يقطع تمامًا بأنها ضربة شمس، وقد عرفنا فيما بعد أنها لم تكن كذلك، غير أنه كان يبدو كعادته دائمًا قويًّا، يحيا حياته النشيطة في مكاتب نيويورك وفي المكتب الريفي في بيته.

ألقيت وجهي بين يدي عندما وضعت سماعة التليفون، وأخذت أجاهد نفسي. وجلست ميكي صامتةً إلى جانبي بكياستها الطبيعية المعهودة في أهل آسيا ومواساتهم المطبوعة والمصنوعة للناس في أحزانهم، ولم تمتد حتى يدها لتلمسني؛ لعلمها أن كل تعزية تذهب أدراج الرياح فيما خلا تعزية صديقة تجلس صامتةً إلى جانبي. وجاهدت نفسي وكفكفت دمعي. ونهضت ميكي وهي تقول: «إن الأطفال في انتظارنا».

كانت هذه هي كلماتها، أما ما يستفاد حقيقةً من عبارتها فهو أنني يجب أن أعيش وأن أبدأ الحياة الآن؛ لأن الموت يجب ألا يعوق الحياة، فهناك آخرون ينتظروننا. وتبعتها إلى خارج الغرفة الصغيرة وصحبتني إلى المسرح.

كان الحاضرون هم كبار الأطفال، وهيئة المدرسة، ونحن، وكانت الحفلة رقصًا وموسيقى، وتقوم بالعزف فرقة الجاز، والغناء كان جماعيًّا. وكان الأطفال مثار اهتمامي، فجمالهم أخاذ دون استثناء، ومواهبهم بارزة، وقد أدت الفتيات وهن يرتدين «الكيمونو» رقصات يابانيةً بالمراوح والأزهار على الطراز القديم. وكانت فرقة الجاز مكونةً من الصبيان، بينهم عدد كبير من أصناف الزنوج، وعلى جمال حقيقي، وأعترف أنه خيل إلى حين جلست أتأمل أطفال أنني لن أستطيع أن أبتسم بحال مرةً أخرى، ولكن الأطفال أضفوا عليَّ ما فيهم من انبساط، وقررت في حب وإصرار أن أعاون ميكي بقدر ما في طاقتي لإيجاد عائلات تكفلهم.

وانتهت فترة العصر وحان وقت عودتي إلى طوكيو ثم إلى وطني، ولكن ميكي رفضت أن تتركني حتى آخر لحظة.

* * *

أقلعت الطائرة في منتصف الليل، وجاءت صديقاتي لرؤيتي قبل رحيلي وأحطنني بعطفهن وحبهن، ولكن كان لا بد لهن من العودة إلى شئون حياتهن الخاصة. وكانت لي شئوني التي لا بد من مواجهتها، وكان هناك نوع من الراحة في وجودي آخر الأمر بين غرباء لا حاجة بي إلى التجاوب معهم.. وعثرت على مقعدي وربطت حزامي، وملت إلى الخلف وأغمضت عيني، فكانت هذه هي اللحظة الأولى التي وجدتني فيها وحيدة تمامًا، منذ تلك اللحظة من ذلك الصباح تغير في نظري وجه الحياة، فلقد تعلمت منذ أمد طويل حين عرفت أن طفلي سيظل متخلفًا تمامًا، أن هناك نوعين من الحزن، حزن يمكن أن تخفف وطأته، وحزن

لا يمكن التخفيف من حدته، وكان هذا الحزن مختلفًا وإن شابهه في أنه لا يمكن تخفيفه، ومع ذلك فقد تعلمت منذ أعوام فن التسليم، وأول خطوة فيه هي أن يخضع المرء نفسه للموقف وحسب، وهي عملية روحية ولكنها تبدأ بالجسم. وبينما كنت مربوطةً بالحزام إلى مقعدي، والطائرة ترتفع في سماء الليل السوداء، أخضعت جسمي عامدةً، عضلةً بعد عضلة، وعظامي عظمةً بعد عظمة، وانقطعت عن المقاومة، وأوقفت المجاهدة، وليحدث ما يحدث فلست أملك تغيير ما حدث، لقد احتوتني الطائرة وسيطرت عليَّ وعزلتني..

إن الروح لا بد أن تتبع الجسد أحيانًا بطريقة غريبة، كما تفعل الروح تمامًا أحيانًا أخرى. والآن عندما يضع الجسد نفسه تحت سلطان الإرادة، تجد الروح أيضًا من اليسير عليها أن تخضع لنفس السلطان، وقد لا ترحم الحياة أحيانًا، ولكن الموت لا يرحم دائمًا. والخطوة التالية هي أن تدرك عدم الرحمة. إن الماضي يصبح ساكنًا، أما التاريخ وحقائق التاريخ فلا يمكن تبديلها.. إن ما حدث قد حدث، والمرء يستطيع أن يتعلم من الماضي، والمرء يستطيع أن يختزن الماضي، ولكن الماضي لا يمكن تغييره. لقد عشت خمسة وعشرين عامًا في سعادة، ولكني عشتها وانتهى أمرها... إن النهاية كانت مكتوبةً، ولن يستطيع المرء الاستمرار في كتابة كتاب بعد أن يختم بهاتين الكلمتين: «نهاية الكتاب». إن كتابًا آخر يجب أن يبدأ.

إنني لا أستطيع البدء لساعتي، ولا بد من الوقت للاسترخاء الكلي، والتسليم الكلي بعدم الرحمة، والإدراك الكلي بأن حياة الماضي انقضت،

وفي هذه الحالة فقط يمكن للقوة الجديدة أن تستجمع. بل إنني لأشك في إمكان استجماعها، إذ لا بد لها من أن تنمو من أعمق أصول الكائن وتتحول إلى إرادة جديدة للحياة. وبقدر ما استطاعت الإرادة في تلك الليلة أن تمضي قدمًا، والطائرة تشق طريقها بين السحب والنجوم، لم يكن عليها إلا أن تأمر الجسم بالخضوع والروح بالانسحاب. وأخيرًا رحت في سبات.

* * *

نظرت إلى ساعتي فكانت الثالثة صباحًا، ولم يكن للوقت في هذه الطائرة السريعة معنى وقد شمل الضوء السماء، كنت قد غادرت طوكيو الليلة السابقة، ليلة الأحد، ولكني سأصل إلى نيويورك صباح الإثنين، أي بعد يوم آخر وليلة من الآن إن لم يكونا من الزمن، وبدأت أدرك نسبية الزمن إلى الفضاء والسرعة... فيا لها من معجزة أن يولد أينشتين اتفاقًا في وقت التطبيق العملي للطائرات والصواريخ في الفضاء!! واكتشف عقلي مع عجزي حتى ذلك الوقت عن مواجهة التغير العميق الذي حدث في حياتي الخاصة، معنى الخلود، والزمن الذي لا بداية له ولا نهاية، فمهما كان الموجود الآن، فإنه وُجد دائمًا وسيظل كذلك، والذي يعتريه التغير هو القانون الأزلي العام وحده، ومع ذلك فإن هذا التغير قد يكون مربعًا، فإذا كان الموت مجرد تغير، فماذا يكون التغير إذَنْ؟ إنه عرف، ولكني لم أعرف.. لقد مات في لحظة أثناء نومه. وكان في لحظة حيًّا يُرزق، فإذا به ميتًا في اللحظة التالية، ومعنى هذا أنه كان «هذا» في لحظة، وفي اللحظة التالية أصبح «ذاك»، والأمران سيان وإن كان مختلفين.

أين هو الآن؟

لقد أثبت لنا أينشتين أن الكتلة والطاقة متبادلتان. وقد أيقظت هذه العبارة عقلي على عهد جديد، بل كانت أكثر من يقظة.. فقد حدث تحول في نفسي وصفاء في روحي ووحدة في وجودي برمته، وأصبحت لديَّ فكرة جديدة عن الموت، وتناول جديد للحياة.. كنت كروح «شاول» الطرسوسي. كنت أسير في طريقي قدمًا عندما هبط على النور، ضوء حارق غير نمط حياتي. إن المعادلة الجبرية التي بلورها أينشتين في رموز قليلة هي مفتاح كوننا، وهي دون شك مفتاح أشياء كثيرة فيما وراء هذا الكون، فما كان من قبل كتلةً يمكن أن يصبح طاقةً، فهل الجهد طاقة حتى وهو كتلة؟ وهل هذا هو البرهان العلمي لما نسميه الروح؟

وبينما كان القلب يُدمى وحيدًا، كان عقلي يدور وينثني على نفسه يبحث وينقب. وفكرت في معجزة الآلات المذهلة، الآلات الحاسبة، والآلات المفكرة التي تتمثل في المادة الملموسة... لقد صنعت على أساس العقل البشري، ولكن العقل أكثر منها تعقيدًا بما لا يدخل تحت حصر، وعدد العقد فيه أضعاف لا نهاية لها. والعقل يستطيع خلق أفكار جديدة، أما الآلة فلا تستطيع ذلك حتى الآن، ومع ذلك فالقاعدة واحدة، فإننا نعرف كيف نبني عقلًا من المواد الخام إن لم يكن من مادة بشرية.

حقيقة إن هناك مدرستين فكريتين بين العلماء الذين يبتدعون هذه الآلات، فبعضهم يعتقد أن الآلات يمكن أن تتطور إلى عقول حقيقية مساوية للعقل البشري، بل ربما تفوقه في نواح قليلة، فالعقل البشري مثلًا يحتاج إلى فترة العمر كلها للوصول إلى نتائج فلكية حسابية معينة،

أما الآلة التي تهيأ لها المادة الضرورية فتستطيع الحصول على النتائج في دقائق. ومع ذلك فهناك علماء آخرون يعتقدون أن الآلة لا تستطيع أن تكون صورةً طبق الأصل من العقل البشري، وهم يتمسكون بوجود عنصر في العقل البشري، وهو الإرادة، أو المعرفة أو الضمير -ولنسمه النفس أو ما شئت من أسماء، وهو الشيء الذي لا يمكن أن يتمثل في مادة الآلة..

وإنني لأرجو أن تكون المدرسة الثانية أقرب إلى الصواب. ويجب أن أعتقد في صوابها، لأننا إذا كنا مجرد آلات، وكتلتنا مجرد لحم بدلًا من المعدن، فإن كتلتنا هذه إذا أصابها الفساد- آه، ولكن مهلًا! إن «الكتلة» لا يمكن أن تفنى، إنها يمكن أن تتغير وحسب. ولكنها تتغير إلى ماذا؟ هذا ما نريد أن نعرفه وسنعرفه يومًا ما، وأتشجع في هذا الاعتقاد، لأننا نعرف تمامًا أنه لا وجود للمطلق في هذا الكون المذهل الذي نعيش فيه، حتى الخطوط المتوازية التي تمتد إلى ما لا نهاية، لا بد أن تتلاقى في نقطة ما هنالك.

«أين أنت؟ هل تعرف أنني هنا مرتفعة فوق الأرض؟ هل أنت هنا أيضًا؟ ما أسرع حدوث التغير؟ هل الطاقة التي هي أنت الآن، تنتقل في الحال إلى مكان آخر؟ هل تعيش وراء حدود الفضاء المنعدم الهواء؟ إننا بلا اتصال-».

الاتصال -هذا ما يجب التفكير فيه الآن والتساؤل عنه، واستقصاء حقيقته. هناك حزام كثيف من النشاط الإشعاعي القاتل يحيط بالأرض، والمنفذان الوحيدان منه عند القطبين، فهل وُجد هذان المنفذان لغاية خاصة؟ ليس من المعقول ألا نتصل بعد الآن، فعندما كان في دنيانا هذه،

كثيرًا ما كنا نضحك لأن أفكارنا كانت تنطلق فجأةً وفي نفس اللحظة وبنفس الكلمات، ومع ذلك فقد كان يرتاب في كل فكرة تتصل بما وراء الطبيعة. ومع أنه كان يمتاز بحنان صادق واستقامة كاملة وعقيدة أخلاقية لا تخيب، فإنه لم يكن يتقبل الآمال والافتراضات الدينية، وكان يصر على استقلاله الكامل كائنًا بشريًّا.

قال: «إننا لا نعرف شيئًا عن المستقبل، فلا أخدع نفسي، ولا أسمح لها بأن تُخدع».

وقلت: «ولكن عدم المعرفة لا يعني أن هناك أشياء لا يمكن أن تعرف».

فأجاب بحدة: «مهما يكن الشيء الموجود فسأعرفه في حينه.. أو لا أعرفه لأن وجوده سينتهي..».

هذه هي المناقشة التي دارت بيننا.. إن سؤال هملت صيغ في عبارات عامة: هل سنبعث أم لا نبعث؟ وقال إننا لن نبعث، واستنكرت أنا مثل هذا الاعتقاد الجازم، إذ كيف نستطيع أن نقول لا، في حين أننا لم نعرف أن «نعم»: مستحيلة.. إنه الآن يعرف وأنا لا أعرف.

وقلت في نفسي: «إنك جائر إلى حد ما.. ظننت أننا سنعرف معًا على الدوام، ولعلك تجد وسيلةً تخبرني بها إن كنت كائنًا أو غير كائن.

وألقيت بسؤالي هذا في ظلام الليل، ثم سحبته في وجل، الواقع أنني لم أرغب في معرفة الحقيقة، لأنه لو كان كائنًا، فهذا يجعل الانتظار وحيدةً أمرًا يشق احتماله، كما أنني لا أحتمل أن أعرف أنه غير كائن..

فلأنتظر حتى أعرف ذلك بنفسي عن طريق التجربة، فإن أصبت، فستكون أولى كلماتي إليه حين أخطو نحوه، هي كلمات الحب والظفر.

«هأنذا.. الآن نعرف».

وإلى أن يحين ذلك الوقت فسأواصل حياتي كما كنا من قبل... هو متشكك وأنا مؤمنة... نعم، أظنني سأظل مؤمنةً رغم أنني لا أعرف حتى الآن كيف أعرف.. إنه «الإيمان» كما قال لنا القديسون على مر العصور، «والاحتمال» الذي يقول به العلماء اليوم؛ لأننا كثيرًا ما ظننا شيئًا مستحيلًا ثم أصبح الآن ممكنًا.. قديسون وعلماء».

* * *

إن ضوء الفجر الذي يتخلل طائرةً نفَّاثةً يكون رائع الجمال، فقد كنا نطير في مشرق الشمس في فيض من الضوء بهي مهيب، يشرق على الحافة الدائرية من كوكبنا. واستيقظ الناس وتحركوا وتطلعوا من النوافذ الصغيرة، وكان الهواء معطرًا برائحة البن، وكانت الوصيفة الأنيقة الهندام النشيطة مستعدةً بعصير الفاكهة. وكان بجواري راكب نهض وسار متلكئًا في الممشى، ولم أكن قد أحطت علمًا بوجود هذا الراكب الغريب طوال الليل، ومع ذلك فقد عرفت أنه بجانبي وأننا لا بد أن نتجاذب أطراف الحديث إن عاجلًا أو آجلًا، ولكنني اتخذت من الظلال ستارًا، والآن وقد بدأ اليوم، أول يوم في حياتي الجديدة المنعزلة، فلم أهتم بعدد الناس المحيطين بي، إذ ينبغي أن أنطوي على نفسي من الآن فصاعدًا، عزلة دائمًا. ولكن ما معنى هذا؟ وماذا يمكن أن يعني؟ إنه سيظل كذلك إلى أن يكشف عنه اللثام، وينبغي ألا أصر على معرفة كل شيء مرةً واحدةً،

فقد تعلمت منذ أمد طويل أنه إذا كان على المرء أن يكون صبورًا إزاء الآخرين، فعليه كذلك أن يكون صبورًا تجاه نفسه.

لم أتعلم هذا الدرس مرةً واحدةً، فقد كنت في معظم الأحيان عديمة الصبر على نفسي، وعلى نفسي قبل الآخرين جميعًا حتى أدركت من خلال مزاولة الموسيقى فيما أظن، أن عملية التعلم تتم يومًا بعد يوم، والمرء يستطيع أن يعمل بقوة أربع عشرة ساعة في استذكار سوناتا لبتهوفن ليعزفها مرةً واحدةً، ولكن هذا التعلم ليس له صفة الاستمرار- ولكي يسيطر الإنسان على الموسيقى سيطرةً عقليةً دائمةً يجب أن يستغرق فيها روحيًّا- وبعبارة أخرى يجب أن تصبح جزءًا من كيان الشخص فترةً من الزمن، وذلك بالاستمرار في مزاولتها، أما ما ينبغي لي معرفته عن العزلة، وما يجب أن أتعلمه عن فائدتها ومعناها، فليس إلا ما أحصل عليه عن طريق الحياة اليومية والتجربة الجديدة، فذهابي بمفردي مثلًا إلى المسرح حين أصبح عاجزًا عن مزاملتي أحتاج إلى مجهود، لقد أحببنا المسرح، هو وأنا، وقضينا هناك ساعات كانت من أسعد أيام حياتنا، كنا نضحك معًا في سهرة جلبرت وسلفيان، نعم، كان يحب جلبرت وسلفيان ويستطيع أن يغني الراويات الهزلية الغنائية (الأوبريت)، كما كان أطفالنا جميعًا يعرفون هذه الأغنيات وكان ينبغي أن أتعلم الاستمتاع بها لأنها كانت غريبةً عني، ولكنا كنا نحب أن نقطف من كل بستان زهرةً فنستمتع بالمسرح مهما كان، ولا نضيق به إلا عندما تكون التمثيلية تافهةً بصورة واضحة تدنس فنًّا قديمًا نبيلًا. ولا شك أنني كنت أخيب رجاءه فيَّ، ولا أقول أسبب له اشمئزازًا مني، حين أمتنع

عن الذهاب إلى المسرح، إذا اقتضى الأمر ذهابي إليه وحدي. كانت مثل هذه الومضات التي أشعر بها شعورًا طارئًا، تقتحم ذهني على غير نظام فأطرحها عني جانبًا. وكانت الطريقة التي تعلمتها منذ أمد بعيد هي أن أعيش يومًا بيوم، وهأنذا اليوم هنا على ارتفاع آلاف من الأقدام فوق الأرض، يضمني هذا الهيكل الفضي الذي يمرق بسرعة، ويحيط بي أناس لم أرهم من قبل، ويرجح ألا أراهم فيما بعد.

هناك شعور بالراحة، سطحي وأساسي معًا، نحسه عند قضاء الضرورات كالاستحمام واستبدال الملابس، والأكل والشرب. وقد خيل إلى عندما نظرت في المرأة أنني لن أعود فأعني بمظهري ما دمت لن أسمع مرةً أخرى عبارات التقدير والمديح، وكنت أعرف بطبيعة الحال أنني لا أستطيع حمل هذا المديح محمل الصدق، فقد كان فيه عظيم السخاء، ولم يكن باستطاعة إنسان أن يراني كما كان يراني هو، ولم أصدق لحظةً أنني على الصورة التي كان يصفني بها، ومع ذلك، فبوصفي امرأةً كنت أحب أن أسمع حتى ما كنت أعرف أنه غير صحيح، فماذا يهمني ما دام هو يعتقد بصحته؟ هل هذا هو نفس الوجه الذي كنت أضطر إلى النظر إليه منذ سنوات عدة؟ لقد كنت شخصًا آخر، ولا بد أن الوجه يمت إلى شخص آخر، ومع ذلك فقد اغتسلت وتزينت كالمعتاد، وعنيت كعادتي بشعري الطويل، ويا له من شعر!! لقد كان مصدر شقائي عندما كنت فتاةً صغيرةً كان على الدوام طويلًا ناعمًا ومعقدًا، وكان في تلك الأيام أصفر في لون الشهد فلم ترغب والدتي أن تقصه، وكانت تلاطفني عندما أبكي وتمتدحني عندما ترجله وتربطه بشريط تضعه حول

رأسي، وكانت تجعده عندما كنت صغيرةً، ثم جعلته ضفائر فيما بعد. وكنت أتوق إلى يوم أكبر وأستطيع أن أقصه كله، وهذا ما فعلته حينما استطعت، ثم تركته يستطيل ثانيةً لأنه أراده طويلًا، وأستطيع الآن أن أقصه مرةً أخرى ما دام هو من يراه، ثم عرفت في نفس اللحظة أنني لن أقصه على الرغم من أن طوله أصبح فضةً بدلًا من الذهب، وقامت يداي بعملها المعتاد دون عناية على الأقل، ولم أصدق عندما نظرت إلى المرأة أنني سأبدو كما كنت، ولكني لم أتغير رغم ذلك..

وعندما عدت إلى مقعدي، ناولتني المضيفة طعام الإفطار، واستطعت أن أشم رائحة القهوة والقديد والخبز المحمر، ورغم شرود روحي وعدم اهتمامي بشيء من هذا فقد مثل جسمي كالمعتاد.. فيا لقسوة الجسد!

استيقظ كل من بالطائرة، فلم أعرف منهم أحدًا ولم يعرفني أحد، وحمدت الله على ذلك. وأخذت المضيفة أخيرًا صحفة الإفطار، ولم أطعم إلا نصفه. وحاولت قراءة قصة يابانية ثم طرحتها جانبًا، إذ لم أرغب في قراءة قصة حب، ولا حتى قراءة قصة كائنات بشرية. وفتحت حقيبة ملابسي وتناولت منها كتيبًا صغيرًا هو «العلم والقيم الإنسانية» تأليف ج. يرندفسكي، وعكفت على قراءته طوال الصباح، وكان عقلي يعمل بنشاط بعيدًا عن حياتي الشخصية.

سواء أكان عملنا فنًّا أم علمًا، أم عمل الجماعة اليومي، فإن الأسلوب الذي يؤدي به هذا العمل هو وحده الذي نكشف فيه عن تجربتنا، وهي تجربة مختلفة، وتظل حاجتنا إلى الكشف واحدةً في كل حالة، ولذلك فإن جمعية العلماء في الواقع أهم من كشوفهم، والذي ينبغي أن نتعلمه

من العلم هنا ليس طرقه الفنية، ولكن روحه، الحاجة إلى الكشف التي لا تقاوم.. ومن أجل هذا يجب أن يكون الدرس الذي يلقيه العلم هو أن الإدراك أعمق من القوانين، وأن عملية التمييز أخطر من الحكم. وقد قلت في كتاب ألفته عن الشِّعر: «إن الشِّعر في ذاته لا يدفعنا إلى أن نكون عادلين أو غير عادلين، إنما يدفعنا إلى أفكار نرى في ضوئها خطوط العدالة والظلم محددة تحديدًا واضحًا مخيفًا».

وما يصدق على الشِّعر يصدق على كل فكر مبدع، وما قلته آنئذٍ عن قيمة من القيم إنما يصدق على جميع القيم الانسانية، لأن القيم التي ينبغي أن نحيا بها ليست قواعد للتصرف العادل وغير العادل، بل هي تلك الاستنارات العميقة التي نرى في ضوئها خطوط العدالة والظلم، والخير والشر، والوسائل والغايات، كلها محددة تحديدًا واضحًا مخيفًا.

وهنا انتهى الكتاب وأطبقت دفتيه، وحمدت لعقل مفكر حديثه إلى عقل آخر، وما أشد امتناني لوالدي العالمين، هذين الاثنين اللذين علماني منذ نعومة أظفاري بما ضرباه لي من الأمثال أن أجد العزاء والشجاعة والقوة في استخدام العقل!! فمهما كان حزن الشخص، وكيفما كانت عزلته مطلقةً، فإن العقل المدرب على العمل، يستطيع عن طريق العمل أن يستمر في الكشف. لقد كنت أحمل أداتي في جمجمة رأسي، فلست بحاجة، وينبغي ألا أكون بحاجة إلى التراجع أو التريث أو التوقف عن النمو، لأنني أسير في طريقي وحيدةً.

وغمرني نوع من الهدوء، هدوء دافئ حي، فألقيت برأسي إلى الوراء إلى مسند المقعد وأغمضت عيني. وأذكر أنني ابتسمت لنفسي وإن كنت

لا أعرف لهذا سببًا، وكنا هو وأنا، كأننا تراسلنا بالفكر والصمت بدلًا من الكلمات.

* * *

ومضى النهار وئيدًا، ولم أتحدث إلى أحد قط. وفي منتصف العصر سألني زميلي في المقعد عما إذا كان يستطيع أن يخبرني بأنه عرفني، وكنت عازفةً عن هذه المعرفة، ولكن لم يكن في مقدوري قط أن أكذب بسهولة، كما أن الموقف لم يكن يستحق آنئذ بذل أي جهد، ولذا شكرته وقلت إنني حقيقة هي، وأصبح لزامًا على آنئذ أن أتحدث معه بأدب بين الحين والحين، ولكني استطعت أن أبقى في عزلة دون أن أذكر له سبب وجودي بالطائرة. ثم سألته عن نفسه -ولا أذكر الآن اسمه، فمن المحال أن أتذكر الآن شيئًا يتصل بتلك الرحلة، وأشك أنني أستطيع تمييز وجهه لو رأيته مرةً أخرى، لقد كان طويل القامة لأنني اضطررت عندما كنت أتحدث معه أن أرفع إليه نظري. وكان وجهه نحيلًا من ذلك الطراز الغربي. والشيء الوحيد الذي أتذكره أنه كان مسافرًا إلى مصرف «ويلز فارجو» اسم رومانتيكي في التاريخ الأمريكي.. أما الأعمال المصرفية فلا أعرف عنها شيئًا فيما عدا الضرورات اليومية.

كان جهلي مشجعًا لهذا المسافر على أن يشرح لي مهمته بجلاء وجفاف، وأدركت منها مفهوم الأعمال المصرفية الدولية وبخاصة في عالمنا الحديث. وأنه سافر إلى سنغافورة وهونج كنج ومدن أخرى أعرفها جد المعرفة، ولكنه رآها من زاوية جديدة تمامًا بالنسبة إليَّ، وفي مناطق مجهولة حيث يمارس الناس عمليات تبادل العملة ويعدون رأس

المال ويخلقون القوة التي يرونها ملائمةً. وأصغيت إليه باهتمام كان في بادئ الأمر فاترًا ثم سطحيًّا، ثم أصبح في النهاية حقيقيًّا «إنها الحاجة إلى الكشف التي لا تقاوم»، لقد نسيت نفسي تقريبًا حتى لقد دهشت حين أعلن صوت الراديو من فوقنا أننا وصلنا هنولولو، ورأيت حينئذ أننا نستقبل الليل مرةً أخرى، وأننا قطعنا يومًا كاملًا في زمن قصير، وأوشكنا على دخول وطننا ثانيةً.

ثم كانت ضوضاء النزول، وتمت عملية الاصطفاف استعدادًا للتفتيش الجمركي، ولا أذكر هذا، إنما الشيء الذي أذكره حقًّا فهو تجربة أخرى، فلقد انتظرت برهة، وكنت حريصةً جدًّا أن أظل وحيدةً، وتقدم مني أحد موظفي الجمارك وطلب أن أنتحي معه جانبًا ففعلت، ثم مال فوق نضد العداد ليقول في صوت خفيض: «لا أحب أن أؤخرك، ولكن هناك شيئًا أحب أن أتحدث بشأنه سرًّا».

ودهشت رغمًا عني مرةً أخرى إذ لم يسبق أن رأيت هذا الرجل من قبل، شخص ضخم الجسم، ذو وجه مستدير لطيف أمريكي قمح.

قال بصوت منخفض: «أصغي إليَّ.. لديَّ ابنة متخلفة».

آه، لقد عرفت الآن لماذا جذبني ناحيةً! لقد اعتدت على أناس ينتحون بي ناحيةً ويقولون لي مثل هذا.. لقد مررت بنفس التجربة في كل مكان من العالم: «وأريد أن أحدثك عن -لديَّ طفلة».

فقلت: «حدثني عنها».

وأصغيت إليه أثناء حديثه، ورغم استماعي لكل كلمة مألوفة قالها

امتلأت نفسي بدهشة باطنة. كيف يتصادف في نفس هذه اللحظة التي أحتاج فيها إلى من يحبب لي الحياة أشد الحاجة، أن أجد هذا الرجل هنا يدعوني إلى الحياة، لقد قضيت شطرًا كبيرًا من حياتي أعمل لصالح أولئك الآباء ذوي الأطفال المتخلفين ولفائدة أطفالهم، فكان هذا نصيبي من الحياة. ومع ذلك، ففي الساعات الأخيرة، منذ أن سمعت صوت ابنتي في التليفون بطوكيو في الصباح الباكر، لم أتذكر هذا الجانب من حياتي، والآن ها هو ذا يطلبني ثانيةً.

وكان الرجل يقول: أترين، إن الموقف جرى على هذا الوجه: نشب جدل بين زوجتي وبيني، فهي تقول إن الأمريكيين يضعون أطفالهم المتخلفين في مؤسسات لأن ذلك أصلح لهم، وأننا ينبغي أن نفعل ما يفعله الأمريكيون الآن ما دامت هاواي قد أصبحت دولةً، وأقول أنا إن ابنتنا لا تسبب لنا متاعب، فهي لطيفة هادئة: وستكون في عزلة في المؤسسة».

وسألته: «هل ستكون زوجتك أسعد حالًا إذا كانت ابنتكم هناك؟».

«لا، إنها تبكي حين تتحدث في هذا الشأن، ولكنها تقول إن هذا من صالح الفتاة».

«وهل تريد أنت أن تكون ابنتك هنالك؟».

«أنا؟ إن هذا يحطم قلبي».

قلت: «وماذا يحدث إن تصادف أن وافاكما الأجل؟ من سيعنى بابنتكما بعد ذلك؟».

«كثيرون! إن زوجتي من هاواي.. من إحدى الأُسرات الهاواوية الكبيرة، فهم سيعنون جميعًا بابنتنا.. هذا طبيعي، إن عقولهم تكاد تجن عندما نتحدث عن المؤسسة، وهذا عين ما تفعله زوجتي».

قلت: «قل لزوجتك إنها مخطئة وأن الآخرين على حق.. إن ابنتكم سعيدة الحظ لأن لها عائلة تريد الاحتفاظ بها، وأنا واثقة من أن آباء أمريكيين في مثل ظروفكم لا بد يتمنون لو واتاهم حظ كحظك وحظ زوجتك بوجود مثل هذه العائلة».

وأضاء وجهه المخلص وهو يقول: «شكرًا».

وعاد بي إلى محطة الأمتعة وسألني: «ألديك ما تريدين الإبلاغ عنه؟».

قلت «لا» والواقع أنه لم يكن لديَّ شيء ما.

ثم قال بعد أن وضع علامة بالطباشير على حقائبي وابتسم: «سأظل أذكرك طويلًا.. إنه يومي المحظوظ.. انتظري حتى أخبر زوجتي.. إنها لن تصدقني.. إنها معجزة».

وكان الأمر بالنسبة إليَّ أيضًا معجزة.

ثم أصبحت وحيدةً مرةً أخرى كما لو كنت في تجربة.. لم أسافر بمفردي مطلقًا قبل مرضه مع أن السفر كان دائمًا عملًا مبهجًا لنا، كما كان هو دائمًا رفيق سفر أنيسًا يعرف دائمًا ما هو حري بالرؤية، وأين يجب أن تذهب. كنت أذهب معه في سعادة لاهية. أما الآن فعليَّ أن أبحث عن المطعم للحصول على ما أكله، وكنا قد أعطينا بطاقات

للأكل.. ولكن إلى أين أذهب؟ أخذت أتجول وقد ملأني الشعور بالعجز الشديد والخجل، فعندما تكون المرأة بصحبة رجل متهلل الوجه واسع المعرفة، ثم تصبح وحيدةً على حين فجأة، تصاب بالارتباك. لقد تجولت في الطريق الخاطئ، ثم سألت شخصًا، ورجعت إلى الجهة المضادة، فوصلت متأخرة جدًّا إلى المطعم فلم أجد مقعدًا، وكنت على وشك مغادرة المطعم وعدم التفكير في الطعام بعد ذلك حين تقدم مني رجل أمريكي حسن المظهر وسألني عما إذا كنت أبحث عن مكان أجلس فيه، وإنه إذا كان الأمر كذلك فهناك مقعد في آخر المطعم -بل إنهما في الواقع مقعدان إذا لم أمانع في تناول العشاء معه.

ووافقت على ذلك بارتياح، فقادني إلى مائدة صغيرة كان نصفها محجوبًا، جلسنا إليها، وطلب العشاء، وكنت راضيةً، إن العزلة الباطنة كانت منيعةً مستمرةً.. كنت أعرف ذلك، ولكن كأني به يرى حيرتي من مكان ما، فلما لم يستطع أن يكون معي، أرسل بعض الغرباء بدلًا منه. وسألت هذا الغريب عن اسمه، فذكره وقال لي إنه عالم أرسل من واشنطن ليعمل مع آخرين في اليابان. وهكذا ناداني شطر آخر من حياتي، كان علم الطبيعة، وبخاصة الطبيعة النووية، شغلي الشاغل منذ أمد طويل، ولذا أصغيت آنئذ بفهم وإدراك، منعزلة تمامًا عن نفسي الباطنة، وأخبرني أن اليابانيين علماء ممتازون، وهم يعرفون على الأخص عن المحيط الإيواني أكثر مما يعرف علماء العالم الآخرون. والمحيط الإيواني، هو تلك الحالة التي تكون عليها الطبقة العليا من الجو حيث تولد الإشعاعات مزيج الساحرة، وهو يتكون من جزئيات وأيونات متحركة ووحدات ذرية

ذات شحنات كهربية، كما يقول كليد أور في كتابه «بين الأرض والفضاء صفحة٢١». إنه موطن ميلاد الكهرباء ومصدر العواصف الكهربية التي يقاومها النشاط المختزن في الأرض، بإنشاد الثنائية الخالدة المضادة للشدة. ومرةً أخرى يستحث عقلي حب الاستطلاع الذي لا يقاوم، فأتذكر -كما لو كان هو- حيثما هو كائن الآن- يذكرني أن الحياة يمكن أن تسير قدمًا في تلك الاهتمامات التي كنا نتقاسمها معًا. ومضت ساعة ثم انطلق صوت من الراديو يأمرنا بالعودة إلى مقاعدنا في الطائرة. وانقضى النهار على نحو ما، وقد أرسل إلى ثلاث مرات إنسانًا يتحدث إلى يساعدني ويذكرني بالحياة..

وهبط الليل مرةً أخرى، ولا أدري أي ليلة كانت لأطلق عليها اسمها.. ليلة بلا اسم ما دام الزمن قد امتد واستطال إلى أبعد من اسمه. لقد عشت أربعًا وعشرين ساعة بين مساء الأحد وصباح الإثنين لا تحتسب من فترة حياتنا القصيرة، فقد قمت فيها بالخطوة الجوهرية نحو حياتي المستقلة. وقد نمت هذه الليلة نومًا متقطعًا ولكن دون خوف.. لا يمكن لشخص آخر أن يحتل مكانه، فهو لا يتوقع ذلك، ولا أنا. ولكن الغرباء سيأتون حين أحتاج إليهم، وأستطيع أن أتعلم منهم، ثم أدعهم يذهبون؛ لأن واحدًا منهم سيأتي. كان ذلك شبيهًا بالحركة الكونية للحياة كلها، أشبه بموجات النشاط التي تحوم حول كوكبنا، تتألف من أجزاء منفصلة لا حصر لها، فالكائنات البشرية ليست إلا أجزاء، ونحن نأتي ونذهب دون توقف في موجات من الحركة والمادة.. لقد أصبحت حياتي الآن جزءًا من الكل، إنها جزء منفصل، وحيد، منعزل، ومع ذلك فهي منجذبة إلى

الموجة لا تملك عنها فكاكًا، ولا ارتدادًا عن المد البشري.

* * *

لما تبلج فجر اليوم التالي، سكب ضوءه الذهبي على منظر أمريكا، وأعلن صوت الراديو أننا سنبدأ الهبوط فوق «ألنتاون» في بنسلفانيا. ولا تبعد «ألنتاون» إلا أميالًا قليلةً عن بيتي الريفي، فهل يحلم الأطفال أنني كنت أمر فوقهم، ولكن فوق السحاب بعيدة عنهم وعلى ارتفاع كبير؟ وتزينت بسرعة وشربت القهوة، وهبطنا حينئذ بسرعة ورأيت أبراج نيويورك المتألقة.

والآن لا بد من مقابلة الأصدقاء مرةً أخرى، وكذلك أفراد الأسرة، وارتعدت لذلك برهة.. لقد كان الأمر أيسر هنا مع هؤلاء الذين لا يعرفون عن رحلتي شيئًا، ولا عن سبب قيامي بها، إنني لم أخبر أحدًا قط، ولذا لم أكن بحاجة إلى بذل مجهود لتحمل مظاهر العطف، ولكن الوقت أزف لمقابلة أطفالي، وبخاصة لإظهار رضائي عن معاونتهم، إن مواساتهم لي مواساة لهم أيضًا.

كان الصباح مشرقًا وأشعة الشمس تنسكب خلال الضباب أثناء اجتيازي المطار في الميناء الجوي. وكانت داخل الباب أختي العزيزة الوحيدة وابنتاي ينتظرنني.. وكان معهن الرجل البنسلفاني الألماني المخلص الذي ظل يقود سيارتي سنوات كثيرةً. وتفرست في كل وجه من الوجوه فذاب كل ما كنت أخشاه. لقد أخطأت الظن. وكان من الخير لي أن أكون مع أولئك الذين عرفوني وأحبوني وأحببتهم. إنني غنية بثلاثة أبناء وست بنات، كبراهن الطفلة التي لم تكبر قط، أدين لهن بالكثير.

والخمس الأخريات يتدرجن من ابنتي الكفء المؤهلة التي تحترف الطب العلاجي، إلى طفلتي اللطيفة نصف الأمريكية التي تبلغ الحادية عشرة من عمرها، وقد جاءتني من اليابان، أما ابنتاي الصغيرتان فهما نصف يابانيتين، أبوهما من الجنود الأمريكيين. أما الثالثة النشيطة المدبرة فهي نصف ألمانية وأبوها أمريكي أيضًا. أما الصغيرة الوسطى المتزوجة ذات الأطفال الثلاثة الأصحاء فهي التي تعيش أمامي على الجانب الآخر من الجدول. وهي ذات الشعر الأسود والعينيين البنفسجيتين والمزاج الحاد الذي يلطف منه روح الفكاهة السريعة، ولكل من أبنائي قوة شخصيته، ولكل من بناتي ميزتها الخاصة، ولكن منهن منزلتها الضرورية في حياتي، ولكني اليوم سعيدة لأن بناتي الثلاث الصغيرات كنَّ في المنزل وقد جاءت الوسطى والكبرى لمقابلتي هنا مع أختي.. ثلاث سيدات قويات عاقلات.

كنا بطبيعة الحال قريبات، بل أقرب بطبيعة الحال مما كنا إبان حياتنا السعيدة معًا.. لقد وثق موته كل رباط بيننا، كما أنني لم أتجاهل الفهم الهادئ الذي ظهر على سائقنا، فقد أخذ شارات أمتعتي وأرشدنا إلى السيارة حيث ركبنا، وانتظرناه، وبعد بضع دقائق كنا في طريقنا إلى المنزل نجتاز شوارع نيويورك إلى لنكولن تانل (نفق لنكولن) وتيرنبايك (بوابة دفع المكوس)، كل شيء كان عاديًّا ومأمونًا.. الرحلة التي قطعتها مئات المرات خلال السنين، وكنت أقطعها معه دائمًا في أول الأمر. ثم وحدي في السنوات الخمس الأخيرة.. لقد استنفدت السنوات السبع جسمه القوى وعقله السوي ووضعت نهاية حياته على الأرض.

كم كان مرحنا منذ البداية، وكم كانت السنون في جملتها راضيةً! لقد بدأنا حياتنا في نيويورك حيث استهل حياته منذ ثلاثين عامًا قبل أن نتقابل، وعشنا الشتاء الأول في فندق يجمع شتى الجنسيات في مجموعة غرف لطيفة، ولم يكن الفندق غريبًا عليَّ، لأن اجتماعنا بأناس عابرين في غدوهم ورواحهم من شتى أنحاء العالم يجعله فندقًا في شنغهاي أو بكين.. وفي العام التالي، حين تبنينا طفلينا الأولين انتقلنا إلى مسكن ذي شرفة كبيرة، وبدأنا حياتنا كوالدين. لقد كان يرغب دائمًا في أن تكون لنا أسرة كبيرة، فكم تكون سعادتنا بتكاثرها شيئًا فشيئًا!! ومضت سنتان لم تحملا لنا غير الفرح والرضا وأخذنا طفلين آخرين، ثم أصبح حلمه التالي، وهو أن يعيش في الريف، ضرورةً، إذ قلما يمكن أن يضم مسكن صغير أربعة أطفال يعيشون في حالة ملائمة، وأنا نفسي قضيت طفولتي في مسكن خشبي واسع بمنطقة مدارية، تحيط به الحدائق، وتقع فيما وراء أسواره التلال، وتمتد الحقول، خارج مدينة تشنكيانج بإقليم كيانجسو، وهي مدينة ساحلية على نهر يانجتزي، فإنني لا أستطيع أن أتخيل طفلًا ينمو على الإسمنت بين الأبراج مهما كانت جميلةً، لأن حبي لنيويورك نشأ أثناء طريقي إلى المدينة الساحلية. انتقلنا إذَنْ إلى بيت مزرعتنا، وكرس نفسه، كما كان يأمل دائمًا -لأعمال التحرير، فقد كان رجل أعمال كثير التردد، ولو كان ذكاؤه ألمع قليلًا، لربما أصبح مؤلف كتب. ومهما كان الأمر فقد ألَّف كتبًا قليلةً مختلفةً كاختلافه هو نفسه مثل كتاب السجع البارع للأطفال، وقصة هزلية غامضة، وكتابًا واقعيًّا لطيفًا عن مارك بول، ثم يسر هذا الكتاب مرةً أخرى للنشء ونشره بيت

«راندون» في مجموعة كتب «لاند مارك»، ودراسة نقدية عن «بافلوبل» وهو شخصية كان يتشكك فيها كثيرًا..

وتحول بيت المزرعة بمضي السنين إلى مسكن مريح لأسرة متزايدة العدد، وعلم الأطفال لعبة التنس والبيسبول والجولف كما تعلموا السباحة وركوب الخيل في سن مبكرة. وكنت مشغولةً بعملي الخاص، ولكن نافذة حجرة مكتبي الكبيرة تطل على حوض السباحة فكنت أستطيع أن أعرف بالسليقة متى يمضي الطفل في المغامرة. لقد قامت حياتنا اتفاقًا حول العمل والأطفال، فكانت حياةً عميقةً، متعتنا في الاستمتاع إلى الموسيقى والاجتماع بالناس وتربية الأطفال، وقراءة الكتب، وعالم الغابات والجبل والبحر.

لا أعرف إذا كان من الأيسر أن تأتي النهاية مفاجئةً أم بالتدريج على مر السنين وأظنني لو أعطيت حق الاختيار لفضلت النهاية المفاجئة، الصدمة وما إليها، ففي هذه الحالة لا تضطرب الذاكرة بالبطء والضعف المحزنين اللذين يصيبان الإدراك الحسي والكلام، وحتى القدرة على معرفة من أحببناهم وأعززناهم في نهاية الأمر. ومع ذلك فهناك عزاء واحد هو أنه لم يعرف أنه يذوي، وبينما كان آخذًا في التراجع إلى مظاهر حياته البدنية الأولية ظلت طبيعته الأساسية كما كانت دائمًا... عذوبةً خاليةً من الأنانية، كما سبق أن ذكرت.

جاء التغير شيئًا فشيئًا، فعندما تضاءل بصره ولم يعد قادرًا على القراءة، أرسلنا في طلب الكتب المسجلة- ولا بد لي هنا من التعبير عن امتناني الدائم لمكتبة المكفوفين، التي ظلت ترسل سيلًا مستمرًّا

من التسجيلات إلى المنزل دون مقابل، ولذا ظل عقله منتعشًا حيًّا إلى أبعد ما كنا نخشى، ولكن هذا أيضًا توقف عند حد حين جاء اليوم الذي فقدت فيه الكلمات معناها، بل ذبلت أنغام الموسيقى فقنع بمجرد الوجود، ولا بد أنه كان يقاسي كثيرًا لو عرف حقيقة حاله، وأشكر الحكمة الرحيمة -أينما تكون- لأنه لم يعرف مطلقًا. لقد ظل الجسم حيًّا، عاطلًا من أي جهد عقلي أو روحي أو عاطفي، واتخذ لنفسه بقاءً عجيبًا خاصًّا به.

وقال طبيب الأسرة مرةً أخرى: «ستستمر هذه الحالة طويلًا، فيجب أن تسيري في عملك المعتاد.. يجب أن تعيشي.. يجب أن تسافري... ويجب ألا يستغرقك هذا الذي لا نملك فيه حيلةً».

وكانت هذه في الحقيقة هي الوسيلة الوحيدة لتحمل ذلك الذي أصابنا، فحاولت أن أحيا حياتي المعتادة قدر ما أستطيع.

* * *

جاءت النهاية على غير انتظار مطلقًا، وأصغيت لحديث ابنتي ذات الشعر الأسود أثناء عودتنا إلى البيت مجتازين الريف الأخضر في أخريات أيام الربيع... وكان كل شيء كما هو إلى ما قبل يومين. وجاءته مجتازة الجدول بأطفالها الثلاثة بعد الإفطار في زيارتها الصباحية له، فوجدته مستيقظًا متأهبًا لاستقبال يومه وتسلق الأطفال فراشه وقبلوه وربتوا وجنتيه، وأظنه ضمن بحياتهم عنصرًا من عناصر الطمأنينة الكاملة. إنه ملازم الفراش كما كان منذ مولدهم، فلم يذكروا أنهم رأوه على حال تختلف عن حاله هذه، ثم عادوا أدراجهم، وعندما عادت هي إليه بعد

قليل وجدته وقد فارق الحياة.. لقد كانت قصة بالغة البساطة حتى لا أستطيع أن أحتمل سماعها.. لقد ظل وقتًا طويلًا وهو لا يعرف أنه حي، كما لم يعرف أنه مات.

وقالت ابنتي: «لم يكن هناك شيء يمكن لإنسان أن يفعله من أجله».

فقلت: «أعرف ذلك، وقد عرفته منذ وقت طويل».

أما وقد عرفت آنئذ كل شيء ينبغي أن يعرف فلم أشعر في تلك اللحظة إلا بالنهاية، وإلا بالفتور الهائل في العقل والجسم. وأظنني قضيت ليلتين في نوم غير متصل، وضقت بشعوري بالوحدة، وحتى وجودي بين الغرباء كان أشد إهلالًا مما عرفت.. كنت أجلس صامتة، يدي في يد ابنتي الصغيرة الدافئة. وأخيرًا سارت السيارة في طريقها المعهود، وكان الناس العطوفون الذين يساعدونني في المنزل وفي إدارة العمل وأراضي الخاصة في انتظاري، وكان لا بد من عقد اجتماع، وتقبل دموعهم ومشاركتهم العاطفية، ثم الخلاص والذهاب إلى حجرتي الخاصة. كان جميع أطفالنا بالمنزل، وقد اجتمعوا في كل مكان وقاموا بعمل كل شيء. أما غرفته التي ظلت مستشفى مدةً طويلةً، فقد تحولت إلى غرفة للضيوف، ورفع منها فراش المرض. وكانت الأبسطة جديدةً نظيفةً، وعلقت الستائر المنشأة البيضاء على النوافذ. وكانت غرفتي بالغة النظافة تبعث بورودها على الابتهاج. لقد رأيت كل شيء، ولكني لم أشعر بشيء، كنت أسير وسنانةً، فإذا ما توقف أحد عن الكلام لحظةً عدت إلى النوم. وبعد طعام الغداء -وأظنني أتيت عليه كله وإن كنت لا أستطيع أن أذكره- رقدت على مضجع

بحجرة الجلوس- أنا التي لم يصبني الانهيار مطلقًا! فنمت بينما كان الأطفال يدبرون الأمر، ولم يكن نومي هذا كأي نوم عرفته من قبل.. لقد رحت في مجرد غيبوبة.

* * *

ينحصر في اليومين التاليين ثلاثة أحداث: ذهبنا جميعًا لنلقي عليه تحية الوداع، ولم نر هناك غير جسمه بطبيعة الحال، ولكن الجسم عزيز إذ إننا نعبر بالجسم عن حبنا، وبالجسم نحيا.. وأتذكر أمي يوم كنت طفلةً صغيرةً لا أزيد على السابعة، وكنت مريضةً بالدفتريا في إحدى مدن الصين في حالة تدعو إلى اليأس، وكان أخي الأصغر قد مات لساعته بنفس المرض، وكانوا يوارونه التراب في ذلك اليوم. وكانت أمي تبكي بصوت مرتفع، فعنفتها صديقة لها سليمة النية تمامًا، في غير إدراك للموقف.

قالت لأمي: «إنه ليس إلا جسمًا، أما روحه ففي السماء مع آلهنا»، وثار غضب أمي وانتحبت وصاحت فيها: «ولكن جسمه عزيز عليَّ، فأنا الذي ولدته وعنيت به وأحببته، فأينما كانت روحه فهي ليست في متناولي، وهم يحملون جسمه الآن بعيدًا عني، وهو كل ما أملك».

وعادت إلى ذاكرتي هذه الكلمات أثناء وقوفي بالقرب من الجسم المحبوب. كان ممددًا على مضجع مغمض العينين ويداه مسترخيتان إلى جانبيه، يرتدي حلته الصوفية الخشنة التي كان يفضلها وهي رمادية اللون ضاربة إلى الزرقة، وربطة العنق الزرقاء القاتمة التي أهديته إياها في عيد الميلاد الماضي، وكان شعره الجميل نصف الأشيب مصففًا إلى الخلف بعيدًا عن جبهته، وقد عاد وجهه شابًّا مرةً أخرى. وزايلته

التجاعيد، وصمتت الشفتان. وقبلت وجنتيه ولمست يده التي كانت دافئةً دائمًا وسريعة الاستجابة، وكان الجسم باردًا.

وفي اليوم التالي أقيمت الصلاة القصيرة التي أعدها الأطفال، وقد نقلوا إلى أحد جوانب أثاث حجرة المكتبة. وفي الضحى، حين كانت أشعة الشمس تنسكب على فناء المنزل والنافورة الصغيرة، وهي تمثال لصبي صغير من إيطاليا، تداعب البركة بلطف، في هذه الأثناء كنت أطل من نافذة حجرة نومي، وكان الرجال يحضرونه إلى البيت للمرة الأخيرة. وعندما هبطت الدرج كان ينتظرني هناك جميع سكان المنزل وأهل المزرعة، والأطفال وعائلاتهم، والممرضات اللائي عنين به. ووضع الرجال تابوته أمام إطار المدفئة، ثم أغلق الغطاء. وقرأ كاهن الأسرة بصوت مرتفع شيئًا من الكتب مما رآه مناسبًا، ثم قال كلمات قليلةً وديةً، ولا أذكر ماذا قال. كنت أجلس مفكرةً في الساعات الطويلة التي قضيناها في هذه الحجرة التي كانت أول الأمر غرفةً للعب الأطفال، ثم عندما كبروا بحيث أرادوا أن يلعبوا كرة السلة وقبقاب الانزلاق حولنا مخزن المحصولات إلى ملعب لهم، وصممنا هذه الغرفة لتصبح مكتبة العائلة، وصففنا فيها رفوف الكتب. وعلق هو على إطار المدفئة رسمًا توضيحيًّا لقصة من تأليف «جالزورثي»، وكان قد نشرها بمجلة «كولبير» حين كان رئيسًا لتحريرها. وهو رسم زيتي جميل، تذكاري وشاعري. وأظنها أول قصة ينشرها جالزورثي في أمريكا. وتدور حول راهبة مبتدئة بأحد الأديرة في الليلة الأخيرة قبل تثبيتها، وكان عليها أن تمعن التفكير في هذه الساعات الأخيرة: هل تصبح راهبةً، أم تعود إلى الحياة وإلى حبيبها؟ وتلجأ إلى هذا الدير مصادفةً راقصة جميلة لقضاء ليلتها في دير الراهبات

هذا، وترقص هذه الراقصة للراهبات بعد طعام المساء. وقد صور الرسام رقصتها ووزرتها الحمراء وهي تتطاير حولها. وفي صدر الصورة تجلس الراهبة الصغيرة المبتدئة ذاهلة اللب. وتستمر القصة، وتهرب الفتاة في تلك الليلة وتلحق بحبيبها وتحيا حياة المرأة كزوجة وأم. كانت الصورة معلقةً هناك دائمًا فوق إطار المدفأة المصنوع من خشب البلوط المكسو، وهي لا تزال معلقةً هناك الآن.

أما الكتب، فكان يعني بها عناية كبرى، فتصفف كما يجب في مواضعها: القصص الخيالية، فعلم الاجتماع، فالتراجم، فكتب الأطفال ثم كتب الرحلات، والكتب الجديدة وهكذا. لقد كان محبًّا للكتب، ورجلًا مثقفًا ذا عقلية على مستوى التفكير العالمي. وعلى الرغم من معرفتي الوثيقة العميقة بقارة آسيا، فإنه كان يخبرني عن حقائق لم أكن أعرفها. وعندما زرنا الهند، وجنوب شرقي آسيا والصين واليابان، وجدته يعرف جميع الشخصيات الهامة ممن كان ينبغي أن نقابلهم، واستطاع أن يقص عليَّ تاريخ كل منظر رأيناه. لقد كان زميلًا لطيفًا مسليًا في البيت وخارج البيت، وفوق هذا كله أنه لم يتلطف معي قط كما يتلطف الرجل مع المرأة.

صعدت ثانيةً إلى حجرتي الخاصة بينما كانوا يحملونه ويبتعدون به، وكانت هذه أقسى اللحظات، ولا تزال كذلك حتى الآن.. كان يترك بيتنا ووطننا، وإلى الأبد، ثم يعقب هذا، المسير الطويل إلى مقابر العائلة في نيويورك حيث دفن أبواه. نعم، كان الجميع عطوفين، وكان أولئك الذين اقتضى واجبهم مرافقته في رحلته الأخيرة يستولي عليهم التفكير والهدوء. وعندما اقتربنا من نهاية الرحلة قادنا رجال الشرطة إلى غايتنا

مجتازين طريق المرور.

وهنا، أتريث لأتذكر. ولكن ماذا أتذكر؟ أتذكر هذا -وسط هذا الركب المحزن، وكل لحظة فيه كرب مركز يصيبني بالألم في صميم عظامي. تصادف أن رأيت من نافذتي الخلفية رغمًا عني، ذلك الموكب الطويل المتمهل من العربات السوداء. نعم، ولكن في الطرف الأخير من هذا الموكب كانت سيارتان أخريان، سيارتان من طراز «ستيشن واجون» في حمرة سيارة الحريق، وقد عرفتهما لأول وهلة، أحداهما سيارة ابني، والأخرى لشاب مثله هو زوج ابنتي. وقد تأثرت أيما تأثر عندما أحضراهما مزهوين لأراهما قبل سفري إلى اليابان فأكبرت فيهما بسالتهما. وها هما الآن هنا، بهيان نشيطان في شمس الصباح.. لقد عرفت لماذا حضرا -وذاب قلبي ثانيةً بين الدموع والضحك.. إنه لمن المخجل ومن المؤسف أن يعجز عن رؤية هاتين السيارتين اللامعتين تكرمانه في هذه المناسبة- وكيف كان يمكن أن يضحك!!

لماذا أقول كيف كان يمكن؟ ومن المحتمل أنك كنت تضحك في مكان ما، إنه أمر لا يزال محتملًا.. لأحتفظن برأيي إلى أن...

كل شيء كان مهيأً عندما وصلنا إلى المكان الهادئ، كانت الطيور تغني والأزهار متفتحةً، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لإتمام الاحتفال النهائي بإعادة جثمانه إلى الأرض. كان قسيسنا قد حضر معنا وألقى الكلمات عن السلام والتسليم. ووقف أولادي وابن زوجي بجانبي، شبان أقوياء. وكان على ابن زوجي أن يستمر في إدارة مزرعة والده، ورجعت بناتي معي إلى السيارة وسرنا مبتعدات... ولكن آه من تلك

اللحظة الأخيرة الصامتة عندما اضطررنا إلى تركه وراءنا. وحين أعود إلى البيت فأجده خاويًا!! إنني لا أستطيع التحدث في هذا، ولكني أستطيع فقط أن أقول للنساء الأخريات اللاتي تحيط بهن ظروف كهذه -ولربما يقرأن هذه الصفحات- إنه لا مناص من مثل هذه اللحظات ستكون أيسر بمرور الزمن، ولكني لم أجدها كذلك إنني أعود إلى بيتي كلما تركته كأنه ملجأي، ولكني في هذه المرة لا أجده كذلك، ولن يكون كذلك مطلقًا.. إنني أدرك ذلك الآن. وما دام لا مهرب من الواقع، فلن يكون هناك غير التسليم، والتسليم يأتي أخيرًا وليس مرةً واحدةً. آه، إنه لا يأتي مطلقًا مرةً واحدةً.

* * *

ليس من المناسب فيما أظن أن أذهب إلى «فيرمونت»، ولكن كنا نذهب إليها دائمًا كلما كان يشتد الحر في بنسلفانيا، وقد يشتد الحر؛ لأن هذه الولاية كما قال البعض: «الحافة البعيدة الرقيقة للمنطقة المدارية»، إن أحراشنا وحقولنا تصبح رطيبةً، كأي غابة أخرى وتمسي الليالي حارةً. ربما أكون قد شعرت أنني أستطيع أن أهرب بطريقة ما من غيبته المستمرة، ومعرفة ما في ذلك من استحالة أينما ذهبت في هذا العالم، اقتضتني وقتًا طويلًا. ومهما كان الأمر، فقد اصطحبت بعد ثلاثة أسابيع بناتي الثلاث الصغيرات إلى فيرمونت، فمنذ سنوات حين اتفق على أنني لا يمكن أن أجتمع في مكان واحد مع بنات الأمبروزيا، ولذا شيدت بيتًا من ثلاث غرف له ولي غرفتان للنوم، وغرفة فسيحة للجلوس كانت تستخدم أيضًا للطعام مع نضد للطبخ. وكنا نقضي،

هو وأنا، في هذا المكان أيام صيف سعيدة. وكان للأطفال غرف خاصة بهم فوق مستودع السيارات «الجاراج»... ذهبت وحيدةً إلى ذلك البيت الذي كان بيته وبيتي، واحتلت الفتيات الغرف بأعلى الجاراج، وشرعت أنا في الكتابة وممارسة العزف على «البيان» وقضاء ساعات على الشرفة العالية المواجهة لجبل «ستراتون»، ولا أدري لماذا تخيلت أن أي شيء سيكون أيسر منالًا هنا. ولم أستطع الكتابة لسبب واحد بسيط هو أن عقلي الذي ضاع في التفكير والتذكر والتساؤل لم يشغل نفسه بخلق حياة أناس آخرين. لقد كنت بعيدةً عن كل شخص، كما لو كنت أنا التي قضيت نحبي. لا، إنها لا تصلح.. ليست فيرمونت بالمكان الملائم. وللمرة الأولى شعرت بالحاجة إلى مشغله غير الكتابة، بالحاجة إلى عمل أضطر إلى إنجازه، وعمل مع آخرين يقتضيني النهوض مبكرةً كل يوم، والذهاب إلى مكان معين يتحتم عليَّ أن أكون فيه.

وعندما أشرقت هذه الفكرة في ذهني، أمعنت فيها النظر.. أعود إلى اليابان وأستأنف عملي في تصوير الفيلم، وكان العمال الذين يعاونونني مشغولين، فقد وجدوا مواقع صالحةً، قرية صيد اعتقدوا أنها مثالية لتصوير فيلمنا، ومزرعة مدرجة السطح، وشاطئًا خاليًا، وبيت صياد سمك، ومنزل أحد السادة. أما البركان فقد وجدناه، وكانوا مستعدين لعودتي واستئناف العمل. وقلت لنفسي على الفوز: «متى أعود؟»، كان ذلك في أخريات شهر أغسطس، والبنات سيعدن قريبًا إلى المدرسة ويمكن أن يعشن مع أختهن الكبرى. ولم يكن هناك أي سبب عائلي يربطني بالبيت، فرحبت بفكرة العمل واليابان.

- ٢ -

كان الجو الذي هبطت فيه للمرة الثانية من الطائرة إلى المطار بالقرب من طوكيو جو ترحيب وعطف هادئ صامت. ويعتقد اليابانيون أن المشاعر كلما عمق أثرها قل التحدث عنها، ولكننا معشر الأمريكيين نرى ضرورة الكلام وإرسال الرسائل وبطاقات العزاء، وقد تدفقت قبل مغادرتي أرض الوطن مئات الرسائل على مكتبي وقرأتها جميعًا؛ إذ من الخير أن يعرف المرء مدى التقدير الذي يتمتع به. وفي هذه الأماكن العديدة من أرجاء العالم، وكان الناس يستوقفونني، الأصدقاء والغرباء في الشوارع والطرق الريفية ليقولوا لي: «يؤسفنا أن نسمع».

ولكني لم أسمع في طوكيو شيئًا من هذا، وإن كان كل شيء قد وصل إلى أسماعهم، وكانت نظرتهم للموقف رقيقةً ولكنها كاملة، فأشرقت حجرتي في الفندق بالأزهار وسلال الفاكهة، وكانت الخادمات الصغيرات على أهبة الاستعداد كاسفات البال، وفهمت أن القوم في اليابان لا يعبرون عن شيء بالكلمات حتى عن الحب، ولا وجود لكلمة مثل «أحبك» في اللغة اليابانية.

وسألت صديقتي اليابانية ذات مرة: «كيف تخبرين زوجك أنك تحبينه؟».

فبدت عليها هزة خفيفة، ثم أجابت: «إن عاطفة عميقة كالحب بين الزوج والزوجة لا يمكن أن يعبر عنها بالكلمات، بل يجب أن يكون التعبير عنها بالموقف والتصرف».

وليس في هذه اللغة اليابانية كذلك مرادفات لكلمات الحب عندنا، مثل حبيبة قلبي، ومحبوبتي، وعزيزتي، وما إليها، وقد بدأ بعض اليابانيين من الشباب باستعمال الكلمات الإنجليزية، ولكن حتى هؤلاء لا يكونون جادين، ولكن ربما لا يستخدم أحد هذه الكلمات استخدامًا جديًّا بعد الآن. ولقد سمعت مديرين أمريكيين يبعثرون هذه الكلمات دون اكتراث وبلا قصد، على من يحبونهم ومن لا يحبونهم على السواء، وعلى طريقة هوليود وبرودواي، فكنت أحتج عليهم دائمًا. أما بالنسبة للكاتب فجميع الكلمات عنده ذات دلالة وذات قيمة، سواء أكانت مفردةً أم عبارات، ولكل منها مكانها المناسب وحسب كالجواهر تمامًا. واللغة الإنجليزية غنية غناء عجيبًا بكلمات الحب ذات الجذور العميقة في التربية الأنجلوسكسونية القديمة. ومما يثيرني دائمًا أشد الإثارة أن أسمع رجلًا يطلق على سكرتيرته أو على ممثلة أو مجرد فتاة لا يتذكر اسمها، كلمات الحب الثمينة!! إن في ذلك امتهانًا للشعور الصادق، وهو أعمق ما في قلب الإنسان. وعندي، أنه لا يوجد في الحياة ما يساوي، أو حتى يضارع، من حيث الأهمية والقيمة، الحب الخالص بين الرجل والمرأة، بكل ما تحمله الكلمة من معنى: «إن الكلمات التي درجنا على استعمالها

للتعبير عن هذا الحب، مدى قرون من الزمن، يجب ألا تلوث؛ لأنها ملكنا جميعًا. أما إذا لطخها سوء الاستعمال والاستهلاك، فكيف نعبر عن الحب الصادق؟ لقد سلبنا شيئًا لا يمكن أن يعوض، فأي امرأة تسمع الرجل الذي تحبه يناديها بحبيبة قلبه وعزيزته، ومحبوبته، لا تملك إلا أن تشعر بالغضب عندما تمسخ هذه الكلمات.

سألت أحد الأمريكيين: «كيف تستطيعون مسخ هذه الكلمات؟».

فضحك ضحكةً لا معنى لها وهو يقول: «إنه يسبب للفتيات شعورًا بالارتياح»، ثم قال باستهتار: «إنه شيء غير رسمي -كما تعلمين- مثل المودة».

إن الفتيات اليابانيات لم يشعرن «بالارتياح» لهذا الحديث، ولم يعتبرنه ردًّا، والقليلات اللاتي اعتبرنه كذلك أصبحن من المشكلات، فقد ظنن كلمات الحب تعني الحب نفسه، فأصبحت كلمات ذات خطر وبالتالي مثارًا للمتاعب. أما الفتيات الأخريات اللاتي لم يبحثن عن الحب لدى الرجال الأمريكيين مع ما فيه من نفع مادي لهن، فقد اعتبرن الرجل الأمريكي مهتمًّا بالجنس الآخر اهتمامًا غير لائق، ومن ثمَّ فهو اهتمام شائن. وقد اقتضى الأمر كثيرًا من التفسير قبل أن تهدأ ثائرتهن، وكنَّ عادةً أكثر أدبًا من أن يتذمرن في وجوده، ولكن أي احتقار كان يناله إذا ما ولى ظهره!

صاحت ممثلة شابة وعيناها السوداوان تشعان غضبًا: «إنني سأقاضيه إن قالها مرةً أخرى»، وقد قاضته فعلًا.. حقًّا إن لنا مشكلاتنا.

لقد تقررت مواقع التصوير، وإن كنت لم أرها بعد إلا على الفيلم،

وكانت المهمة التالية هي البحث عن ممثلينا. وما دامت قصة «الموجة الكبرى» يابانيةً كلها، فيجب أن يكون الممثلون يابانيين. وكنا قد عينا بالفعل نفرًا من البحارة ومصورًا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تقوم فيها شركة أمريكية بتصوير فيلم في اليابان بالتعاون مع شركة أفلام يابانية هي أكبر الشركات وأحسنها من بعض الوجوه، واستخدام عمال ومصور من اليابانيين، فكانت تجربةً هامةً أكبر الأهمية. لقد رأيت من قبل أفلامًا أخرى مقتبسةً من كتبي، ولكن لم يكن من بينها ما يشبه هذا الفيلم، وفي وجودي لم أعمد إلى التدخل في إدارة الفيلم أو أي جانب من جوانبه الفنية؛ لأنني أعرف نواحي جهلي، ولكن كان لي حق التنقل إلى أي مكان أحب، والحديث حينما أريد، وأعتقد أن زملائي الذين اشتركوا في العمل كانوا واثقين من قدرتي على الصمت، إذ لم أكن أتكلم كثيرًا بل وفي معظم الأحيان، فأنا في الحقيقة امرأة هادئة بالسليقة، إلا إذا تضايقت من شيء أعتبره منافيًا للعدل، فهنا -كما قيل لي- أعبر عن ألمي بوضوح.

كنت دون شك أستمتع بالجلوس بين الممثلين، وقد أعطينا مكتبًا في المبنى الجميل الذي يملكه شركاؤنا المنتجون اليابانيون، فكنت أذهب إلى هناك مبكرةً، وأمكث إلى ساعة متأخرة، أشاهد وأستمع وأدلي برأيي بالرفض أو القبول، بينما كان القائمون بالأمر يستمعون إلى الممثلين والممثلات الكبار والأطفال، وكان اهتمامنا الأول هو اختيار الأطفال، والحصول على بنتين وولدين كان عليهم أن يستهلوا قصة الفيلم، ولذلك كان الأطفال يأتون بصحبة أمهاتهم.

رأيت عددًا كبيرًا من الممثلين والأطفال كانوا يبدوا عليهم الاكتئاب

ولكن هؤلاء الأطفال اليابانيين لم يكونوا مكتئبين، بل أصحاء سعداء يشيعون جوًّا عامًّا يجعلهم محببين كثيرًا إلى القلب، ولم يكونوا هم ولا أمهاتهم متوتري الأعصاب كما هو الحال لدى عدد كبير جدًّا من ممثلي الأطفال الأمريكيين وأمهاتهم، ويرجع هذا الخلاف على الأرجح إلى أن المنافسة في الحياة اليابانية ليس لها تلك الأهمية التي نراها في حياتنا نحن، وأن الرغبة في التفوق تأتي في المرتبة التالية بالنسبة لاعتبارات المشاعر الإنسانية.

دخلوا الواحد بعد الآخر، كل أم تتبع نجمها النادر في غير فضول، فينحنون بتلك الرشاقة، التي أنعم بها عليهم ذلك «المفصل» الإضافي الذي يبدو كأنه نما في ظهور اليابانيين.

إنها لفريدة في نوعها هذه الانحناءة. إن الصيني يحني رأسه بسرور عند التحية والافتراق، والكوري يميل بكبرياء، أما الياباني فيؤدي انحناءةً شديدةً ولكنها تنطوي في نفس الوقت على الكبرياء.

لم يكن هناك غير صبي واحد في آخر الصف الطويل الذي لا ينتهي، بدا ثائرًا أو متمردًا، دخل مبكرًا في صباح أحد الأيام بين أمه وخالته، وهو الطفل الوحيد الذي احتاج إلى حراسة سيدتين. وسرعان ما ظهر السبب: كان طفلًا جميلًا ولكنه عابس، وكانت انحناءته تنقصها المجاملة، ولم يتكلم في أول الأمر.. فأخبرتنا أمه وخالته في ألم هادئ واعتذار عن سلوكه، وقالتا بحماسة إنه بطل في السباحة، فهنأنا الصبي الذي ظل على تجهمه، ودعوناه إلى الجلوس فجلس، ولم تزايله جهامته. ورضى بعد عدة توسلات هامسة من قريبتيه أن يجيب على أسئلتنا باقتضاب –

باقتضاب شديد. وظل طوال الوقت يتفرس.. الحائط. وأجاب بنعم عن سؤال مباشر، أنه في المدرسة -مدرسة يابانية- وأجاب بنعم على أنه يتكلم الإنجليزية -أحيانًا- وقد مكث بالقاهرة، في مصر، ثلاث سنوات ونصف، حيث كان يذهب إلى المدرسة الإنجليزية، ولكنه يفضل ألا يتكلم بالإنجليزية... ولم يرغب في أن يتذكر القاهرة، ولم يذكر عنها أكثر من أنها مدينة... ثم ازداد تجهمه أكثر فأكثر. وخطر لنا شيء ما، فوجهنا إليه سؤالًا نهائيًّا.

«أترغب في العمل في هذا الفيلم؟».

فرفع رأسه وقد تهلل وجهه للمرة الأولى وصاح قائلًا: «لا!».

ووجهنا إليه سؤالًا آخر مباشرًا: «هل رغبت يومًا ما في أن تكون ممثلًا؟».

فأضاء وجهه في هذه المرة كأنه ضوء النيون وقال: «لا» فانفجرنا بالضحك، وتطلع إلينا هو بنظرة ملؤها الرجاء.

فقلنا له: «انتهت المقابلة. إنك لرجل عاقل، وتعرف ماذا تريد».

وخرج متثاقلًا في كبرياء الذكور دون أن يبتسم، وخرجت قريبتاه الأنثيان توسعان خلفه الخطى، وكانتا متألمتين، ولكن غير مذعنتين. وواضح أنه ظفر بنصر عائلي، وأنه كان معتادًا على هذه الانتصارات.

قلَّ بمرور الأيام عدد الممثلين الذي لا يحتمل قبولهم والذين يحتمل قبولهم، وكان هؤلاء هم الفريق الأقل كثيرًا. وفي اليابان كثير من الممثلين الممتازين الذين يتكلمون الإنجليزية في نفس الوقت، ما

دام الحوار سيكون باللغة الإنجليزية. وكنا نأمل في بادئ الأمر -على غير أساس من الواقع- في أن تكون إنجليزيتهم سليمةً، ثم تعودنا فيما بعد أن نأمل في لغة إنجليزية يمكن أن تفهم بالقدر الكافي لإشباع غرور اليابانيين.

ويذكرني هذا الغرور بحادث جرى لي في حياتي الخاصة في الصين، ذلك أنني تخلفت لأستريح يومًا في نزل على طريق جانبي بمقاطعة بعيدة، وجاءت امرأة عجوز تصب الشاي في كوبي فشكرتها باللغة الصينية، وسألتها عن أحوالها فتفرست في وجهي مرتاعةً، وسقط من يدها إبريق الشاي وقالت لاهثةً: «فلتنجني الآلهة، ماذا دهاني؟ إنني أفهم الإنجليزية!».

وكان أملنا إحراز شيء من هذا، ولكن كانت تمر بنا أوقات نتساءل فيها عما إذا كنا من البلاهة بحيث نأمل في شيء كهذا، أو نتوقع تحقيق هذا المطلب؛ لأن تباين لهجات اليابانيين الذين يتكلمون الإنجليزية يدعو إلى الدهشة، وهم يشتركون في خاصية واحدة مائعة بينهم، وهي أن حرف «ل» الساكن يبدو غريبًا على اللسان الياباني.

وانقضى النهار في مثل هذا العمل المسلي إلى أن هبط الظلام، وكان الهم الذي يلازمه هو أن ينتهي دائمًا بالليل.

* * *

لأول مرة في حياتي أشعر بالحزن عندما يحل الليل، فالنساء الأخريات يذهبن إلى أزواجهن، أو يذهب الرجال إلى زوجاتهم، ولكني أعود وحيدةً إلى غرفتي بالفندق. كانت النوافذ تطل على سطوح منازل

طوكيو الحديثة، وهي كما قلت، ليست جميلةً، فالوقت عندهم لم يتسع للإبداع الفني، إذ أعيد بناء المدينة بسرعة بعد الحرب، فبعد أن دكتها القنابل تمامًا كان من الخير -إذ أمكن- أن تصمم مدينة ذات شوارع متسعة ومتنزهات، مدينة حديثة ولكن جميلة وعلى الطراز الياباني، بيد أن هذا لم يحدث، فقد كانت الحرب قاسيةً، وكان الناس في يأس من رجوع الحياة إلى سابق عهدها، والحكومة مفلسة تقريبًا والمنازل قد اختلط فيها الحابل بالنابل. ولا يزال من العسير اليوم أن تعثر على بيت برقمه أو حتى باسم شارعه، فلا يملك المرء إلا أن يكل أمر نفسه إلى المجهول.

إن قضاء الليالي في حجرات فندق مهجور أمر محال بالنسبة إليَّ على الأقل. لقد كان لي أصدقاء كثيرون، والدعوات كثيرة بل أكثر مما أستطيع أن ألبيها، ولكن كل هذا لم يشبع حاجتي. على المرء أن يحافظ دائمًا على جرأته واتزانه، وهذا لا يمكن أن يتم إلا أثناء العمل اليومي عندما يكون العقل مشغولًا، والأمر يختلف حين يضطر المرء إلى الاستجابة شخصيًّا للآخرين. وأخذت بين يأسي ووحدتي أجوب الشوارع في الليل مجهولةً طليقةً، إن طوكيو غنية بالمسارح ودور السينما، وقد اعتدت الوقوف عند واحد أو آخر منها. ومع أنني لم أفهم الحوار، إلا أنه كان من اليسير فهم سياق القصة، فاستطعت أن أجد فيما شاهدته تسليةً لطيفةً سطحيةً على الأقل. كانت هذه الدور مكتظةً دائمًا، والنظارة وقورون متحمسون، فإذا ما حانت لحظة الضحك وارتفعت الضحكات المتقطعة توقفت لتوها في وقار حازم مرةً أخرى.

تصادف في أمسية من تلك الأمسيات أن رأيت سيدةً أمريكيةً في نحو سني تتجول كما كنت أتجول، فوقفنا كلتانا مترددتين الواحدة أمام الأخرى، ثم بدأتها بالحديث. كانت من لوس أنجلس، وقد سافر زوجها إلى فرموزا، ولم ترغب أن تتبعه إلى هناك، وكانت ابنتها على موعد لتناول طعام العشاء مع شاب أمريكي، وكانت منغمسةً في إشباع رغبة أخفتها طويلًا وهي التجول في طوكيو منفردةً، ومع ذلك كان يبدو عليها التردد حتى هذا الوقت، وإن لم يكن يساورها خوف. واقترحت عليها مشاهدة الفيلم معًا ففعلنا لمتعتنا المتبادلة. وازدهر تعارفنا وأصبح صداقةً. ثم تناولت الطعام ثانيةً فيما بعد مع عائلتها في لوس أنجلس. والمهم في هذا الحادث هو أنني لم أدرك كيف تكون هيئة المرأة الأمريكية بين الشعب الياباني، وحين رأيتها نسيت بالطبع هيئتي بين ألوف اليابانيين.

كنت أشعر في الحقيقة شعورًا دافئًا مريحًا عندما أكون بين الشعب الياباني، ولعل مرد ذلك إلى ذكرى باقية من جو طفولتي حين كانت تصحبني مربيتي الصينية، فأجلس في مسرح صيني أو في العراء، في بيدر أو في فناء معبد لمشاهدة تمثيلية، وكانت التمثيلية في الصين هي الشيء المطلوب، أما نظام النجم أو البطل فلم يكن معروفًا، اللهم إلا إذا ذهب الشخص بطبيعة الحال إلى شنغهاي أو بكين ليشاهد تمثيل نجم مثل «ميي لان –فانج»، أو «بترفلاي وو». وقد حرمت هذه الميزة لأنني كنت طفلةً، ولكني كنت أستمتع بتمثيليات الخوارق، والتمثيليات التاريخية الطويلة التي كان الصينيون يتعلمون بوساطتها الدين والفلسفة وتاريخ شعبهم. وقد اعتبروني عضوًا من النظارة الكثيري التردد على

المسرح. ونسيت نفسي.. طفلة أمريكية شقراء الشعر بين جمهور آسيوي.. جمهور ذي مودة في تلك الأيام، ولم تلحق بي قط مسئولية آثام الاستعمار التي ينسبها في الوقت الحاضر جميع الآسيويين إلى الجماعة البيضاء برمتها فيما يظهر، ولم أكن أدرك إلا أنني محاطة بأناس يمتازون بالظرف والبشاشة، وقد وجدت نفس هذا الطراز من الناس في طوكيو، وإن كانوا من شعب مختلف وبلاد مختلفة، وقد قبلوني لمجرد أنهم ألفوا الأمريكيين بوصفهم جزءًا من المنظر العام في العالم. لقد عرفوا خير ما فينا وأسوأ ما فينا لطول سني «الاحتلال»، ولن يدهشهم منا بعد ذلك خير أو شر.

ولطوكيو بطبيعة الحال سماتها الأشد سوادًا، فيها شوارع لا يلذ لي السير فيها منفردةً أكثر مما أفعل في بعض أجزاء نيويورك وفيلادلفيا، حيث عرفت أنها ليست خطيرةً وحسب حين أمشي فيها وحيدةً، بل وفي سيارة غير مغلقة الأبواب. إن المدن هي المدن، ورجال العصابات يغشونها جميعًا.

وقد شهدت طوكيو في تلك الأيام اضطرابات الطلبة الذي عللناه نحن سكان أمريكا الشمالية تعليلًا خاطئًا إلى حد بعيد، ولا أملك إلا القول بأنني كنت هناك، وأنني رأيت جموع الشبان والشابات متحمسين مصممين وملهمين، وأنهم لم يكونوا ضد الأمريكيين، إنهم يابانيون يحبون دستورهم على الرغم من أن الأمريكيين هم الذين خططوه -أو على الأقل خططه أحد الأمريكيين. وهم يحبون من هذا الدستور بنوع خاص ذلك الجزء الذي ينص على أن اليابان بوصفها شعبًا، يتحتم

عليها ألا تشن حربًا مرةً أخرى. وقد طُلب إلى اليابانيين آنئذ أن ينحازوا في حالة نشوب حرب، وأن يكون انحيازهم إلى المعسكر الغربي على الرغم من أنهم شرقيون في نظر آسيا، ولا بد بالبداهة أن يكونوا شعبًا محايدًا في المستقبل. ولقد شعروا- لوجود القواعد الأمريكية على أرضهم- أنهم مضطرون إلى الاشتراك معهم، وبذلك بلغ الموقف في نظرهم حدًّا عسير الاحتمال في تضاربه. إن اليابانيين شعب حسن التنظيم، ولديهم مستويات مختلفة، ولا يخلطون بين محاسنهم ومساوئهم، ومهما كان المستوى الذي يقفون عنده مؤقتًا، فهو ذلك المستوى الذي يريدونه دون غيره، ولذلك استمروا في الشغب لإظهار ما أصاب أحوالهم من خلل ولكنهم لا يكرهون أحدًا. وهم قادرون على القتل أثناء الاضطرابات، لا بسبب الكراهية بالضرورة، ولكن لمجرد إزالة الخلل.

كان الطلبة دائمًا هم الفريق المنبه والمثير والهام في حياتي، ولا أقصد طلبة أمريكا الشمالية المسالمين نسبيًّا، الذين لا تقاس أكثر نشاطهم شدةً أو حتى أكثرها إثارةً بمزاح طلبة الكليات. ولقد ألفت طلبة الصين والهند وكوريا واليابان. أما العهد الجديد في الصين، مهما كان من أمره، فقد كانت لنا عهود جديدة ذات تغيرات مضللة سريعة، كان الطلبة دائمًا يعلنون عنها بثورتهم. والناس يحترمون هؤلاء الشبان والشابات؛ لأنهم أشخاص إن لم يكونوا متعلمين فهم مع ذلك في طريق التعليم، ولذلك فهم أحق وأكثر معرفة مع ذلك في طريق التعليم، ولذلك فهم أحق وأكثر معرفةً من المواطن العادي الذي لا يعرف القراءة

والكتابة. وتعتقد الشعوب الآسيوية أن الكتب خزائن الحكمة الإنسانية. ولما كان الطلبة هم الذين يملكون وحدهم حق الاتصال بالكتب، فإن مركز الطالب في آسيا كان يحمل، ولا يزال يحمل، اعتبارًا لا يتناسب إلى حد كبير مع العصر والطبقة. وهم جماعة مخلصة خاطرت بحياتها في كل اضطراب حتى الموت. ولقد رأيت إبان قيام النظام الشيوعي في الصين كثيرين منهم يُقتلون لمجرد تشكك الشيوعيين فيهم، ولا شك أن بعضهم كانوا شيوعيين، ولكن معظمهم كانوا شبانًا وطنيين مخلصين وحسب، يرغبون مستميتين في تحسين الظروف التي يعيش فيها شعبهم. وهؤلاء هم الضحايا المجهولو العدد والاسم، ولكن من أجل ذلك لا يمكن تناسيهم. فإن أراد شخص أن يعرف ما يجري في بلد آسيوي فعليه بمراقبة الطلبة.

* * *

أما عن الفيلم، فبينما كان كل شيء يسير قدمًا كنا بحاجة إلى موجة مد؛ إذ إن كل شيء يمكن الحصول عليه، ولكن موجة المد لا يمكن استحضارها عندما نريد. والقصة نفسها تبدأ بموجة مد. ولقد حدث عندما كنت أقضي عامًا في اليابان بجزيرة كيوشو، أن عرفت قرية صيد لطيفةً صغيرةً على الطرف الجنوبي من الساحل مكونة من اثنى عشر كوخًا من الحجر، متراكمة على غير نظام وراء سور البحر الحجري. ولم يكن للمساكن أبواب ولا نوافذ مواجهة للبحر، لا لأن جماعة الصيادين لا يحبون البحر، بل هم يحبونه حبًّا حقيقيًّا، إذ عاشت أجيال من العائلات بقربه وكان معاشهم منه، ولكن أجيالًا أخرى

عرفت أيضًا ثورة تلك الأمواج الهائلة التي ترتفع نتيجة للزلازل التي تحدث تحت البحر، فالبركان والبحر يعملان معًا من أجل الموت، وقد رأيتهما يعملان في يوم مشرق من أيام سبتمبر بعد إنذار سابق. وقد أخبرني الصيادون أن المياه في البئر العميقة ظلت موحلةً أيامًا، وكانت هذه البئر المحفورة على الشاطئ لا تبعد غير أقدام قليلة من البحر. وفي سفح تل، ولكنَّ ماءها كان عذبًا، وكانت نساء القرية تسرن نحو ميل في كل من الذهاب إليها والعودة منها، لحمل الماء العذب الذي تستعمله القرية وظلت الحال كذلك مئات السنين. وعندما قلت إن ذلك عمل شاق، ابتسم الرجال مستنكرين، ولا بد أن أقول إن النساء كذلك قد ابتسمن.

إن الزلزال بطبيعة الحال يأتي أولًا، فزلزال شيلي أرسل موجةً اجتازت البحر مندفعةً إلى شمال غربي اليابان. ولكن الزلزال يحدث في اليابان عادةً أو تحت مياه البحر بالقرب منها. الزلزال -تلك الكلمة التي لا أستطيع حتى أن أذكرها حتى في سري وأنا جالسة هنا على أرض بيتي الريفي الصلبة بولاية بنسلفانيا، دون أن يصيبني أثر من ذلك السقم القلبي والجسدي الذي لا نهاية له، ذلك الفزع الذي يلم بالكائن الحي عندما تهتز الأرض تحت قدميه، حتى لكأن الكرة الأرضية نفسها تذوب في الفضاء. إن الأمر الوحيد الذي نشعر به نحن البشر، إنما هو هذه الأرض التي هي موطننا، تلك الكرة التي نتشبث بها.. قد تنزل بنا الكارثة، كالرعد والبرق، هادر ومبرق في السماء، وتهبط علينا الرياح من الفضاء الخارجي وتهطل الأمطار من السحب كالسيول الجارفة، وحتى البحر قد يرتفع في شكل

العاصفة، ولكن تحت هذا كله الأرض، أو نشعر أن الأرض تحتنا.. ربما تكون بذورنا قد نبتت في البحر، ولكنا الآن مخلوقات برية. وعندما تغدر بنا الأرض، وحين لا نستطيع الوقوف على أقدامنا، وعندما تنشق وتبتلع بيوتنا وشعبنا، فحينئذ يلحق بنا الضياع حقًّا.. حدث إبان هزة أرضية عنيفة في اليابان أن انشقت الأرض فسقط في الهوة طفل كان يجري، وتبعت الأم طفلها وقفزت وراءه، ولكن الأرض انطبقت ثانية، فلم تترك سوى شعرها الطويل الأسود فوق السطح المرتجف..

في اليوم التالي لعودتي إلى طوكيو، وبينما كنت جالسةً إلى مكتبي في غرفتي بالفندق أكتب بعد منتصف الليل، شعرت بتلك الاهتزازات الأرضية العميقة المضطربة، فاستيقظ مرةً أخرى سقمي الباطن القديم، ولم يزد هذا الزلزال على هزة خفيفة، ولكني لم أتمالك يدي خلال تلك اللحظة، واهتز المكتب. وكان معظم الناس نيامًا أثناء ذلك، ولكن صحف الصباح نشرت أن الهزة كانت عنيفةً. وتحدث مثل هذه الاضطرابات دائمًا في اليابان. مئات وألوف منها تحدث في العام بمتوسط أربع مرات يوميًّا. وتعد كل هزة من هذه الهزات بمثابة تنبيه لهذا الشعب الشجاع بأنه يعيش على جزر خطيرة. ويتضح هذا التوتر الدائم فيهم، فمزاجهم يجمع النقيضين -انبساطًا متطرفًا وكآبةً عميقةً، وأحيانًا حزنًا مجنونًا.. إن الوجه المهذب الرزين، والابتسامات والهدوء، وعدم المبالاة، أستطيع القول إنها جميعًا ودون استثناء تخفي وراءها حزنًا قاتمًا، نجم عن معرفة الصغير والكبيرة أن الكارثة مرض متوطن على الرغم من جمال الجبل والبحر ورقة الحياة. وهذه المعرفة الشاملة ولَّدت فيهم احترامًا ومجاملةً

لطيفةً، كأنك تقول إن الدنيا قد تنتهي في أي لحظة، فليشفق كل منا على الآخر. وعندما يكون من الضروري تجاهل هذا الإشفاق الفطري، كما يحدث في أوقات الحرب، وحين يجب تعليم الناس الوحشية، فقد تبلغ بهم القسوة حدًّا يفوق الخيال... ولكني كنت أتكلم عن الهزات الأرضية وموجات المد.

كنا إذَنْ بحاجة إلى موجة مد؛ لأننا نستطيع أن نصور بآلة التصوير زلزالًا، ولكن تصوير موجة المد كانت فوق مقدورنا.. وهنا واتانا حسن الحظ؛ لأن شريكنا المنتج الياباني كان يملك أفخم «أستوديو» مزود بالمؤثرات السينمائية الخاصة في جميع أنحاء البلاد، بل قيل لي في جميع أنحاء العالم. ولم أفهم المقصود بالمؤثرات الخاصة في حديثنا عن الفيلم، ولكني فهمت أن معناها تصوير نسخ أخرى مصغرة من الفيلم للمناظر الطبيعية. واليابانيون موهوبون بدرجة لا تُبارى في مثل هذا العمل. ويعتبر «تسوبورايا» أعظم اليابانيين ألمعيةً، وكان تسوبورايا لحسن الحظ تابعًا لشركاتنا المنتجين اليابانيين، فقابلناه على موعد بمكاتب الشركة.

إنه فنان، تكشف لك أول نظرة تلقيها عليه عن هذه الحقيقة. كان يرتدي ملابس العمل، سراويل منتفخةً وقميصًا منتفخًا، ومعطفًا يابانيًّا، واحتفى بنا بترحيب طبيعي لطيف، ثم قال إنه عرف بحاجتنا إلى موجة مد، وأنه وضع فعلًا رسومًا تخطيطيةً لعرضها علينا، كانت الصور مفزعةً مرسومةً بالألوان المائية المتقنة، تصور ارتفاع الأفق، والموجة المقتحمة، وقمم الأمواج الشامخة المنكسرة. ولا تظهر موجة المد كأنها موجة في

بادئ الأمر، بل يرتفع الأفق ويشمخ البحر إلى السماء في خط هادئ مترع ويندفع نحو اليابسة.. جدار من المياه قد يرتفع إلى قدمين وقد يبلغ مائتي قدم.. عملية امتصاص هائلة تجمع البحر في موجة حتى ليستطيع من يقف فوق جرف مشاهدة قاع المحيط عاريًا فيما وراء الشاطئ، ثم تتلوى الموجة الماردة فوق قاعدتها، وتعم الأرض والمساكن والناس..

راقبت وجه «تسوبورايا» وهو يصف تتابع المناظر التي صورها، فوددت لو استطعت تصوير هذا الوجه الياباني الجميل ولو بالكلمات، وأقول الجميل بكل ما في الكلمة من معنى عميق، فهو لم يكن جميلًا بالمعنى الظاهري، بل كان يمزقه التفكير والتركيز، وكان جالسًا كوجه الطفل، الطفل العبقري، ولكن ليس به أقل أثر من سذاجة الطفولة. كان حكيمًا لطيفًا، ومع ذلك كان ناضرًا وقويًّا وفكهًا... وجه فنان طهرته مرضاته بإنجاز عمله عن طريق فنه، وتحدثنا بهدوء، وكنت أصغي إليه أثناء وصفه لأفكاره، فهو سيأتي إلى قرية الصيد مع المصور ويلتقط صورًا لكل شيء، ثم سيبني مجموعات بداخل «الأستوديو»، ويجدد المناظر، ويجعلها ملائمةً للفيلم، وإن هذا كله سيتم فيما بعد عندما يتقدم العمل. وكنت أثناء ذلك راضيةً في ضميري رضاء الكاتب الذي يعرف أن عمله مفهوم، وأنه على وشك أن يُترجم ترجمةً أمينةً إلى وسيلة أخرى.

عرفت بالتجربة أنه ينبغي ألا نحكم على الذين يعملون في المسرح بالمقاييس التي نطبقها على بقية الناس، فهم جماعة مختلفة في مزاجها مهما كان جنسهم أو طبقتهم أو جنسيتهم. إن الممثل الصيني، ذكرًا كان أو أنثى، يشبه الممثل الأمريكي، بل يشبه أي ممثل في أي بلد آخر؛ لأنه

ممثل قبل كل شيء. والمديرون على غرار واحد مهما كانت أعمارهم وألوانهم وعقائدهم، وجنسياتهم، فهم جميعًا ممثلون أوائل دون استثناء واحد. وإنني أثبت هذه الملاحظات تمهيدًا لمشكلتنا الحقيقة الأولى في إنتاج الفيلم، فلقد سار كل شيء على وجه مُرْضٍ، غاية في اليسر، حتى لقد توقعت، أنا المبتهجة المتشائمة عاصفةً في الأفق أو عقدةً في سير العمل، أو تعقيدًا في الآلات.

وتصادف -صباح يوم حار من أيام الصيف- أن تحطم جهاز تكييف الهواء، وأظن ذلك قد حدث لتهيئة درجة الحرارة الملائمة للعاصفة المقبلة. واقترب مني مدير الإنتاج وهو يبالغ في الترحيب الشخصي وكنا في مكتبه كالمعتاد، المدير الأمريكي وأنا، وكان مدير الإنتاج شديد الحذر، وكان ينبغي أن أدرك أن لديه فكرةً، فأمر عدة فتيات جميلات أن يقدمن لنا الشاي. وعندما قال الرجل الأمريكي إنه يفضل القهوة؛ لأن هذا هو المكان الوحيد في طوكيو الذي تقدم فيه القهوة الجيدة، صاح مدير الإنتاج بجماعة أخرى من الفتيات الحسناوات لكي يقدمن القهوة. وعندما جلسنا جميعًا حول المائدة المنخفضة المستديرة، وبعد أن جفف عرقه من وجهه وعنقه المكتنزين، قال بلهجة مرضية للغاية إنه ما دامت شركته قد غامرت بشهرتها في إنتاج فيلمنا، فإن أصحاب الشركة يرغبون في إضافة مدير ياباني إلى المدير الأمريكي.

أعرف أنه لا يوجد في الحياة شيء يحدث اتفاقًا كليةً، ولذا عندما رأيت في عيني الأمريكي انتباهةً مفاجئةً، جعلت إجابتي كأنها معارضة، فقلت إننا نرحب بطبيعة الحال بمثل هذه المعاونة، فأنا أريد أن يكون

الفيلم صادقًا في كل أجزائه لأن المديرين بصورة أمعن في المصادفة، وقد عرفته، فهو مدير أفلام ياباني مشهور متقاعد من الناحية الرسمية، ولكنه لا يزال مديرًا لا يفرغ من العمل.

وقال المدير الأمريكي اتفاقًا أيضًا: «إنني أرغب في مقابلته».

كان كل شيء يبدو هادئًا مهذبًا، وزفر مدير الإنتاج زفرة السعادة، وأصر على تناول الشراب الـ«جنجرايل» بالإضافة إلى الشاي والقهوة. وكان الرجل ضخم الجسم طويل القامة ثقيل الوزن متقلب المزاج. حقيقةً إنني كنت قد استدعيت سرًّا على حدة في اليوم السابق على هذه المقابلة، وحذروني من أنه لن يتفق مع المدير الأمريكي لعدم تجانس طباعهما، وعندما تحريت عن معنى ذلك شرحوه لي في عبارات يابانية، مؤداها أن الأمريكي مليء بالنشاط شديد العناد، وكذلك الياباني، فلن ينثني الأمريكي بسهولة عن نقطة يرى نفسه محقًّا فيها، وكذلك يفعل الياباني، بل لنقل بصراحة إن واحدًا منهما لن يذعن للآخر مطلقًا. وقد أزعجني هذا، وخطر لي آنئذ أن مساعد المدير الياباني يقوم بدور الواشي.

ومع ذلك فعندما ذكرت هذا الاحتمال للمدير الأمريكي في ساعة متأخرة من النهار قال لي باقتضاب إنه لا يريد الواشين، وإنه يحب مدير الإنتاج؛ لأنه صريح كالأمريكي، ولذلك يستطيع التعامل معه. وسمعت شيئًا من الحدة في صوت المدير الأمريكي، فأرجأت الاستمرار في الجدل، وتذكرت أن الزمن يعالج كثيرًا من الأشياء، فلقد علمتني آسيا ذلك..

وسار اختيار الممثلين بصرف النظر عما يحدث من أعمال أخرى.

وعملية الاختيار لا تختلف في طوكيو عنها في برود واي، فقد جلسنا – بعد أن دعينا– خلف المائدة الطويلة في المكتب، حيث أُدخل الممثلون الواحد بعد الآخر، كل في دوره. وكانت أمامنا صورهم، ففحصناها بعناية لمعرفة مدى استجابتها للتصوير الشمسي، وتُلقى عليهم الأسئلة أثناء ذلك.

كانت اللغة الإنجليزية هي المشكلة، إذ تقدم لنا عدد كبير من الشبان ذوي الوسامة، وعدد كبير، كبير جدًّا من الفتيات الجميلات، وبعض الشخصيات الأكبر سنًّا مع من يماثلهم سنًّا من الإناث، وكانت الأسئلة تدور دائمًا على غرار واحد:

«اسمك؟».

«في كم فيلم اشتركت؟».

«أي دور تظنه أنجح أدوارك؟».

وفي زحمة الأسئلة التي كانت تُلقى عادةً بسرعة كبيرة، ظهر بجلاء أن اللغة الإنجليزية كانت ضعيفةً بصورة محزنة، بل لم يكن لها وجود في الواقع، وكانت الجملة الإنجليزية الصحيحة الوحيدة التي لم تتغير هي «لا أستطيع التحدث بالإنجليزية».

وكنا نستفسر: «أين درست الإنجليزية؟».

«بالمدرسة – نعم».

«كم عامًا قضيتها بالمدرسة؟».

«ستة أعوام».

«ستة أعوام؟».

ويعقب ذلك إيماءة بالإيجاب. ولم نحاول الابتسام أثناء تكرار هذه السنوات مرات ومرات. وقال بعض الشبان. وكان أقل الممتحنين معرفةً بالإنجليزية: «عشر سنوات».

وحاولنا أن نكرر بعض كلمات ونتفًا من الحوار بالإنجليزية؛ لأن الأذن الجيدة قد تساعدك في تعلم الحوار بالإنجليزية. فكانت تصادفنا أحيانًا الأذن الجيدة، ولكنها لم تتوافر في معظم الحالات..

وقلت في سري أنصح نفسي: «عندما أصور فيلمًا في المرة القادمة، يجب أن نلتزم البلاد الناطقة بالإنجليزية..».

وعندما كان يظهر آخر الأمر ممثل يجيد الكلام بالإنجليزية، لم نحاول قبوله لمجرد إجادته الحديث بها؛ إذ إن هناك مستلزمات أخرى. وهكذا مضت الأيام دون أمل كبير، وكذلك دون يأس تام. وفي نفس الوقت لم نترك مسألة المدير المساعد تموت، وأخبرنا مدير الإنتاج في صباح أحد الأيام أنه لا بد لنا من مقابلة المدير الياباني. وكان تأثري بمدير الإنتاج يتزايد يومًا بعد يوم لكفايته وتهالكه المزمن على العمل، إذ لا بد له من إنتاج فيلم كل أسبوع للشعب الياباني المتعطش إلى السينما. فكانت قائمة أعماله ثقيلةً لا تحتمل، وأكد لي أن وطأتها لن تخف حتى يتقدم التليفزيون، فتتهيأ بذلك المنافسة الحقيقية. وقال إن شركات الأفلام عندئذ ستضطر إلى إنتاج أكثر جودةً، وإن لم تكن كثيرة العدد. ويبدو أنه لم يتوقف عن العمل أثناء اهتمامه بموضوعنا، بل استمر في محادثاته مع المديرين ومع كل شخص، فكان يظهر دائمًا المرة بعد

الأخرى بقميصه مجردًا، يلمع وجهه الممتلئ بقطرات العرق على الرغم من عمله في غرفة مكيفة الهواء. ولا شك أن وجهه كان وسيمًا للغاية عندما كان شابًّا، وفقًا للوسامة اليابانية التقليدية، أي قبل أن تترك الخمر وما يتصل بها أثرها على وجهه الذي أصبح غليظًا للغاية، وعلى ما تحت عينيه من انتفاخ، ومع ذلك كان وجهه يشرق بسهولة عند الضحك، وكانت ضحكاته كزئير الأسد، وكان يطرح ويتحدث باللغة اليابانية، وتقوم مترجمته –وهي من أجمل الفتيات– بتلطيف حديثه دون أن تفقده قوته. وهي على جانب كبير من المهارة، ولكني ظللت لا أعرفه على وجهه الصحيح إلا فيما بعد.

وأرشدونا في عصر أحد الأيام إلى مكتب آخر حيث أفهمونا أن ننتظر مقابلة المدير الياباني المقترح، فانتظرنا. ودخل بعد خمس دقائق أو نحوها، وكان يبدو غامضًا كأنه «ستوكوفسكي» ياباني، ولكنه أكبر. كان وسيمًا بالنسبة إلى سنه، وقد أزيح شعره إلى الخلف، وتجلت الكبرياء على وجهه وانحنى انحناءةً قليلةً، ولاحظت البرودة تزحف على وجه المدير الأمريكي. وكان هناك شابان على وشك أن يقدما لنا مشهدًا. وجلس المدير الياباني الذي يجيد الإنجليزية كما يجيدها مدير الإنتاج، ولكنه كان على شاكلته لا يريد التحدث بها. وأوضح المدير الأمريكي أنه يرغب في أن يقوم الممثلان بمشهد بين «تورو» وبين «يوكيو»؛ وهما الشخصيتان الأساسيتان في «الموجة الكبرى»، وأمسك المدير الياباني بقلمه، وبدأ يكتب ما ينبغي أن يكون عليه المشهد في رأيه، وحاول المدير الأمريكي بوساطة المترجمة أن يوقف ذلك على أساس أنه لا يريد

تقييد المشهد، بل تركه مائعًا. ولكن الياباني أسكتها بتلويحة متغطرسة من يده، وومضت عينا الأمريكي بالعنف، ونبه على المترجمة مرةً أخرى قائلًا: «من فضلك، قولي لهذا السيد إنني لا أريد أن يكتب هذا المشهد، بل أريد أن يرتجله الممثلون ارتجالًا».

وبذلت المترجمة جهدًا ما، وقد أخافتها شهرة المدير الياباني وتشامخه، وهنا تعود موجة الملكية العاتية وسيطرتها مرةً أخرى!! واضطلع الأمريكي بالعمل. وعندما انحنى الياباني ليعطي الورقة التي تحمل تعليماته الخاصة للمثلين، نحاها الأمريكي جانبًا وهو يقول في لغة إنجليزية صارمة: «لا أريد أن يكون بأيديهم تعليمات مكتوبة».

وسادت الممثلين لحظةٌ من الصمت المخيف، فأيهما يطيعان؟ وقرروا في النهاية أن يصدعوا لأمر الأمريكي، وجلس الياباني وقد أسند ظهره وبدا مخيفًا، وعرفت ما سوف يكون، ولكني عرفت أيضًا أن ذلك يجب أن يُؤجل حتى نعود إلى الفندق. واستمسك الأمريكي بخلق كامل أمام الحاضرين، ولكن حين انتهى المشهد -وكان أقرب إلى الإجادة إذا أدخلنا في حسابنا ذلك الجو المتوتر- نهضنا واقفين، ثم انحنينا للمدير الياباني ولغيره من الحاضرين ثم انصرفنا، وكانت المترجمة معنا في السيارة، ولذلك لم ننبس بكلمة، ومع ذلك فلدى خروجنا من السيارة أمام باب الفندق، قال لي الأمريكي وهو يكز على أسنانه: «أريد التحدث معك قبل أن يبدأ كل شيء».

فأحنيت رأسي لما لا مفر منه، وقلت: «حسن جدًّا، فلنتحدث الآن في حجرتي، وسأستقبلك في مدى خمس عشرة دقيقة».

وكنت بحاجة إلى دقائق قليلة لأعد نفسي لعذاب المناقشة مع الممثل الأول «البريما دونا»، هل أصفه بالممثل الأول مهما كان مفهوم العبارة في القاموس، فهي تعني في الحياة الواقعية الشخص الذي يدور حول ذاته، ولا يكون أنانيًّا بالضرورة أو محبًّا لذاته، أو معجبًا بنفسه كل الإعجاب، ولكنه لا شك يجعل نفسه نواة وجوده. وهناك نوعان من المديرين بوجه عام: مدير الممثلين، ومدير المدير. ومدير الممثلين هو المحبوب من الممثلين إذ يتودد إليهم ويسحر لبهم وينصاع إليهم ويتملقهم، ويربطهم بنفسه عاطفيًّا، حتى يبذلوا قصارى جهدهم في سبيل مرضاته، وهو يُسمِّي هذا «تنمية مواهبهم»، ثم هو يدمرهم أيضًا، إن عاجلًا أو آجلًا، وبخاصة إذا لم يحلوه من الرباط العاطفي الذي أوجده فيما بينهم. وهو يتوقع لهذا الرباط أن ينحل حالما تفتتح التمثيلية أو يصور الفيلم؛ لأن العاطفة آنئذ تكون قد استنفدت الغرض منها، ويصيبه الحنق إذا لم يفك إساره. وتبلغ الغفلة ببعض الممثلين بل وبالممثلات -إن تحرينا الدقة- حدًّا ينشدون معه استمرار هذا الرباط، الذي إذا ما انقطع، فإنهم ينهارون وقتًا ما على الأقل. مع أنهم يعتمدون عليه إلى هذا الحد في النواحي العاطفية، فإنهم يواصلون الحديث عنه بإعزاز، بوصفه مدير الممثلين. أما مدير المدير؛ فيتحاشى من ناحية أخرى استخدام العاطفة كأداة لتقدم الممثل أو الممثلة، فهو يعرف ما يريد، ولا صلة له بعملية «التقدم» فهو يرشد الممثل إلى ما يجب عمله بالضبط على أساس الفن وموضوع القصة، ويجب على الممثل أن يمثل وفقًا لإرشاداته، والمديرون اليابانيون -دون استثناء- فيما أعرف من الفريق الأخير.

وسمعت عندما بلغت هذه النقطة من تحليلي طرقًا على بابي، ودخل المدير الأمريكي وعليه ما يُطلق عليه صمت التشاؤم. فجلس، ثم أخذ يبين كعادته بعض الأخطاء الصغيرة التي ارتكبها أثناء النهار، صغيرةً كانت أم كبيرةً، فلا أهمية لذلك؛ لأن الأخطاء أصبحت آنئذ أخطاءً جسيمةً، وقد ارتكبتها أنا جميعًا.

وقال مستفسرًا في دقة تدعو إلى الخوف، وعيناه تصوبان إلى وجهي نظرات حادةً: «لماذا حييت الياباني كما لو كان صديقًا قديمًا؟ لماذا أزجيت له الشكر وقلت من الخير أن يقدم لنا معونته؟».

وتمتمت بشيء عن التأدب الذي تقتضيه العادات اليابانية وما إلى ذلك، ولكن شيئًا لم يستطع أن يوقف ما لا بد من حدوثه، ولم يتردد..

وقال، وكنت أعرف ما لا بد أن يقول: «لا بد أن أخبرك، أنه ما لم ينقل هذا المدير الياباني حالًا، فسأعود إلى نيويورك».

والتزمت الصمت.. أينقل الياباني بعد أن دعاه مدير الإنتاج؟ لقد كان من الأيسر أن نطلب إليه نقل جبل فوجي من بين مناظر اليابان الطبيعية!

وتابع الأمريكي حديثه في لهجة جافة: «لا يمكن أن يوجد إلا مدير واحد، إما أنا – وإما واحد غيري».

وشعرت كأن السماء أطبقت عليَّ فسحقتني، ونزلت بي الضائقة التي كنت أخشاها، وأؤمل أن يخفف الزمن وطأتها، وتفاءلت إلى حد الغفلة، أما الآن فقد أصبحت يائسةً، فلم أكن مناضلةً قويةً في أي وقت من حياتي، فإذا ما ووجهت بمعركة حاولت دائمًا اتباع المثل الصيني

القديم الصادق «الهرب خير وسيلة للنجاة من ست وثلاثين طريقة»، والأمر الذي كان يحيرني آنئذ هو عدم وجود مكان أهرب إليه، وإذَنْ فلن أستطيع الهرب.

ونهضت من مقعدي، وكان النهار قد تصرم وأوشكت الساعة على السادسة، فوددت لو أنني طلبت فنجانًا من الشاي الياباني الأخضر الذي أدمنته لأرشفه، ثم أقرأ قصةً يابانيةً طويلةً أثناء انتظاري حتى يحين وقت العشاء، ولكن لم يكن هناك احتمال لشرب الشاي أو قراءة القصة، وفكرت في أسوأ حل وأكثره ازعاجًا، فقلت: «فلنذهب إلى مدير الإنتاج الآن، ولنخبره بذلك».

وظننت أن المدير الأمريكي سيقدر لي شجاعتي، ولكن كأني قلت هيا نذهب إلى حديقة الحيوان للبحث عن أضخم السباع وأشدها ضراوةً لنلوي ذيله. ولم يُبْدِ أي علامة من علامات التقدير، بل نهض واقفًا فسرنا معًا، تتبعنا المترجمة على استحياء، وقد امتقع وجهها حين شرحنا لها وجهتنا.

وقالت لاهثةً: «إن المدير الياباني رجل ذو منصب كبير، وكذلك مدير الإنتاج».

وجاء دوري في امتقاع اللون، وبدأت أبغض هذا المدير الأمريكي إلى حين.. لماذا استجبت إلى هذه الفكرة، فكرة إنتاج فيلم في اليابان؟ ولكن كنت آنئذ في اليابان.. وكنا قد دخلنا المبنى وصعدنا بالمصعد وأخطرنا عن وجودنا بباب مكتب مدير الإنتاج، وقلنا يجب أن نقابله قبل أن يذهب. وبدت الدهشة على الفتاة الجميلة، وأشارت على أن مدير

الإنتاج مشغول إلى حد كبير، وما إلى ذلك، ولكننا قلنا إننا سننتظر، فأدخلنا، وجلسنا. وقد تجاهلنا مدير الإنتاج، وكان يجأر في أحد التليفونات ثم في الآخر، ولاحظت بجهالة أن جميع التليفونات زرقاء باهتة في غرفة ذات لون أخضر، وأحصيت عدد الأزرار على ظهر الفتاة الجميلة أثناء حديثها في تليفون آخر نعيد ما يجأر به مدير الإنتاج، ولكن بصوت لطيف، وقدم لنا الشاي الأخضر، ولكني لم أقوَ على شربه خشية أن أغص به.. ومضت خمس دقائق طوال.. عشر دقائق بصرف النظر عن الساعات، استرخى مدير الإنتاج بجسمه الضخم في حلقة من حلقات المقاعد وتحدث بصوت غاضب أجشّ إلى المترجمة، وقد فهمت تمامًا أنه يسألها بطريقته الخاصة عن سبب وجودنا هنالك بحق الشيطان.

ودهشت أنا نفسي، وتمنيت لو لم أكن موجودةً، ولكن لمحة خاطفة إلى جانب وجه الأمريكي كانت كافيةً للقضاء على السؤال والجواب، وبدأت أؤكد لمدير الإنتاج -كان يعرف كل كلمة إنجليزية قلتها، وإن كان قد ادعى الجهل بها تمامًا- أن رغبته في مساعدتنا قد أضفت علينا شرفًا، ولكنا تحت الظروف الراهنة، ولأن المديرين هم المديرون صغارًا كانوا أو كبارًا على السواء -ثم أخذت أدور وأتعرج بالحديث على أمل أن أتحاشى النتيجة النهائية لحديثي، أي اللحظة الحاسمة حين اضطر بصورة ما إلى القول بجفاء إننا لا نريد المدير الياباني- أي أن المدير الأمريكي لا يرغب فيه- أي أنني واثقة من أن مدير الإنتاج قد فهم مدى الارتباك الذي يلاقيه مدير أمريكي يقوم لأول مرة بعمل فيلم في اليابان، حين يقول لمدير أكبر منه، مدير يتمتع بهذا القدر من الاحترام، وغير

ذلك... وقد رأى المدير الأمريكي أن مثل هذا العمل سيكون مستحيلًا، بل مجرد التفكير فيه، ناهيك بارتباك الممثلين الذين سوف لا يعرفون أيهما ينبغي أن -.. وقس على ذلك...

وكافحت المترجمة لتقبل تلعثمي، كما عرفت أن مدير الإنتاج قد فهم تمامًا ما أتلمس الوصول إليه، فحسم تلعثمي وعملية الترجمة، فضرب ركبتيه السمينتين بيديه الكبيرتين الجميلتين وصرخ فينا، وباللغة الإنجليزية!!

«إن المدير الأمريكي لا بد أن يكون قويًّا! والمدير الأمريكي لا بد أن يقول لكل شيء أصغ إليَّ!».

وضرب على صدره الشبيه بالبرميل؛ لكي يوضح كيف يجب أن يتصرف المدير الأمريكي، ومع ذلك لم يتحرك الأمريكي، وقال بهدوء مخيف: «إنني أعرف كيف أتصرف مثل هذا التصرف في بلادي، ولكني لا أتصرف على هذا النحو في اليابان... لا بد لي أن أطلب تنحية المدير الياباني».

وتفرس الرجلان كل في الآخر، ولا أقول حدجه بنظرة، ففتحت حقيبة يدي، وأخرجت المروحة الصينية التي أحتفظ بها لمثل هذه الطوارئ. وعلى الرغم من أن الحجرة كانت لطيفة الجو، فقد رأيت الترويح بها أمرًا ضروريًّا، وحاولت أن أصرف تفكيري إلى شيء آخر بعيد سار، مثل جبال فرمونت كما تُشاهد من حجرة جلوسي هنالك.

وسمعت زفرة أسف عالية.. كانت زفرة مدير الإنتاج الذي نهض، وأخذ يسير متخطلًا حول الحجرة وهو يدعك رأسه بيديه ويهمهم،

وباللغة الإنجليزية قائلًا: «إنني أخشى حدوث شيء كهذا ... آه، نعم يا سيدتي!».

وجلس يتدبر الأمر، إنني أعرف الرجل الياباني، وفهمت أنه مهموم غاية الهم، وذلك أن واحدًا منهما لا بد أن تناله إهانة، ولا يمكن أن يُهان ذلك المدير الياباني العجوز الشهير، ولا يمكن كذلك بوصفنا أجانب لا نعرف كل شيء عن الموقف، أن تنالنا إهانة. ثم رفع رأسه وألقى عليَّ نظرة عتاب كأنها تحمل لي قوله، إن أنت التي تعرفين أكثر مما يعرف الآخرون، وكان ينبغي أن توفري عليَّ هذا.

وهمهمت من وراء مروحتي قائلة: «إنني آسفة جد الأسف، ولكن ماذا أفعل؟ فإذا لم أوقفك على جلية الأمر، وإذا كنا قد سرنا في التقاط الفيلم لكان الأمر أكثر إزعاجًا».

وتأوه قائلًا: «آه، حقًّا -من الخير أن نتغلب على هذه المشكلة».

ثم عاد إلى اللغة اليابانية، ولم يستطع أن يتكلم الإنجليزية أكثر من ذلك، فقال للمترجمة: «أخبريني أنني سأقابلهم غدًا... إنني مشغول، ولكني سأقابلهم». ثم أدار لنا ظهره حالما استطاع ذلك، وعدنا نحن إلى الفندق.

وقلت للأمريكي: «لقد أنجزنا مهمتنا على الأقل».

ولكنه أبى أن يبدي سرورًا، بل قال في تجهم: «لم نر الخاتمة بعد».

وظهر لي في اليوم التالي أنه كان محقًّا، فقد رجع إلى «الأستوديو» واستأنف اختيار الممثلين، وجرى كل شيء كاليوم السابق، سوى أننا لم

نر مدير الإنتاج الذي كنا نعتمد عليه في كل شيء، ودخلت الممثلات الجميلات. قلن إنهن قضين ست سنوات في دراسة اللغة الإنجليزية، وصرحن بأنهن لا يستطعن التحدث بالإنجليزية، ثم تركننا ثانيةً. ودخل شاب وسيم فكرر نفس العبارة. وسررنا كثيرًا من ممثل أكبر منه سنًّا يستطيع القيام بدور والد «تورو»، ويجيد الحديث بالإنجليزية إجادةً تامةً. ولم يظهر مدير الإنتاج طوال هذه الفترة، وعندما سألنا إحدى الفتيات الحسناوات، ذهبت ثم عادت لتقول لنا إنه يستطيع مقابلتنا في الإدارة بالمدينة في الساعة الثانية، وإنه مشغول.. إلخ، وقدمت لنا شطائر لذيذةً من قديد اللحم البارد –وكان طعامنا في اليوم السابق لحم بقر، أما اليوم فلحم خنزير متبل.

وإنني لأتمهل هنا لأقول إن لحم البقر في اليابان من أبقار كوبية تشرب الجعة، ويدلكها بالأيدي كل يوم متخصصون من رعاة البقر. وهو لحم طري يفوق في مذاقه أي لحم بقري ذقته في حياتي.

وفي نحو الساعة الثانية كنا في مكاتب الشركة بالمدينة، ولم يظهر مدير الإنتاج في أفق ذلك اليوم ولا في أي يوم آخر، فأصبح الأمريكي حانقًا، وأصبحت أنا مستسلمةً. وكانت الفتيات الحسناوات يخرجن مسرعات، ثم يعدن ليخبرننا أن مدير الإنتاج سيقابلنا في الساعة الخامسة غدًا أو بعد غد، ومعنى هذا أن البت في الاختيار الذي أجريناه على ممثلينا سيتأخر، الأمر الذي لا نستطيع احتماله، فرجعنا إلى الفندق، وشكوت بالتليفون لصديقتي الحميمة، وكان التفكير في النوم أو الطعام شيء غير مجد؛ إذ كان مدير الإنتاج قد تخلى عنا. وطال انتظارنا، ثم

طلبتنا صديقتي، وفي هذه المرة واجه الأمريكي قسوة المعركة بنفسه، وأوضح موقفه دون تبديل ولم يترك مجالًا للتبديل، وأستمع إلى إجابتها فانبسطت أساريره لأول مرة منذ يومين، واستنتجت من ذلك أن مسألة المدير الياباني قد تقررت، إذ طلب إليه أن يتنحى، وقالت صديقتي إن كل شيء سيجري على أحسن حال.

ولكني شعرت فيما بعد بفقدان شهيتي أثناء تناول عشائي وحيدةً، على الرغم من وجود سَلَطَة لحم الكبوريا اللذيذ أمامي، وثارت في نفسي فكرة مفزعة هي صدى من أصداء الماضي، ماضيَّ في آسيا.. لم يكن كل شيء على ما يرام –لم يكن تامًّا، كاملًا، فالانتصار دائمًا بثمن. أما ماذا سيحدث، فلم أعرف عنه شيئًا، ولا أزال لا أعرف.. إنه دين لم يدفع بعد، ولكني لا أملك إلا أن أؤمل أن مدير الإنتاج سوف لا.. لا ماذا؟ إنه لمن المحتمل كثيرًا ألا أعرف مطلقًا... ومهما كانت الحال، فإن القصة قد انتهت ليومها.

* * *

في نهاية اليوم، وكل يوم، أعود إلى لا أحد! فبعد المشكلات التي تُحَل والتي لا تُحَل، وبعد مجيء أناس كثيرين وذهابهم، وبعد الشك والقلق بين إثارة الكشف والمشاركة في الضحك، وتزايد الإخلاص للعمل، ينتهي كل يوم بنفس النهاية، فأرجع إلى حجرتي بالفندق، وأفتح الباب، ثم أغلقه دوني... فأجد الأزهار نضرةً وجو الحجرات لطيفًا، والرسائل مكومةً على المائدة –رسائل من لا أحد. أما الرسالة الوحيدة التي أصبو إليها، فلم تكتب قط؛ لأنه مات... ولم أفتح بقية الرسائل،

فلتنتظر هذه الرسائل عودة سكرتيرتي اليابانية. كنت أضطر إلى العمل لتستطيع هي أن تعمل أيضًا. كانت الدعوات كثيرةً، ولكن تلبيتها لم تكن تسعدني، إلا أن قلةً منها يجب أن ألبيها، وهي تلك التي التي تتصل بالآباء المحزونين القلقين، آباء الأطفال المتخلفين، ثم دعوات قليلة أخرى من أصدقاء قدامى تربطني بهم مودة قديمة. وانتهيت إلى عادتي القديمة، عادة طلب إرسال عشائي إلى حجرتي حيث أتناوله وحيدةً، وبذلك لم أكن مضطرةً إلى الابتسام إلى الغرباء الذين يتقربون إليَّ بالأسئلة والثناء، فإذا ما هبط الظلام تصبح الحياة فجأةً عاطلةً من كل معنى.

ومع ذلك لم أكن ضجرةً مع نفسي، إذ عرفت بالتجربة أن الزمن ضروري؛ لكي يستوعب كيان المرء أحزانه، وحالما يتم هذا التغير يبدأ النمو مرةً أخرى، وتظهر حياة جديدة. ولقد حدث هذا بسرعة كبيرة، وكنت أظن من المحال أن أجلس وحيدةً في حجرات الفندق، ولو كان معي، لكان هذا أسعد شطر من النهار.. لقد كان الحال كذلك دائمًا. لقد كنا نضطر إلى قضاء فترة طويلة من حياتنا مفترقين أثناء النهار؛ لأن لكل منا مهنته وعمله، ولكن كم كنا نتطلع في شوق إلى المساء، وإلى أي مدى كنا نذهب في قضائه معًا!! كما نذهب معًا حينما كان علينا أن نذهب. وكنت أستجيب إلى مطالبه الضرورية، كما كان هو يستجيب إلى مطالبي، معتمدين على الأهمية التي نلمسها في كل مناسبة. ولم نضع خلال الخمسة والعشرين عامًا من حياتنا الزوجية ليلةً واحدةً مفترقين، إلى أن أصبح لزامًا عليه أن يحيا ويعمل في البيت كل الوقت، وحتى آنئذ كنت أرفض الدعوات التي تضطرني إلى قضاء الليل بعيدة عنه، إلا

حين تعطل إدراكه عن التمييز بين وجودي معه وغيابي عنه، وحين لم يعد يعرف أن كل شيء تغير إلا الذكرى.

لقد صرفت النظر عن الزمن الذي فقد فيه الذاكرة، وحين كنت أفكر فيه، إنما كنت أفكر فيه كما عرفته، نشيطًا مرحًا منوع التفكير والحديث إلى غير حد، متحيزًا في بعض الأمور إلى درجة لا تبارى كما اعتدت أن أعبر عن ذلك بشدة عندما نختلف، وكان يبتسم ويسلم بالاتهام في غير مبالاة بتغير حاله، ولكنه كان يعرف أنني لا أريد منه أن يتغير. ومهما كانت الحال فقد كان يجري على سجيته، وكنت أحب منه ذلك. فمثلًا لم يكن يستطيع أن يدق مسمارًا دون أن يهرس إبهامه، ولذلك كان يرفض بلباقة أن يدق مسمارًا، ولا يأكل طعامًا لا يشتهيه مهما كان هذا الطبق مفيدًا له. وقد نظم نفسه في نفس الوقت من حيث مقدار ونوع ما يأكل، وإذا تكلم فلا يقاطعه أحد منا، لقد كان الأب كما كان الزوج، ومع ذلك كان يرفض أن يشترك بأي قسط في تنظيم عائلتنا الكثيرة العدد. وأنا نفسي لم أكن أجيد تدريبهم على النظام، وانخرط في الضحك من «شقاوة» الأطفال إلا حين أكون غاضبةً، في حين أن جو التهذيب يجب أن يخلو من الانبساط والغضب على السواء. ولقد أجمع معلمو أطفالي التسعة على نقد واحد كانوا يوجهونه إلينا في حينه أو بعد وقت ما، ولكنه كان يوجه إلى شخص بنوع خاص؛ لأنه لم يكن يحضر اجتماعات الآباء والمعلمين، فاضطر إلى حضورها وحدي، ولا يخرج هذا النقد عن: «إنكم أفسدتم أطفالكم».

ولم أكد أملك غير التسليم بذلك، إذ كيف يكون الأمر غير هذا ما دامت لهم أم تضحك بهذه السهولة، فإذا لم تغضب بسهولة فهي رغم

ذلك حين تغضب تكون من سعة الصدر، بحيث ينظر إليها الطفل في دهشة ظنًّا منه أنها لا تعني ذلك. أما بالنسبة إليه، فقد كان مدى اشتراكه في التهذيب أن ينظر إلى الطفل نظرة استنكار هادئة، ثم يلتفت إليَّ، ويفاجئني بملاحظة مباغتة، بحيث لا أحير إلا إجابةً واهيةً:

فيسألني: «أتسمحين بمثل هذا العمل؟».

وأسأله بدوري: «وهل تسمح به أنت؟».

ويعقب ذلك الصمت. ويلوذ الطفل بالعزلة أثناء صمتنا هذا، ثم يستكين عادةً بعد دقائق طويلة في محاولة الاحتفاظ باستقلاله. وعندما أنظر الآن إلى أطفالي هؤلاء أنفسهم لا أستطيع إلا أن أقول بقدر ما أعرف إنهم أصبحوا خيرًا مما كانوا، أي ليس بينهم جانح أو نزيل سجن، ولا يزال هناك بطبيعة الحال متسع من الوقت، ولكني أشك أنهم سيبلغون هذا الحد.

أكنت عادلةً تمامًا إزاءه بوصفي مربيةً؟ قد لا أكون كذلك، إذ كان هناك جرم واحد لم يكن يتسامح فيه إزاء أي طفل من الأطفال، وهو أي عمل أو لفظ يرى فيه دلالةً على عدم احترامه لي، فإن تصرف طفل مثل هذا التصرف، فإن رده يكون سريعًا ثابتًا ومدويًا.

فيقول له: «ألا تعلم أن أمك هي أعظم شخص في الدنيا؟».

لقد كانت سخافة هذه الملاحظة توهن من قوتي، وتتركني في حيرة يدركها الأطفال، ويتألمون معي، وبخاصة أنهم لم يتعمدوا قط الانتقاص من احترامهم لي. وكانت تلذ لي المناقشة الحرة والاختلاف اللطيف، ولكن ثورته كانت تقتل الصلة، فإذا كنا جالسين إلى المائدة فإن شهيتنا

تخذلنا ونلوذ بالصمت، ولا أعرف رأيه في هذا الصمت؛ لأنه لم يكن يسمح بأي احتجاج أو جدل في موضوع الاحترام الذي يجب أن يؤدي إليَّ، حتى مني نحو شخصي أنا!

أما عني، فقد كنت أطيعه طاعةً تامةً، وذلك لسببين: أولًا أنني قضيت حياتي في الصين إلى أن تقابلنا، حيث تعلمت أن المرأة يجب أن تطيع الرجل إذا أمكن. وثانيًا لأنني كنت أجهل بلادي جهلًا مخزيًا، إذ ولدت متأخرةً بعد زواج والديَّ اللذين عاشا في الصين عشرات السنين قبل أن أظهر في حياتهما، وكانا شابين عندما غادرا الوطن. كان والدي في الثامنة والعشرين ووالدتي في الثالثة والعشرين وحسب. وكانا واسعي الخيال مستنيرين، وقد بلغا نضجهما بين أحضان الثقافة الصينية، والمجتمع الصيني، لا في ثقافتهما الخاصة أو مجتمعهما الخاص.

وعندما عدت لكي أعيش نهائيًّا في بلادي وتزوجنا، هو وأنا، قال لي إن من بين متعه الأخرى في الزواج مني أنني كنت من الجهل بحيث يستطيع أن يقص عليَّ جميع المُلَح الأمريكية القديمة، وكانت هذه جديدةً بالنسبة إليَّ، وقد صدق في هذا، وكان يجب أن يعيش؛ لكي يقص عليَّ في كل لحظة شيئًا جديدًا، فأستغرق في ضحك عميق.

وقد اتخذت الأسرة قرارًا عائليًّا خاطئًا مرةً واحدةً فقط، وإنني لأدرك الآن أنه كان ينبغي لي مخالفته لأسباب عملية، وكان محقًّا حتى في هذا القرار من ناحية المبدأ وهو: أنه لم يكن يعتقد في جدوى قيام الأطفال بواجباتهم المدرسية في المنزل، وأنه إذا كانت المقررات مخططةً بعناية وحذفت منها كل التوافه، وكل ما من شأنه ضياع الوقت، فإن كل

الواجبات المدرسية يمكن إنجازها أثناء ساعات الدراسة. وكان يعتقد أن الحياة العائلية يجب ألا يفسدها في الأمسيات قيام الطفل بإنجاز واجباته المدرسية بالمنزل. وكان كالمعتاد يستنكر ما يجهله، ولم يكن تعليمي وفق نظام المدرسة الأمريكية، ولم أكن أعرف شيئًا أفضل من أن أوافقه، ونجم عن ذلك أننا كنا نستمتع معًا في أمسياتنا بالموسيقى والألعاب، والقراءة بصوت مرتفع، ولكن ظهر نتيجة ذلك للأسف في تقارير الأطفال المدرسية، ويجب أن أعترف أنني اعتبرت المدرسة بوجه عام أقرب إلى تزجية الوقت منها إلى العمل، وأكرر القول بأنه كان يجب عليَّ مخالفته، وكان ينبغي أن أجمع الأطفال حول المائدة الكبيرة في المساء، وأشرف على أداء واجباتهم المنزلية؛ حتى يشبوا على قدر يستطيعون معه الاضطلاع بالمسئولية تجاه أنفسهم.. ومع ذلك فماذا كان يمكن أن ينتهي إليه مصيره في تلك الحالة؟ أمسيات موحشة وحرمان من الذكريات المسائية الهانئة... إني لسعيدة أنني عشت على الصورة التي عشتها.

* * *

في ذكرى كهذه، نصف باسمة ونصف باكية، عدت إلى سابق عهدي بسهولة كبرى، وكان من الضروري أن أرعى أمر نفسي، ولذلك عندما فرغت من تناول العشاء، ورفعت الخادمة اليابانية بقايا الطعام وهي جازعة لتركي صحفتي نصف فارغة، أخذت أتجول في شوارع طوكيو، وكنت أتردد كثيرًا على الـ «جنزا» والسوق وأماكن اللهو التي كان يتسلى فيها مختلف الناس الذين يأتون للتمتع بالمناظر المزوقة، حيث الأعلام والفقاعات (البالونات) والأزهار المصنوعة من الورق من كل لون مدلاة

من أفاريز الأسطح تسبح فوق الشوارع والمتاجر. وكان العارضون يعرضون في الطريق العام بضائعهم الكثيرة، والسيارات الأمريكية، وهي دليل الثراء، تقف في الانتظار بالقرب من أرصفة الشوارع، والسائقون يصقلون «كروم» السيارات، بينما يقوم سادتهم بالبحث عن اللعب والحرير والمجوهرات، وتندفع الدراجات بجنون بين جموع الشعب، ويطقطق النساء بالقباقيب اليابانية الخشبية، وقد حزمن أطفالهن إلى ظهورهن بسيور من الجلد.

وكان أبرز من كل ذلك، هؤلاء الشباب من الرجال والنساء الذين يتجولون وقد أمسك كل منهم بيد الآخر في سعادة لاهية، إما للشراء من المحال التجارية، وإما لمجرد التجوال. وقد اقتضى التعود على رؤية الأيدي المتشابكة وقتًا ما في اليابان الحديثة... إنه شيء تمامًا لأن المحبين اليابانيين كانوا يتقابلون قديمًا في السر، ويتسلقون البراكين، ويقذفون بأنفسهم في فوهاتها الملتهبة إشارة إلى عمق حبهما اليائس. أما في الوقت الحاضر فيسيرون متشابكي الأيدي في الـ «جنزا»، أو يتنزهون في المناطق الشهيرة التي كانوا يومًا ما يرتكبون فيها جريمة الانتحار معًا. فهل تغير الآباء، أم أن الشبان قد تعلموا المطالبة بحقوقهم؟ لا شك أن الآباء قد نالهم شيء من التغيير، إن النكبات الأربع الكبرى التي أحاقت باليابان القديمة، إذا صدقنا اليابانيين القدماء هي: «الزلازل والنار والفيضانات والآباء». ولا تزال الزلازل والنيران والفيضانات مصدر فزع، ولكن ما هي قصة الآباء؟

لا شك أن هناك تغيرًا حدث في الآباء، ولكن أعظم تحول نال

الأمهات، فلم تكن هناك أم في اليابان القديمة تحلم بالسماح لابنتهما أن تسير في الـ «جنزا» أو في أي مكان آخر ويدها في يد شاب، ولم تكن فتاة تحلم بعدم الطاعة، ولكن ينبغي أن أعد هذا التغير الذي أصابته المرأة، تغيرًا متدرجًا، قطرةً قطرةً، وهو تدرج عميق شامل.

أما عن الـ «جنزا» فعلى الرغم من أن السلع كانت مدهشةً جذابةً وجميلةً أحيانًا، فإن الناس كانوا هناك مسلاتي -مسلاتي أينما تجولت، ويرجع إليهم الفضل في هربي من نفسي. فإذا ما انتصف الليل وتفرقت جموع الناس- لأن اليابانيين ينامون في وقت مبكر، فيما عدا السادة رواد المشارب- كنت أعود إلى حجراتي بالفندق فأدخلها ثانيةً، وأغلق الباب، وآوي إلى فراشي.

* * *

ذهبت إبان تلك الأيام والليالي العجيبة الغامرة إلى حفل مسائي بمسرح «كابوكي» بدعوة من الممثل الأول، وكانت الفرقة قد عادت من نيويورك بعد عمل ناجح فيها، ولم أكن قد شاهدتها هنالك؛ إذ كان يبدو لي أن مسرح «كوباكي» لا يلائمني لسبب ما، في مدينة هي أحدث المدن جميعًا، وربما لأنني كنت مزمعة العودة إلى طوكيو ثانيةً بين وقت أو آخر. وكانت مسرحية ذلك المساء هي نفسها التي مثلت في نيويورك وهي «الحية البيضاء»، وكنت أعرف القصة معرفةً تامةً؛ لأنها قصة صينية قديمة، والحية البيضاء امرأة اتخذت شكل ثعبان لأسباب في نفسها.

كانت الليلة صافيةً، وشوارع طوكيو مزدحمةً على غير المعتاد، فركبت عربةً، ووصلنا إلى مدخل المسرح، وهو مكان فسيح معلقة به رسوم، مليء

بالمعروضات، غاص بالناس، وكان هناك شخص ما ينتظر مقابلتي، وقد أعلن الممثل النجم أنه لن يبدأ التمثيل قبل وصولي والتقاط صورة لنا معًا، فاصطحبوني إلى ما وراء المسرح، حيث كان واقفًا متخفيًا في زي امرأة «الحية البيضاء» وكان تخفيه متقنًا لطيفًا، عليه مسحة من التشاؤم، إذ ارتدى كومينو أبيض لا أثر فيه لأي لون، وكان لباس الرأس أبيض، أما رأسه وعنقه ويداه فكانت في بياض الثلج، حتى شفتاه كنا لونهما أبيض، وإن كانت حافتاهما الداخليتان قد صبغتا بخطين قرمزيين، والعينان عينا حية، سوداوان متألقتان ينطلق وميضهما هنا وهناك. وعندما رآني مد إليَّ يده، فتناولتها وشعرت ببرودتها ونعومتها في يدي، وعندما أردت انتزاعها، لبرودتها ونعومتها كجلد الحية، تشبث بها، ومن ثم التقطت لنا صورة شمسية وقد تماسكت يدانا، ثم تحدث إليَّ بضع دقائق قلما تحركت أثناءها شفتاه الجامدتان. ودق الجرس معلنًا موعد صعوده على المسرح.

وذهبت إلى مقعدي بالمسرح حيث قضيت ساعات قليلةً في سرور تام. كان المسرح ضخمًا، أضخم من أي مسرح آخر رأته عيناي من قبل، وكان المشهد فائق الروعة. وتركت الحية البيضاء لساعتها تتلوى في هيئة مرعبة رمزية، وسط كتل من الألوان، وضروب من الفخامة، فلم أشاهد هذه المسرحية تمثل من قبل بصورة أقوى وأجمل، وليس هناك في العالم فن، فيما أرى، يفوق مسرح «كابوكي» في قوة التخيل. ولعل ذلك يرجع إلى أن قصص هذه التمثيليات كانت جزءًا من طفولتي، التي أعيشها الآن مرةً أخرى. ومهما كان الأمر، فإن النظارة اليابانيين كانوا في هذا المسرح مستغرقين إلى أبعد حد. وعندما انتهت التمثيلية، خرجنا في صمت حالم.

إن ضخامة المسرح وكثرة عدد الممثلين، وفخامة الملابس والإضاءة غير المألوفة جعلتني أتبين مرةً أخرى التباين بينه وبين مسرح برودواي المزدحم الضيق. إن المسرح هناك ضغط عامًا بعد عام، وتضاءل نظرًا لما يتطلبه فقط عرض المسرحية من نفقات... إن فنًّا عظيمًا يقاسي الاختناق على يد أصحاب الحرف والميكانيكيين في الاتحادات، وقد منح مؤلفو التمثيليات والمديرون والممثلون بعضًا من أرباحهم، ولكن مثل هذه الرغبة لا تتوافر لدى اتحاد العمال. ولقد تجولت بعد انتهاء التمثيلية في مسرح «كابوكي» في ذلك المساء، وتحدثت في هذا الشأن مع أصدقاء يابانيين ونحن نحتسي فنجانًا من الشاي... لقد زاروا نيويورك، ويؤكدون أن المسرح الياباني لا يمكن بحال أن يقاسي مثل هذه المحنة، وقالوا «إنا نحب الفن حبًّا جمًّا، وندرك المزايا الروحية والعاطفية في الفن، بل إن عمالنا يدركون كل هذا، ولذا لن يدمروا مطلقًا مثل هذا الجزء الهام في حياتنا لمجرد الطمع الشخصي».

إنني لأرجو أن يكونوا على حق.

كان قد مضى على منتصف الليل وقت طويل حين وصلت إلى حجرتي بالفندق. وعندما تأهبت للنوم، ذهبت إلى النافذة كعادتي أينما كنت في هذا العالم قبل أن أنام، وتطلعت إلى المدينة الساكنة. كان قمر قديم أحدب معلق في السماء، ينسكب ضوؤه الباهت على الأسطح. وفي هذه اللحظة شعرت مرةً أخرى برجفة الزلزال الباطنة العميقة، بدأت كاختلاجة، ثم ارتفعت إلى حركة مدومة. فسقطت صورة، وانزلقت كتب من فوق المكتب، ووقعت آنية الأزهار، وأحدثت فرقعةً على الأرض،

وتشبثت أنا بعتبة النافذة، وشعرت بقلبي يدق بشدة بين أضالعي، هل كان زلزالًا خطيرًا؟ لا.. لقد عادت الأرض إلى ثباتها مرةً أخرى، ولم يبق غير القمر معلقًا هنالك ثابتًا لم يتغير. وانتظرت بضع دقائق، ثم وضعت الكتب في مكانها، وملأت الزهرية بالماء لترتوي الأزهار.

مضى وقت طويل قبل أن أستطيع النوم، فقد حركت اختلاجة الأرض جذور دنياي المؤقتة، وأدركت في نفسي حاجتي إلى جذوره، وأظن ذلك نتيجة لعهد طفولتي بالصين؛ إذ إنني أحببت تلك البلاد أشد الحب، ويجب أن أبقى على حبها دائمًا، ومع ذلك كنت مدركةً للاضطراب الذي نعيش فيه، وإن من المحتمل في أي لحظة أن تستعر نيران الغضب والتبرم القائمة منذ قرون ضد الشعوب الغربية، وتتحول إلى أزمة قد تهلك فيها أرواحنا، نحن الأفراد الأبرياء، كما حدث لنا من عهد قريب جدًّا أكثر من مرة. ولربما كانت ذكرى الحيرة الماثلة دائمًا في ذهني منذ عهد الطفولة، والتي لا أملك السيطرة عليها أكثر مما تملك ورقة في مهب العاصفة، هي التي تراودني على الدوام، أو لعلها ستظل تراودني إلى أن يعود هو. أما وقد ذهب، فإن حذري الباطن من الخطر قد عاودني مرةً أخرى.

لم تكن تتراءى له مثل هذه الظلال القاتمة، بل كان مبتهجًا في ثبات، مرحًا بالسليقة، لا يتوقع مطلقًا ولا يتوجس نزول نازلة. وإذا اضطره الواقع إلى ذلك، فقد كانت لديه عادة غريبة لحسم الموقف حين يواجهه. وكانت وسيلته أسوأ الاحتمالات جميعًا، ويسجلها بخطه الواضح الرصين، ثم يتناول من مكتبه ساعة والده الذهبية، ويقرر اليوم والساعة

لمهاجمة المشكلة برمتها.. وكان يحدث هذا دائمًا في آخر لحظة ممكنة. وإلى أن تأتي المشكلة، كان يحتفظ بروحه الفاتنة المعتادة، ويجد الحل دائمًا، أو وسيلةً للنجاة على الأقل. فإن كانت الأخيرة، فإنها لا تكون من الوسائل الست والثلاثين الصينية بحال من الأحوال.

وأصبحت أعتمد إلى أبعد حد على عبقريته في تناول الأمور البعيدة الاحتمال لحل ما يتعذر حله والوصول إلى المحال، وكان يتم ذلك دون معاونة الأصدقاء، في حين أن أصدقاءه لا يحدهم الحصر، من أرقى الطبقات وأدناها، وبعضهم من أغنى رجال العالم، وبعضهم فقراء. فالأغنياء لم يساعدوه في الضائقتين الماليتين اللتين مر بهما في حياته وتغلب عليهما وحده بنجاح، والفقراء كانوا يستدينون منه المال دون خجل. ومما كان يثير سخطي على الأغنياء والفقراء على السواء، أنه كان يحتفظ إزاءهما بابتسامة غير مبالية.

كان يقول: «إنهم لا يقصدون أي ضرر».

لقد كرهت الزلزال؛ لأنه يثير في نفسي مخاوفَ قديمةً. وتذكرني المخاوف القديمة بأن مزاحه الحلو الذي لا يتزحزح، وتفاؤله السار، وومضات ضيقه وسخريته الممزوجة بالحنان نحو الجنس البشري، وأهم من هذا كله تسليمه الباش بالحياة كما يراها في لحظته، كل ذلك لم يعد له وجود.

* * *

إن أحدث مسرح إذا قورن بمسرح كابوكي، يصيب المرء بصدمة من خيبة الأمل أقوى مما أستطيع أن أقدر. وقد حدث لي ذلك على هذا الوجه:

ذهبنا يومًا إلى مدير الإنتاج ومعنا قائمة بالشخصيات التي اخترناها، ودخلنا مكتبه تتقدمنا فتاة جميلة، فوجدناه في ذلك الصباح شبه مشغول وموضع تبجيل، أما الرجل الذي كان يمرح في المدينة فقد اختفى تمامًا ولم يصبح له وجود. وقد أجل المقابلة وقتًا مناسبًا ليرينا مدى انشغاله وربما مدى أهميته، في حين أننا عرفناه كثير المشاغل ذا أهمية. وجلسنا ننتظر، وظهر الشاي، ولكن مدير الإنتاج كان لا يزال مشغولًا. ثم اشترك معنا أخيرًا، وسلمناه قائمتنا التي تضم أسماء الممثلين، فأشار مباشرةً إلى اثنين من الأسماء المشكوك فيها. ولم يتمكن فيما يظهر من الحديث بالإنجليزية مطلقًا طوال الصباح، فكانت تترجم له الفتاة الجميلة، وقال إنه يقترح فقط ولا يوجه -وشفع ذلك بنظرة صارمة إلى الأمريكي- ولكن ينبغي أن تقوم باختيار أكثر دقة للرجلين الرئيسين، فوافقناه على الفور، ولكنا ذكرناه بأن الرجل الذي كنا بحاجة إليه أكثر من سواه لم يعط لنا بسبب إصراره. فما سمع ذلك حتى نهض واقفًا، وأخذ يمشي حولنا، ويحك رأسه، ويتأوه عدة مرات بصوت مرتفع. ويتحدث في ثلاثة تليفونات في وقت واحد، ولم يقل شيئًا سوى لا- لا- لا في التليفونات الثلاثة. وسلم تليفونًا رابعًا لفتاة جميلة كانت تجلس وراء مكتبه، وأخذ يلوي شعره بكلتا يديه، ويتأوه مرةً أخرى. ثم خبط رأسه بقبضته، والتفت إلينا بوجه مشرق. لقد كانت لديه فكرة. كان آخر أداء المغنين والموسيقيين اليابانيين لرقصة «روك- آند- رول»، وأنه سيصحبنا إلى هناك لنرى جميع شبان هذه الرقصة، ونختار من بينهم، وأنه سيأمر من يقع عليهم الاختيار بالتمثيل معنا، ولا شك أنهم سيستجيبون له. وقال بصوت مرتفع، وباللغة

الإنجليزية هذه المرة: «إنني منتج كبير».

واتفقنا على وجه سار، ثم اندفع إلى الأمام بشدة كفرس البحر، ولكن بطريقة ودية، وتبعناه لنحشر في سيارات توصلنا إلى المسرح. وهو مبنى ضخم، وأرشدوني إلى مقعد في مقصورة، كان هو المقعد الوحيد والأخير في هذا المسرح الهائل، وكان محجوزًا بطبيعة الحال لمدير الإنتاج نفسه. وأذهلني ما رأيت، إذ اجتمع هناك جميع مراهقي اليابان ممن يناهزون العشرين أو نحوها، وقد يكون هذا ما خيل إليَّ، ولكن لا شك أنهم يبلغون آلافًا مؤلفةً.

جلست وتطلعت إلى المسرح، وكذلك إلى النظارة. الواقع أنها كانت يابانًا جديدةً عليَّ: روك- آند- رول، وروك آند- رول، فتيات راقصات، وصبيان يغنون أغنيات أمريكيةً، وأغنيات غريبةً تُؤدى بالإنجليزية، وقلة ضئيلة من الأغاني اليابانية، والفتيات يصحن، تمامًا كما يفعلن في بلادي، صيحات سخيفة، فما هذه البلية التي أصابت الشباب وانتشرت من بلد إلى بلد؟ ألوف فوق ألوف من الشبان اليابانيين الصغار- آه، صغار جدًّا- من الممثلين في العشرين من عمرهم أو أكثر قليلًا. وفتيات صغيرات جدًّا يرتدين الوزرات والقمصان يخرجن مسرعات من بين النظارة ليعلقن الأزهار والأشرطة المصنوعة من الورق، يحلين بها أحبابهن من الذكور. ولم تغن غير فتاة واحدة تناهز الثامنة عشرة من عمرها بصوت بديع، وسألت مدير الإنتاج: «وما رأي الآباء في هذا؟».

فأجاب: «إنهم مستاءون، ولكن ماذا يفعلون؟».

حقًّا، ماذا يفعلون، سواء هنا أو في أي مكان آخر!

ومع ذلك فقد كانت مهمتنا البحث عن ممثلين، وهبطنا بعد الختام الرائع إلى الطابق السفلي، ودخلنا حجرةً صغيرةً حيث استعرضنا ثلاثة شبان أو أربعة على المسرح مستعينين بنظارات الأوبرا. وكان أملنا فيهم كبيرًا لأنهم غنوا بالإنجليزية غناءً أتحفنا، حتى لقد ظننا أنهم يتكلمون الإنجليزية، ولكن الواقع خيب ظننا، فقد كانت الجملة الوحيدة التي يجيدونها هي هي نفسها: «لا أستطيع التحدث بالإنجليزية»، وإن كُلًّا منهم درس الإنجليزية ست سنوات بالمدرسة. ثم عثرنا على استثناء مستنير واحد، وهو صبي ذو تقاسيم وسيمة يطلق عليه «إيدي فيشر» الياباني، ويتكلم إنجليزيةً سليمةً، وتفسير ذلك أن أمه نصف إنجليزية، وقد تعلم في البيت، فطلبنا إليه أن يعود في اليوم التالي للاستماع.

وبينما كان كل شيء يجري على هذا النحو، لاحظت تغيرًا طرأ على مدير الإنتاج، فقد أخذ يتلطف وفحص مشكلة السنوات الست في دراسة اللغة الإنجليزية، وشعر نحوها باهتمام، ثم دعانا لتناول العشاء معه، وسألنا عما إذا كنا نرغب في صحبته إلى حيث اعتاد أن يذهب، أو إلى مكان آخر أكثر رواء، فقبلنا دعوته بامتنان تمازجه الدهشة، وأخبرناه أننا نرغب في الذهاب إلى حيث اعتاد الذهاب، وركبنا السيارات مرةً أخرى، واندفعنا وسط بحر من الشباب الذين ينتظرون ظهور المغنين المفضلين من باب المسرح. وسرعان ما وقفنا أمام مطعم لا يشبه أي مطعم آخر رأيته من قبل، وتبينت في جلاء أنه لم يكن منتجعًا للسياح، وربما لم يكن من الأمكنة الملائمة للنساء، ومع ذلك لم يفزعني ذلك. واتضح أن مدير الإنتاج كان بيده الأمر في هذا المكان، كأي مكان آخر. والمكان ساحر،

صغير ولكنه نظيف، إذ إن اليابانيين دون سواهم هم الذين يعرفون النظافة، فالموائد والمناضد الخشبية الخشنة المصنوعة من ألواح سمكها ست بوصات، غير مطلية ولكنها في بياض الثلج. وأصدر مدير الإنتاج أوامره بطريقة الشخص الذي تعود أن يطاع، فنفذت أوامره، ووضعت لوحتان من طرف إلى الطرف الآخر، وعين لنا مقاعدنا وكان مقعدي مواجهًا له، وبذلك أتيحت لي الفرصة الكاملة لملاحظة هذا الرجل العجيب.

وظهر آنئذ كأنه رجل جديد، حتى هو نفسه صرح بأنه ليس الرجل الذي رأيناه من قبل، وأخذ في التحدث بإسهاب عن نفسه وعن حياته، فأخبرنا بأنه غير متزوج، وأصر على أنه أشد الرجال عزلةً في طوكيو، ويعيش مع والدته. وهي سيدة مدهشة يحبها حتى العبادة، وأنه في الخمسين من عمره، وإن كان لا يبدو أنه تجاوز التاسعة والثلاثين. واستمر يروي لنا في نفس الوقت قصة حياته التعسة. فهو يقضي يومه في التنقل من مؤتمر إلى مؤتمر، ويعد صور الفيلم الأسبوعي الذي يجب أن ينتجه، ويستيقظ كل يوم مبكرًا على الرغم من نومه متأخرًا كل ليلة، وأنه يقرأ في برودة الفجر القارسة.

وسألته باهتمام: «ماذا تقرأ؟»، إذ ربما يكون قد قرأ الشِّعر والنصوص اللغوية البوذية، فأجاب وهو يكز على أسنانه: إنني أقرأ قصص الشاشة فقط، مئات- ومئات- ومئات، تنهال كل يوم عليَّ، فأصاب دائمًا بالإرهاق عقب ذلك، ولذا تراني أشرب هنا كل ليلة».

وكلما أمعن في الشرب أجاد الحديث بالإنجليزية، ولم تكن إنجليزيته متقنةً قط، ولكنها معبرة رنانة، ولم يتوقف كذلك عن الحديث

باليابانية، واستمر في الواقع في إلقاء «مونولوج» عجيب باللغتين، واليابانيون من حولنا. وأخذ يمزح، وطلب لي قارورة نبيذ ملأى بالماء، عندما رآني لا أشرب «الساكي»، ثم أعلن بصوت مرتفع أنني أشرب بصورة مشينة، ثم جأر بالضحك على ملحته هذه. ثم انهال فجأة بالنصح على المدير الأمريكي فقال: إن المدير لا يمكن أن يكون فنانًا خالصًا- ليس خالصًا، ليس خالصًا! لا بد أن يكون بين جيبيه شر. ظاهره لطيف وباطنه شر، شر، وإلا لما خَافَهُ الناس. وأصغى الأمريكي مبتسمًا دون أن يجيب. ثم ضرب مدير الإنتاج رأسه بقبضة يده... لقد طرأت عليه فكرة رائعة!!

وقال وهو مفتون بنفسه: «الشرب، أنا مصدر الفكرة» وكانت فكرته تتصل بزوج ابنتي وهو ممثل شاب ينتظر له مستقبل، وكانت زوجته متخصصةً في اللغة الإنجليزية، ويمكن أن تفيد كل شخص أعظم فائدة، فإن سلكناهما بين الممثلين تحاشينا جميع الانفعالات وهدأت كل القلوب... وذكرنا أنه قاسى كثيرًا من الألم حين اضطر إلى إخطار المدير الياباني العظيم بعدم العمل معنا في الفيلم، وكان عليه أن يأخذ على عاتقه المسئولية الكاملة عن خطأ مؤسف، وأن عليه أن ينحني إلى أدنى حد، وهذا شيء مؤلم، ولكن يمكن أن يغفر لنا إذا-».

واجبنا أننا نرغب بطبيعة الحال في رؤية هذين الشخصين، ولكن يجب الاعتياد على الصورة قبل الشعور، واتصل فعلًا بالتليفون، ومع ذلك فبعد أن ثار باليابانية، رجع إلينا غاية البشاشة والرضا..

وقال متعجبًا: «والآن يجب أن نسعد.. فهل نذهب إلى حانة أو إلى

أحد بيوت الجيشا؟».

وطلبنا إليه أن يبت في ذلك نيابةً عنا، فصاح:

«الحانة بطبيعة الحال؛ لأن بيت الجيشا أصبح طرازًا عتيقًا جدًّا، وفي الحانة استرخاء.. حانة من أرقى درجة.. إنني أذهب إلى هناك كل مساء»..

وركبنا سيارات الأجرة مرةً أخرى، وذهبنا نترنح بين الشوارع المزدحمة، ويصف كل سائح أمريكي سائقي سيارات الأجرة اليابانيين وصفًا مسهبًا مضطربًا، ولست بحاجة إلى إضافة شيء إلى هذه الأوصاف سوى القول بأن كل شيء قيل عنهم صحيح، فهم كرماء متحمسون، يندمجون بعواطفهم مع كل مسافر، مستهترون تمامًا بحياة أي شخص أو أطرافه أو متاعه بما في ذلك أشخاصهم، هم أنفسهم.

بدت الحانة عندما دخلنا كأنها عدد من الأماكن الصغيرة المريحة، مكدسة حول خوان الشراب. وشرع مدير الإنتاج في الاسترخاء مباشرةً بإرخاء حزامه وخلع رباط عنقه. وكانت الحانة مزدحمةً برجال الأعمال والفتيات الجميلات وكن كثيرات. وقدمت إليَّ سيدة نحيفة جميلة نصف، قال عنها مدير الإنتاج إنها أحسن سيدة في طوكيو، وكان يبدو عليها الاعتدال والتواضع، وقد شملتها حالة من التأثر لدى سماعها اسمي، وقالت إنها قرأت جميع كتبي، وإنني معشوقتها، وما إلى ذلك، فتأثرت لحديثها ولكني ارتبكت قليلًا. وقدمت لي فتياتها بعد أن احتللنا أماكننا على أريكة دائرية أمام خوان الشراب نفسه. وجلست الفتيات بالقرب مني الواحدة تلو الأخرى، وقد تعرفت بهن إلى حد ما عن طريق

إحداهن التي كانت تتكلم الإنجليزية، وكان معظمهن متزوجات ولهن أطفال، وقلن إن العمل في الحانة لا يروقهن، ولكن أزواجهن يعملون في وظائف وضيعة أو ليس لهم عمل على الإطلاق، ثم إن عملهن سهل يسير... وقد استنتجت أو تخيلت في أعينهن شيئًا من الصبر الحزين، وتذكرت زيارةً قمت بها مرةً إلى مسرح الـ «فولي بيرجر» في باريس منذ عدة سنوات، وكنت محبةً آنئذ للبحث في النواحي الإنسانية كحبي له الآن، فذهبت إلى ما وراء الكواليس لأتعرف على فتيات الاستعراض، فلم أجدهن فتيات، لقد كن سيدات متزوجات يقاسين من المشكلات العائلية كهجر الأزواج لهن أو فقرهن أو مرضهن- ولم يكن معظمهن صغيرات... واستوضحتهن قائلةً: «ولماذا تزاولن هذا العمل؟» «إن الأطفال ينامون في الليل آمنين»...

«وهذا خير من تركهم طوال النهار» وهكذا الحال في باريس كما هي في طوكيو..

وقطع حديثنا آنئذ مدير الإنتاج.

وقال وهو يقدم لنا فتاةً صغيرةً جدًّا: «وهذه خير صديقاتي».

كان وجهها أشبه بصدفة نُقش عليها الحزن، وكنت قد لاحظتها لتوي إذ كانت تجلس بجانب رجل أعمال أبله. وتقدم له الشراب والتوابل، ورأيته مرةً بعين الروائية الملعونة الدقيقة الملاحظة يلف ذراعه حولها عن قرب، فنفرت منه وقد حدجته بنظرة لن أصفها إشفاقًا مني وأسفًا. ثم جلست بجانبي آنئذ ولم تقل شيئًا، واكتفت بالنظر إليَّ في هدوء عميق حتى لقد شعرت نحوها بتعاطف وجداني، لن أتحدث عنه.

وتصرمت تلك الليلة، ونهضت لأغادر المكان، وجمعت السيدة التي تناديها الفتيات بلفظ «ماما» في صف لينحنين أمامها ويودعنها. ورافقتني هذه السيدة بنفسها إلى السيارة، ومالت على النافذة لتتحدث إليَّ، وكان حديثها بلغة إنجليزية سليمة تقريبًا... لقد نالت قسطًا من التعليم، ولم تكن سيدةً سطحيةً أو بلهاء. وظلت تتفرس فيَّ بحرارة وحب، وضغطت على يديَّ، وناولتني طاقةً كبيرةً من الأزهار، وتركتني أذهب على مضض.

جلست وحيدةً في السيارة أفكر في هذه الظاهرة المشاهدة في الحياة اليابانية.. حياة الرجال الليلية، بعيدًا عن عائلاتهم.. إنها قوة مدمرة للحياة العائلية من مخلفات الإقطاع. إن النساء اليابانيات المحدثات يكرهن الحانات وبيوت الجيشا التي تجتذب رجالهن بعيدًا عن البيت. أما النساء اليابانيات من الجيل القديم فيسلمن بهم على علاتهم كما يسلمن بأي شيء آخر يفعله الرجال. ولكن اليابانيات المتحضرات تتوق أنفسهن إلى مزاملة الرجال اللائي يحببنهم- مزاملة حقيقيةً. ومع ذلك فلا يزال الرجال يهجرون البيت. وقد قالت لي يومًا سكرتيرتي اليابانية الصغيرة في هدوء رصين:

«لقد تعلمت ألا أضايقه أكثر من ذلك، بل لقد تعلمت أيضًا كيف أحييه بابتسامة سعيدة في الساعة الثانية صباحًا».

حقًّا إنها تستطيع أن تفعل هذا دائمًا؛ لأن المرأة اليابانية كانت دائمًا أقوى من الرجل الياباني، فهي كأختها المرأة الصينية لم تمنح أي رعاية، ولم تسمع قط بنظام الفروسية، أو الفرسان في عدتهم الذهبية -لقد ولدت أنثى- أي أنها شخص وضيع.. دابة لحمل الأثقال وأمة مطيعة. وتجمعت

لديها قوة باطنة لا تقاوم، على مدى الأجيال التي عاشتها على هذا النحو حين التزمت بالولاء وأداء الواجب، لقد وهبت للرجل الحياة، وحافظت عليه، وعنيت به، وحصنته، ودافعت عنه دون سؤال، فلماذا تسأل إذا لم يكن هناك من يجيب؟ إن الذي غدر بها شخص واحد فقط، إنها امرأة من نوع آخر، هي المرأة التي لم تتزوج.. المرأة التي تعلمت وتدربت وأعدت نفسها لإمتاع الرجل.. لقد غدرت بها الجيشا.. إن جميع ما لا يستطيع الرجل الظفر به من الزوجة الجاهلة المرهقة بالأعمال المنزلية، المرأة التي لا غناء له عنها لكي تهيئ له أسباب الراحة وتيسر معيشته المنزلية، إن كل ما يفقده يجده عند الجيشا التي يعتبر واجبها الأول إمتاع الرجل واجتذاب انتباهه، واغراؤه بالموسيقى، وكسب عقله بتهذيبها. وخير فتيات الجيشا هي المشرقة الوجه الذكية الفؤاد، وهي تقابل المحظية عند اليونان، التي كانت الزوجات اليونانيات يشكين منها مر الشكوى..

واستفسرت في أحد الأيام من إحدى فتيات الجيشا الجميلات: «ألا تشعرين باهتمام لزوجة هذا الرجل الذي استوليت عليه؟».

فهزت كتفيها وقالت: «إن الرجال هم الذين يخلقون الحاجة، أما نحن فمجرد سلعة».

وهذه إجابة ساخرة -والدور الحديث الذي تقوم به فتاة الحانة دور حقير دائمًا؛ لأن فتاة الجيشا الحسنة التدريب يمكن أن تكون، وفقًا لأسلوبها الخاص، امرأةً ذات وجاهة وكياسة، في حين أن أي امرأة يمكن فيما يظهر أن تكون فتاة حانة، فإن كان على وجهها مسحة من الجمال فهي محظوظة، فإن لم تكن جميلةً، فإن لديها سلعًا أخرى تبيعها، وحتى

تأثيرها على الرجال أقل حظًّا من تأثير فتاة الجيشا؛ لأنها أقل كياسةً وأقل وجاهة في جميع الأحوال. وهي لا تزيد أحيانًا على كونها طفلة سدت في وجهها السبل، وهي مومس تقريبًا في معظم الأحوال، في حين أن فتيات الجيشا يمكن أن يكنَّ كذلك، ولكنهن غير مضطرات إلى ذلك، ويستطعن أن يسيطرن على الرجل بوسائل أخرى إن رغبن، وليس لفتاة الحانة غير موارد قليلة فيما عدا المتاجرة بالجنس، ولذا أصبحت مسائل الجنس الآن في اليابان أقذر مما كانت في أي وقت مضى. لقد وجد هناك دائمًا المذهب الطبيعي، ولكن النساء يستخدمن الجنس الآن كإغراء وسلاح. ويستخدمه الرجال كوسيلة للهرب بالقياس إلى التسمم الكحولي. ولكن ممَّ الهرب؟ من اليأس والشعور بالنقص فيما أظن.

ومع ذلك فإذا صرفنا النظر عن الجيشا وعن فتيات الحانات فإنا نجد شيئًا طرأ على النساء اليابانيات الصغيرات، وإنني لا أتصور أن هذا الشيء هو الرجال الأمريكيون، فكثير من النساء اليابانيات أخذ الرجال الأمريكيون في مغازلتهن، وأصيب الاثنان، الرجل والمرأة، بالدهشة؛ لأن كلًّا منهما وجد في الآخر ضالته التي كان يبحث عنها منذ أمد طويل- كانت المرأة تبحث عن رجل يقدر الرقة، ويهتم بها، ويميل إلى الجنس الآخر ميلًا طبيعيًّا، وكان الرجل يبحث عن امرأة تعلمت الإذعان له وخدمته، وتعتقد أن اهتمامه الجنسي بها هو كل الحب الذي ينبغي أن تتوقعه من أي رجل، ومع ذلك فإنني أتذكر أن شابًّا أمريكيًّا معينًا شكا من امرأة كانت زوجةً مدهشةً في بادئ الأمر عندما وصلت إلى أمريكا، ولكنها بعد مضي عامين لم تعد أفضل من الزوجة الأمريكية إذ تعلمت أساليب حياة المرأة الأمريكية!!

ومهما كان ما حدث، فإن النساء الصغيرات في اليابان لم يتعلمن طرق الحياة الأمريكية، ولكن كل ما في الأمر أنهن تحررن، فهن يتنقلن في كل مكان بحرية ورباطة جأش يبعثان على السرور، ويجمعن في نفس الوقت إلى الجسارة رقة الأنوثة والشجاعة والخجل.. مزيج خلاب من البراءة والصنعة، إن لم تكن له صفة الاستمرار فهو خلاب ما بقى. ولعلها لو عاشت في أمريكا لعرفت أن الشاب الأمريكي غالبًا ما يكون لطيفًا، ولكنه يظل عصبيًّا على الدوام، وأن ما سرها منه وأدهشها في أول عهدها به لا يلبث أن تذهب بهجته عندما تجد أن الصبي لا يكبر. أعرف أمريكيًّا معينًا سحب معه إلى أرض الوطن زوجته اليابانية الجميلة وقدمها بحماسة إلى والديه المضيافين. وبعد عام واحد صرحت هذه الزوجة نفسها أنها ترغب في الطلاق؛ لأنها وقعت في حب رجل آخر.. وظهر أن هذا الرجل ليس إلا والد زوجها، الذي وقع بدوره في حبها. إن الرجل العجوز كان بحاجة إلى زوجة تهيم به حبًّا، والزوجة اليابانية كانت قد تمرست بالحب، وكانت المرأة الصغيرة اليابانية تريد على حد قولها «رجلًا أكثر تعقلًا».

قد لا تكون هناك قواعد ثابتة لهذه اللعبة الخالدة بين الرجل والمرأة، والرجل الياباني بقدر ما أستطيع أن أدرك لم يتغير إلى حد كبير جدًّا. وإنني لأتساءل عما إذا كان سيحب زوجته عندما تنكشف له حقيقتها.. إنه لا يعرف حتى الآن.

* * *

كانت تلك الليلة -حين ذهبت إلى حجرتي بالفندق- مليئةً بمثل هذه الأفكار.. ليلة مطيرة غمرت فيها الشوارع مياه الفيضان، وحبستني

الأمطار المتساقطة المرعدة في خليج مغلق.. ولما كنتُ مصابةً بجنون الخوف من الأماكن المغلقة، هربت من الممرات الصامتة بالجناح الجديد الفسيح في الفندق حيث كانت حجراتي مفضيةً إلى البناء القديم الذي شيده «فرانك لويد رأيت، فكان من أبرز أعماله الأولى. ومن المؤكد أنه لا يشبه أعماله الحديثة أقل شبه، مثل متحف «جوجنهيم» في نيويورك، أو مسرح «دلاس» الصغير، بل إنه لا يشبه أي شيء آخر في اليابان.. إنه أكداس عجيبة من الحواشي والزوايا المكعبة المكتظة بالزخرف. وترجع عظمة هذا البناء إلى أنه قاوم جميع الهزات الأرضية؛ لأن مهندس المعمار اكتشف أن طوكيو نفسها مشيدة على بحر مضطرب من الطين، وفي هذا البحر أغرق أُلوفًا من كتل أشجار الصنوبر الأريجونية، وعلى هذا الأساس شيد بناءه الهائل، إنه بناء عائم في الحقيقة؛ ولذلك يتكيف بكل وضع.

هل يؤدي الوضع العائم إلى سهولة التكيف؟ فكرت في هذا السؤال أثناء بحثي عن ركن من الأركان الكثيرة في هذا الدهليز المظلم، فإن كان الأمر كذلك فيجيب أن أتكيف. ولقد خيل إليَّ أنني لم أكن حيةً أرزق، بل لم أكن حتى موجودةً، إنما كنت طافيةً على سطح الزمن وحسب... أستيقظ في الصباح وأعمل، وفي الليل أسير وحيدةً.. أنام فترةً وجيزةً لأنهض عند منبلج الفجر. لا أفكر في ماض ولا مستقبل، ولكني أفكر في هذا وحده، وفي ليلتي هذه دون غيرها، وأفكر في الرجال والنساء. ثم تذكرت مدى ضآلة تجربتي في الزواج.. إنني لست بالمرأة التي تتزوج بسهولة، أو هذا ما يخيل إليَّ؛ لأنني موزعة في أعماق كياني، فبعض مني امرأة، وبعضي الآخر فنانة لا تمت إلى المرأة بأي صلة.. وأنا كفنانة قادرة على القسوة؛ لأن أهل الفن مجردون من الرأفة، ويجب أن يكونوا كذلك.

سألته مرة: «هل تستطيع إذا رأيت نفسك في قصة أن تحتمل ذلك؟»، لا كما أنت في الواقع بطبيعة الحال -فالوسائل التي اتبعتها في طلبك الزواج مني مثلًا، وسائل لا أشك في أن رجلًا آخر قد اتبعها من قبل، وقد احتاج إلى شيء منها أحيانًا لرجال ونساء آخرين.

فابتسم، وكانت له ابتسامة خلابة، تبدأ من عينيه العميقتين الزرقاوين، عينان من البوار أن يكونا في وجه رجل؛ لأنهما كانتا في لون البنفسج بهدبين طويلين أسودين، ولكنني أحببتهما، وبذلك لم يكونا عبثًا. وقال لي مرةً: «خذيهما، إنهما ملكك على كل حال، خذي كل شيء عندي لكي تعطيني».

إن الصفة التي تفرد بها هي أنه فهم روح الفنانة، وأشك أنه فهم النساء أو اهتم بأن يفهمهن، وكانت فكرته عن النساء بوجه عام فكرةً هابطةً.. لم يكن يبغضهن، ولكن موقفه منهن كان غامضًا ومجاملًا بنوع ما. وعندما شكوت من تحيزه، أجابني بهدوء: «إنني لا أحتقر النساء مطلقًا، بل على العكس أظن أن باستطاعتهن أن يكنَّ في وضع أفضل كثيرًا من وضعهن الراهن، فهن يبخسن كثيرًا من أقدارهن إذا قنعن بالعمل طباخات أو خادمات نظافة أو مربيات، في حين أنهن يستطعن أن يكن أي شيء يردنه، وأن يعملن ما يرغبن في عمله، فلا يقف في سبيلهن أحد إلا هن أنفسهن».

ولما كانت وجهة نظره هي نفس وجهة نظر الرجل الإنجليزي المهذب فيما يتصل بأعمال المنزل -كان إنجليزيَّ الأبوين، وأمه مولودة في إنجلترا- إذ إنني كنت أشعر بظلم شامل في هذه الملاحظات، ولكني لم أكن ممن يمعنون في المناقشة، وهو لم يكن دون شك متزمتًا حتى

آنئذ فيما يتعلق بشئون المرأة. وقد بدأ حياته في سن مبكرة، فما إن تخرج في جامعة هارفارد بدرجة الشرف في سن لا تزيد على العشرين، حتى تزوج على الفور. وكان جذابًا للنساء، وهو يعرف هذا عن نفسه، ذا عينين زرقاوين وشعر أسود وبشرة سمراء. وكانت عاداته لطيفةً، وكان مخادعًا أحيانًا حين يتحدث إلى المرأة. ومع ذلك فقد كان يسير على قاعدة خاصة لا ينقصها، فهو مثلًا لا ينادي سيدةً تعمل عنده باسمها الأول أو يدعوها إلى الغداء، أو يرتب معها مقابلةً في غير أوقات العمل. وكان يشعر أن أي طلب ذي طابع شخصي يطلب من الموظف يعد استغلالًا غير عادل لسلطة الوظيفة. وأذكر أنه في وقت من الأوقات كان يستخدم سكرتيرةً، وهي فتاة صغيرة جميلة بصورة غير عادية، وإذا أبدى أحد أصدقائه أو زائريه من الرجال ملاحظات تنطوي على الحسد والغيظ، قابلها بالبرود الذي يتصف به الرجل الإنجليزي دون غيره..

ويجيب بعبارته التي لا تتغير: «إن مس كيرك سكرتيرة كفء وإلا لما استخدمتها».

وكانت نتيجة هذا الموقف بطبيعة الحال، الإخلاص الكامل من جانب سكرتيراته، بل لا تزال مس كيرك تقول لي حتى اليوم، بعد أن تزوجت وأنجبت أطفالًا كبارًا، ويقول غيرها ممن على شاكلتها في الذكرى الحبيبة إلى نفسي:

«إن العمل معه كان يسوده جو من المرح، وكان المرء يستطيع دائمًا أن يثق به، إذ لم يكن من طبيعته أبدًا أن يتخطاه مما يوحي إلى المرء بالثقة في نفسه..».

إنها لهدية متواضعة، ولكن ما أبلغ دلالتها!! ومع ذلك فقد كان لحسن حظي يستطيع إغاظتي أحيانًا إذ كان يجب أن يقول مثلًا إنني أختلف عن أي امرأة أخرى عرفها من قبل، لأنني أتمتع بعقل رجل في جسم امرأة، فأهاجمه دائمًا لمثل هذه الفكرة، وأسأله لماذا يقال عن المرأة أن لها عقل رجل لمجرد أنها ذات عقل راجح؟ هل أعطت الطبيعة منحتها الكبرى للرجال وحدهم؟ وهل هناك قانون للوراثة ينكر أن للنساء عقولًا؟ فكان يضحك ويتظاهر بالبحث عن مخرج، ويقول حينئذ جادًّا إنني على حق..

كان يقول وعيناه تتألقان: «إنني كنت أعتذر» ولم يكن يعتذر مطلقًا بالطبع عما يعتقده صوابًا. أما الشيء الذي كنت أعتز به أكثر من الماس، فهو تلك الحقيقة التي لا جدل فيها، وهي أنه كان يستمتع بعقلي، ويحب المحادثة العميقة في الموضوعات العويصة، ويستمتع بالجواب البدهي. وما كنت أعتز به أيضًا أكثر من الماس بل ومن الحياة نفسها، أنه أدرك ضرورة عزلتي عندما كنت أكتب، فلم يسألني قط عما أكتب أو حتى عن موضوع الكتاب الذي أقرأ. وعندما كانت تتم القصة وتكتب على الآلة الكاتبة، وتعد لتسليمها إلى الناشر، كنت آخذها بنفسي وأقدمها له رسميًّا بكلتا يدي على الطريقة الصينية. وكان مكتبه في المبنى القديم، وكان الممر القصير يومًا ما «بيت التدخين» حيث ظل الفلاحون نحو مائة عام يقددون بالتدخين لحم الخنزير ودهنه، ويظل البابان مغلقين أثناء انشغالي بالكتابة، ولم يحدث مطلقًا أن فتحتهما، ولكنه كان ينهض حين أدخل عليه وبيدي الكتاب الذي فرغت منه، فيتناوله مني باهتمام بالغ.

وكان يقول دائمًا: «هذا يوم عظيم»..

يوم عظيم.. لقد كان كذلك دائمًا، إذ كان ينحي كل شيء سواه جانبًا، ويجلس لأداء الواجب الذي أحبه، كما قال، أكثر من أي عمل آخر، وهو قراءة المخطوط الذي كتبته، وكان يجري تصحيحاته بعناية، ولكن على قلة. ولا أذكر أنه أجرى تغييرًا قط، بما في ذلك أي شيء ذي بال، أكثر من حرف جر وضع في غير موضعه، أو اضطراب في الترتيب الزمني للقصة، فاللغة الصينية قليلة حروف الجر، كما أنه لم يسبق لي أن تعلمت استخدام هذه الكلمات الإنجليزية القصيرة المتمردة المحكمة. أما اضطراب الترتيب الزمني فهو الشيء الذي كان عليَّ الإفلات منه دائمًا إذا لم يكن لدي إحساس زمني. وليس معنى هذا أنني لا أحافظ بدقة على المواعيد، بل على العكس تعلمت من سن مبكرة المحافظة على المواعيد إلى درجة الخطأ، وأقول إلى درجة الخطأ لأنني أحافظ على المواعيد بدقة بحيث أضيع وقتي الخاص في انتظار الآخرين. وكان والداي يشتغلان منفصلين كلًّا عن الآخر، ويعيشان وفق مواعيد خاصة. وكنت أعيش أنا كذلك بوصفي طفلةً مضطرةً إلى الموائمة بين هذه المواعيد، وأعيش منعزلةً بوصفي شخصًا يشغلني عملي أيضًا، وينحو هو نحوي.. لا، بل أعني أنني لا أكترث بتاريخ السنة أو الشهر أو اليوم، فلا أتذكر أيام الميلاد ولا الأعياد السنوية. ولا أي تاريخ من التواريخ الهامة التي يفترض أن تتذكرها المرأة، وكان على سكرتيرتي أن تتذكرها بدلًا مني، وتنبهني إليها مقدمًا. وكان هو يحتفظ من ناحية أخرى بذاكرة موزعة، تتذكر الوقت بدقة، فكان ينظر إلى ساعته ونحن على مائدة الإفطار في الصباح أو في أي وقت آخر أثناء النهار ثم يسألني: «هل تتذكرين ماذا كنا نفعل منذ عشر

سنوات –عشرين سنة..إلخ في مثل هذه اللحظة؟».

وكنت أحب في أول الأمر أن أكون دقيقةً فأحاول أن أتذكر، ثم أخلو إلى نفسي فيما بعد لأقول في شجاعة إنني لا أذكر، فيقول لي حينئذ: «إنها كانت أول مرة أقبلك فيها –أو اقترحت عليك كذا– أو قلت إنك لا توافقين على الزواج مني –أو رأيتك مصادفة في يوكوهاما إلخ إلخ»..

كان السباق بيننا طويلًا في الواقع، وكنا قد قطعنا مرحلة شبابنا الأولى عندما تقابلنا لأول مرة، وقد ظن كلانا أننا استسلمنا لزواج غير موفق، وكل منا كان معروفًا تمامًا في مجاله الخاص. وقد رفضته بحزم في نيويورك واستوكهلم ولندن وباريس والبندقية، ثم أبحرت عن طريق الهند إلى وطني فانكنج في الصين..

وبعد ستة أشهر اتصل بي تليفونيًّا عبر المحيط؛ لأقابله في شنغهاي لكي يسمع كلمة «لا» مرةً أخرى، وأنها ستكون المرة الأخيرة. وسافرت بعد ذلك وحدي إلى بكين لبضعة أشهر، للقيام ببحث ضروري لاستكمال ترجمة كتاب «كل الرجال أخوة» ولم أقض هناك إلا أقل من أسبوع حتى ظهر دون توقع مني، إبان عاصفة ترابية عنيفة هبت من صحراء جوبي، ثم سافر مرةً أخرى نهائيًّا، فذهب إلى منشوريا، وعدت أنا ثانيةً إلى الوطن، إلى نانكنج لأخذ أمتعتي والقيام بزيارة صيفية إلى الولايات المتحدة لأرى إذا كانت الأمور تسير على ما يرام بالنسبة لطفلي المتخلف، وكانت معي ابنتي الصغيرة وسكرتيرتي، وكنت عند رحيلي في حالة استسلام عقلي إزاءه، وظننت أنني اتخذت بذلك أحكم قرار، إذ لم أرغب في إيجاد اضطراب في حياتي.

وأذكر أنه كان صباح يوم مشرق من شهر يولية، وكانت السفينة رأسيةً في ميناء يوكوهاما، وكنت مصممةً على عدم النزول إلى البر، إذ سبق لي أن زرت هذه المدينة مرارًا وأن أعمل بدلًا من ذلك في ترجمة كتابي، على أن تصحب سكرتيرتي ابنتي الصغيرة إلى المنتزه، ولم أكد أقرر البدء في عمل على انفراد، حتى سمعت الصوت الذي أعرفه الآن أكثر من أي صوت في العالم.

«هأنذا ظهرت مرةً أخرى -وسأظهر، كما تعلمين، في كل مكان آخر من هذا العالم، فلن تستطيعي مني هربًا».

هذا هو، نحيل أسمر، ووسيم، يدخن غليونه العوسجي... وقلت له على الرغم من ذلك: «لا». وقررت ذلك كل يوم على ظهر السفينة، ثم في فانكوفر، وطوال فصل الشتاء في نيويورك. ولكن الربيع في هذه المدينة الساحرة وضع حدًّا لمقاومتي، فتزوجنا في الحادي عشر من يونية، وعشنا سعيدين معًا بعد ذلك كرجل وزوجته، منفصلين في عملنا المهني.

كان عظيمًا -رأيته وهو يتناول خليطًا من المخطوطات فيجعل منها مؤلفًا موحدًا، ولكنه كان بلا شك ناقدًا دقيقًا، وكان ينقد الكاتب على قدر توفيقه في تحديد الهدف الذي وضعه نصب عينيه، ولا يبلبل فكر القارئ بما يبديه من ملاحظات شخصية لا مبرر لها.. وكان موهوبًا في أسلوبه الخاص بتنقيح كتب الكتاب الذين لا يعرفون في أنفسهم موهبة الكتابة. والمثال البارز لهذا، مخطوطة قصيرة وصلته يومًا من سيدة أمريكية في سيام، وكان آنئذ رئيس تحرير مجلة «آسيا» وصاحبها. وأذكر الآن

المقالة، وكان عنوانها «لغة الملك الإنجليزية» وكان الملك المقصود هو ملك سيام. وكتبت المؤلفة بحثًا لطيفًا قصيرًا عن لغة الملك الدارجة، وكانت لغةً مزعجةً مضطربةً في وقت معًا. ولكنه رأى شيئًا أهم كثيرًا في المقال الخفيف القصير.. رأى شخصيةً ورجلًا، فدعا السيدة الأمريكية إلى مزيد من الكتابة عن هذا الملك. ووصلته في النهاية مقالات قليلة تكون منها، نتيجة إغرائه لها وتشجيعها، مخطوطات في حجم كتاب. ثم شرع في تأليف كتاب من مواد هذه المقالات.

وطلب منها ما لم يجده فيها فكانت النتيجة النهائية كتاب رائع أطلق عليه «أنا وملك سيام» وقد أصبح هذا الكتاب فيما بعد لحنًا قصصيًّا في برودواي من تأليف «روجرز وهمرشتين».

إن قائمة أعماله ممتازة، فهو الذي نشر كتب جواهر لال نهرو العظيمة بين الأمريكيين، كما نشرها بين جميع قراء العالم عن طريق شركته للنشر، وهو الذي أدرك في سوكارنو، الشاب الأندونيسي، أنه قائد آسيا المأمول في المستقبل، فشجعه على تأليف كتابه الأول، وبذلك عرفه الغرب، وهو الذي نشر أول كتاب في الولايات المتحدة يحذرها فيه من الحركة النازية، فكانت نبوءةً سابقةً لأوانها بأمد طويل. ومع ذلك فليس من الحق في شيء أن الكتاب لم يجد غير قلة من القراء، وهو أيضًا الذي أعد للطبع أجود كتب «لين يوتانج» جميعًا، وأول من بنى شهرته ككاتب. وكان يتمتع بموهبة الفهم على نطاق عالمي شامل وبعقل يحسن الاختيار، وفكر تركيبي يقويه الإيمان في الموهبة أينما وجدت..

كان فخورًا بعمله، يشعر أن النشر مهنة نبيلة، ولم يكن جمع المال

هو الباعث له على النشر، فإن كان الكتاب من الجودة بحيث يستحق النشر، وافق على نشره بحماسة، سواء أكان موافقًا على ما جاء بالكتاب أم غير موافق، وكانت آراؤه الخاصة حاسمةً دائمًا، وفي صف ذوي الرأي الحر المستنير.. وعلى الرغم من انتسابه إلى عائلة متطرفة من الحزب الجمهوري فقد أدلى بصوته للديموقراطيين، وكان أحيانًا يحول صوته إلى الاشتراكيين كتصويت معارض، وكان ينشر لمؤلفين من المحافظين، بل من المحافظين بأضيق مفهوم الكلمة، إذ كان يعتقد أن هؤلاء أيضًا من حقهم أن يُسمع رأيهم، فإذا عرضوا آراءهم عرضًا جيدًا، عُنِيَ بكتبهم نفس العناية التي يمنحها لغيرها من الكتب الأخرى، وقد امتدت سلسلة المؤلفين الذين أظهرهم من «فيتز ستيرنبرج إلى جيمس بيرنهام».

وكان يعتقد أن للناشر الحق الأول في الكشف عن الموهبة، فعليه واجب العمل على تنميتها حتى تؤتي أفضل ثمارها، ثم عليه بعد ذلك أن يقدمها. كان مهيمنًا على المؤلفين والكتب، ولكنه كان على قدر عظيم من الفهم الغزير لحاجات الأشخاص الموهوبين ونواحي ضعفهم وخجلهم، حتى أنه كان يوجههم دون أن يبدو عليه أنه يفعل ذلك. وهو يستخرج أفكارهم بأسئلة بارعة ومديح صادق، وحسن تقدير. ومن بين الرسائل العديدة التي تلقيتها بعد وفاته رسائل كثيرة من كتاب قالوا إنهم لم يتمكنوا من الكتابة إلا بعد أن ساعدهم على فهم أنفسهم..

وماذا أقول أنا عن نفسي؟ إنه هو الذي كشف شيئًا ما في كتابي الأول الصغير، ذلك الجهد التجريبي الذي نبذه جميع الناشرين الآخرين، إلى أن أدرك هو أن مؤلفته يحتمل أن تؤلف يومًا ما كتابًا أفضل. وقد انقسمت

هيئة موظفيه فريقين متساويين، أحدهما ضد الكتاب، وأصبح له بوصفه رئيس الشركة أن يدلي بصوته، فكان صوته في صالحه، ومن خلال تلك الفرصة الضيقة بدأت حياتي..

يا لحسرتي، لن يجديني الحلم طويلًا. إن دهليز فندق إمبريال القديم في طوكيو كان خاويًا اللهم إلا من كاتب وسنان.. وكان هطول المطر قد توقف، وقمر جديد أخذ يتأرجح فوق السحاب حين خرجت أستنشق هواء تلك الليلة الرطبة.... القمر الجديد؟ إنني في طوكيو منذ ثلاثة أسابيع، وحيدة منذ شهرين.

* * *

إن الموسيقى تشكل شطرًا هامًّا من حياتي، فهي أساس ووسيلة الفكر والشعور، وكنت أريد للفيلم موسيقى يابانية، وليست تلك الموسيقى ذات التركيب التافه التي ظنوها شرقيةً في محاولاتنا الأمريكية، بل أريدها موسيقى مبتدعة أصلًا في اليابان، على يد ياباني. وفوق ذلك لا بد أن تكون موسيقى يابانيةً حديثةً؛ لأن التغيير الذي حدث في جميع مظاهر الحياة اليابانية لا يتجلى في شيء أكثر مما يتجلى في الموسيقى. ولذلك فالموسيقى هي البارومتر. والترمومتر لكل ثقافة. وهي أقدر الفنون على السمو بأمزجة الناس، وهي الدلالة على كل مؤثر خارجي والاستجابة له. ولقد سرني آنئذ أن قال «توشيرو ميازومي» إنه يرغب في وضع موسيقى فيلم «الموجة الكبرى»، وكنت أعرف تأليفه الموسيقى، ولكني لم أقابله قط. وسرني بنوع خاص أن وجدته في انتظاري في صبيحة أحد الأيام بغرفة الجلوس في الفندق، فنهض وقدم لي نفسه، وناولني في نفس

الوقت هدية، هي تسجيل سيمفونية «نرفانا»..

وقال في تواضع: «إنني مؤلف موسيقاك».

وجلسنا، وتأملت وجهه صراحةً. كان وجهًا جذابًا قويًّا لطيفًا، هادئًا شاعريًّا بلا زيف، بل بالأحرى وجه بريء، إلا أنه لم يكن وجه طفل على الرغم من أن في تعبيره طلاقةً، طلاقة الطفل.. وقد أدركت هذه الصفة؛ لأنها لا توجد إلا عند ذوي المواهب السامية، عقلاء كالحياة، ودعاء كالحمام كتعبير السفر القديم.

فقلت له: «إنني محظوظة»..

ويطلق على «توشيرومبازومي» اسم «ليونارد برنشتين» اليابان وهو يشبه برنشتين في الحقيقة من حيث تألق موهبته، ومع ذلك فهو يختلف عن برنشتين في تكريس جهده للتأليف الموسيقي، فهو وإن كان يقود الفرقة الموسيقية إلا أنه يفضل التلحين..

قلت: «تفضل فحدثني عن نفسك».

وبدا لي كأنه لا يذكر شيئًا يحدثني عنه، فضغط على شفته، وحاول أن يتذكر.

فقلت أذكره: «إنك ولدت في سنة ١٩٢٩».

وأضاء وجهه الجذاب الهادئ بومضة امتنان وقال:

«لقد ولدت في هذا التاريخ، ولكني بدأت حياتي في السادسة من عمري، أؤلف وأعزف على البيانو».

وتأمل قليلًا، ثم تكلم أخيرًا: «ثم التحقت بجامعة طوكيو».

وكنت على وشك أن أستفسر منه: «أليس بينهما شيء؟» . ولكني قررت ألا أتكلم، وأنتظر لأدعه يعرض حياته كما رأها.. ولم يكن إذَنْ هناك شيء بين السادسة والتحاقه بالجامعة. وتابع حديثه بعد تأمل: «عندما بلغت الحادية والعشرين، حصلت على منحة دراسية في باريس لمدة عام واحد في الكنسرفتوار». وكان هناك رجل واحد أتعلم عنه هو «توني أوين»، وهو شديد التزمت، لا يهتم بطريقة التلحين الحديثة...، ولذا كنت تلميذًا خاملًا؛ لأن الصياغة هناك كانت جامدة الأوزان إلى حد ما ومن طراز عتيق، وتوافق الألحان تقليدي.. والإبداع الفني يختلف عن هذا.

إن النشاط انفعال، وأنا لا أستطيع، لأنني أستخدم طريقة الاثنتي عشرة نغمة، ولذا بحثت عن الملحنين النمساويين وقصدت إليهم - مثل أرنلدشو ينبرج وأنطون ويبرن اللذين يستخدمان الطريقة الحديثة لتوضيح التأليف الموسيقي المعاصر».

فذكرته قائلة: «ولكنك تستخدم أيضًا الموضوعات الكلاسيكية، فأنت متقلب-».

وتقبل مني هذا الوصف بابتسامة، وقال: «إنه لمن العسير جدًّا أن أعتمد في مطالب حياتي على الموسيقى الكلاسيكية وحدها وإن كنت أحبها. ورجعت إلى اليابان، ومنذ عدة سنين ألحن أنواعًا كثيرةً من الموسيقى للآلات الموسيقية الكبيرة، وللآلات الصغيرة، وكذلك موسيقى الأفلام. وأظن موسيقى التليفزيون والراديو تدخل في عملي، ولكني أحب أن أظل فنانًا دائمًا..».

وتوقف برهةً طويلةً استعرض فيها السنين، ثم قال: «وهكذا عدت

بعد خمس سنوات إلى أوروبا، واشتركت في أعياد موسيقية بالسويد وألمانيا وبلاد أخرى، وعزفت فيها موسيقاي».

وسألته: «ما هو شعورك حين تسمع موسيقاك تعزف في جميع أنحاء العالم؟».

فنظر إليَّ نظرةً بليغةً، ولكنه كان متواضعًا في كلماته حين قال: «رجعت إلى اليابان، وكوَّنت فرقةً للموسيقى المعاصرة، ومنحت الجوائز... وهذا كل شيء».

كل هذا كاف جدًّا لشاب في الحادية والثلاثين، ولكن من الواضح أنه قص عليَّ قصته، ولم يكن يبدو عليه أقل خجل، بل جلس مسترخيًا منتظرًا.

وسألته أستوضح أمر هديته: «وما قصة هذا التسجيل؟ فأجاب: «لقد عزفت هذه القطعة في طوكيو في أول عرض في اليوم الثاني من أبريل سنة ١٩٥٨ بعد عمل استمر نحو عام».

«هل تهتم بالدين؟ إن العنوان يوحي بالبوذية».

قال: «ناقوس معبد بوذا الياباني... إنه خليط نموذجي من الأصوات.. إنني أحبه كثيرًا ما دمت مهتمًّا بالموسيقى المقررة والموسيقى الإلكترونية، ومعنى ذلك خلق تراكيب موسيقية منتزعة من النشاط الصوتي كما يقترح «إدوار فاريس»، وبمعنى آخر، تقوم طريقة التأليف الموسيقي بإعطاء حيوية موسيقية للنشاط المتحد بالصوت نفسه، ولذا أدخلت نغمات جديدة في تأليفي -مثل النغمات المختلطة، فأصبح التوافق بين عشرات

النغمات الخالصة هو اللون السائد في أعمالي الموسيقية».

وأصبح الوجه الهادئ فجأة منتعشًا وسيمًا، ثم قال: «لقد اجتذبتني أصوات الكهنة البوذيين وهم يرتلون المأثورات البوذية -إنها خالية من التطريب بطبيعة الحال، ولكنَّ فيها ترنيمًا مألوفًا مقفى، فعندما تشترك أي جماعة من الكهنة في الترنيم، يصدر عنها لون من الضوضاء الموسيقية بوساطة اختلاط أصوات من مقامات متباينة، وقد أضفت إلى فرقة موسيقية كاملة آلات زمر ثلاثية وآلات نحاسية من الصوت العميق موزعة على مختلف أركان القاعة للحصول على إحساس موجه بوساطة تقاطع الأصوات فوق رؤوس الحاضرين».

وانتهت فترة الصمت -وتدفقت منه الكلمات في فيض من عقل خلاق.

إن النرفانا، وهي الحالة المثالية عند الشخص البوذي، يرمز إليها بدقة الجرس، ولذا فقد أكون متدينًا، إذ إنني ألفت هذه السيمفونية بفكرة خلق النرفانا الموسيقية الخاصة بي، وهي ليست موسيقى دينية، فيما أظن، بالمعنى الدقيق للكلمة، بل هي نوع من الموال البوذي، وأتعشم أن تروقك»، ثم ابتسم فجأةً، وقال: «لقد تحدثت أكثر مما ينبغي».

وقطعت فترة الصمت التالية بقولي: «وماذا ستفعل بعد ذلك، بعد الانتهاء من فيلمنا؟».

قال: «سأذهب إلى نيويورك لكتابة موسيقى «باليه نيويورك سيتي» الذي سيعزف في العام التالي».

«وهل تختلف هذه اختلافًا تامًّا عن الموال البوذي؟».

«إنني أحب الاختلاف، ولكن قبل ذهابي إلى نيويورك سأنجز موسيقى فيلم «الموجة الكبرى». إنه فيلم غير عادي أيضًا، وهو يختلف كل الاختلاف، فموسيقاه واضحة في ذهني، إنها رومانتيكية فعلًا، ولكنها ليست رومانتيكيةً فاجنريةً.. إنها قوية ورقيقة في نفس الوقت، وفيها فلسفة شرقية معاصرة.. ولكن كيف استطعت أنتِ أن تكتبي مثل هذه القصة؟ إن إحساسها شرقي».

وجاء دوري في العجز عن معرفة ما سأقول، إذ كيف تستطيع كاتبة أن تعرف كيف تكتب؟ ولكنه نسي السؤال.

كان يقول: «أريد فيها أغنيةً، أريد أغنية تشبه شروق الشمس، فتية عذبة مليئة بالأمل، فيها شبابكم الفتي، الذين يبدأون حياتهم مرةً أخرى في جيلهم هذا، أغنية هذه اللحظة. التي لم يعيشوها قط من قبل، إنني أريد هذه الأغنية..».

ومال ناحيتي يلح بالطلب والالتماس: «إذا ألَّفتُ اللحن، فهل تكتبين أنتِ كلماته؟».

فأجبته: «لا، لا أستطيع».

ولم يعد هناك ما يقال أكثر من ذلك. فتصافحنا، ومضى في سبيله، وكتب الأغنية شخص آخر..

ووقفت في ظهر اليوم التالي عند المكتب، وتطلعت إلى داخله... كان هناك شيء يجري فيه على الدوام، ولم تشذ هذه اللحظة عن ذلك.

مئات من ثياب الممثلين مكومة على الأرض.

وأشخاص عديدون -رجال وأولاد وفتاة واحدة أو اثنتان- ينبشون هذه الثياب ويحملونها في غير نظام إلى جماعة معهم من اليابانيين يسيرون متتابعين، من مختلف المستويات، كانوا يبحثون عن ثوب طلبه مهندس الأزياء لاستخدامه في أجواء مختلفة من الفيلم.. ومهندس الأزياء كان إنسانًا قميء الجسم، ذكرًا، غامض العمر، ولكن من المؤكد أنه صغير السن، تقل قامته عن خمسة أقدام، ولعلني أدهش لو زاد وزنه على التسعين رطلًا. كان جلدًا على عظم، ولئن كان هيكله العظمي هيكل طفل، إلا أن وجهه كان فاتنًا... وجهًا مغضنًا، مبتهجًا، مليئًا بالمرح وحب المداعبة... كان وجه إله قديم من آلهة الحقول.. وقمة الرأس صلعاء، ولكن الشعر الذي يكسو ما حول هذه البقعة الصلعاء الواسعة كان يبرز من الجمجمة قائمًا مشدودًا، كأن هذا الإله القديم يعاني من صدمة كهربائية... ولا شك أنه كان مشحونًا بكهرباء من نوع ما؛ لأنه كان يصدر الأوامر دون هوادة وهو يسوي معدات صياد سمك تصلح لرجل في مثل حجمه أربع مرات، لقد كان مع ذلك مهندسًا دقيقًا، أخذ يشد السروال عند خاصرته، ويجعل التواء عند الحزام، وينظم المعطف الياباني، حتى أصبح صياد سمك.. وضحك الجميع، وجلست أنا للمشاهدة.

كان يعرف جميع الشخصيات في قصة «الموجة الكبرى» فيما يبدو، وقد شكلها جميعًا، ويواجهنا كلما شكل رجلًا، أما إذا شكل امرأة فكان يولي ظهره إلينا. وقد عرفت كل ممثل، حتى تلك الفتاة الصغيرة «ستسو»، أما كيف استطاع رجل عجوز اصطناع وضع يوحي بفتاة

صغيرة مرحة حتى من الخلف فهو أمر لا أملك له تفسيرًا. لقد تمنيت للمرة المليون لو أنني أفهم اللغة اليابانية؛ لأن كل ما كان يقوله الإله يضطرب له الحاضرون، كما كان يصيبه الضيق بين آونة وأخرى، فيقذف بثوب أو يلقي في غير نظام بما يقدم له على خليط من الثياب المكدسة بكل قوة ضاربة كأنه قرد يبحث عن البراغيث.

وفي هذه اللحظة هبط الوحي على شخص ما فقال: «-هذا هو الذي كنا نبحث عنه- شخص رائع بين الحاضرين يقوم بدور السيد العجوز... هل يتكلم الإنجليزية؟».

وابتسم إله الحقول ابتسامةً عريضةً، كشفت عن كل أسنانه التي أصابها العطب جميعًا، وهز رأسه للإنجليزي.

وقال للآخرين: إنه سيفكر في الأمر وسيخبرنا في الغد. وفي اليوم التالي، بينما كان الإله العجوز يشكل أرديةً أخرى. ويرقص برجليه الطويلتين هنا وهنالك، سرعان ما ابتسم عند دخولي الحجرة، وتدفق من فمه سيل من اللغة اليابانية، عرفنا بعد الترجمة أنه سينضم إلى الممثلين، ولكن على شرط أن نعده بألا نقص شعره، وقال: إنه لن يأتي معنا إن فعلنا.

ولاحظت حلقة السلك السوداء المشحونة بالكهرباء، حول جمجمته الصلعاء البارزة العظام فقلت: «أخبروه أنني لن أفكر في قص ذلك الشعر، وأعده ألا يقص».

وتفرسنا جميعًا باهتمام في هذا الشعر الثمين.

وقال إله الحقول المبتهج وقد ارتسمت على فمه ابتسامة وصلت إلى الجانب الآخر من الحجرة: «هاي»، ولكن سرعان ما اختفت الابتسامة فجأةً، وتدفقت الثرثرة اليابانية من حيث ارتسمت الابتسامة. وأوضحت المترجمة المتأنية حديثه بقولها: «إنه يقول هل هو مضطر إلى التحدث بالإنجليزية؟ إن كان الأمر كذلك فإنه لا يستطيع».

فوعدناه قائلين: «إن لديه سطرين فقط، وسوف نعلمه إياهما كل يوم».

واكتشفنا فيما بعد، أن أي قدر من التعليم لا يمكن أن يتغلب على اللهجة اليابانية التي يتعذر قهرها، قصرنا حديثه على كلمتين أساسيتين هما «نعم» و«لا» ينطق بهما في الفيلم بقوة وكبرياء. وقال: «إنه انتظر طوال حياته اليوم الذي يصبح فيه ممثلًا، ولكن أقرب ما وصل إليه هو العمل في ثياب الممثلين، ولن أنسى مطلقًا وجهه الطافح بالحبور حين عرف أنه سيقوم بتمثيل الدور، وأن كل ما كان يهمه آنئذ هو أن يصبح نجمًا. وابتسم لنا ابتسامةً عريضةً، وأصبح إله الحقول قردًا مرةً أخرى، ينبش الملابس، ولكنه في هذه المرة كان يبحث عن ردائه الخاص كالمحموم.

* * *

شعرت في تلك الليلة لأول مرة منذ وفاته بالارتياح، وإن كان ارتياحًا ضئيلًا، ومن الضيق الممل الكئيب، ومن -ماذا أسميه؟ الصدمة، العزلة، الوحدة، أو مهما كانت مصطلحاته، فقد وضع على كاهلي عبئًا لم أستطع الخلاص منه. ولم أتجول تلك الليلة في الشوارع، وقررت بدلًا من ذلك أن أدلك جسمي على الطريقة اليابانية، وأتناول عشائي وحدي في

حجرتي، وأكتب رسالةً مطولةً للأطفال في أرض الوطن، وأقرأ كتابًا.. وهذا برنامج عادي جدًّا، ولكني لم أستطع تنفيذه ما دمت وحيدةً. إن الضحك أمدني الآن بهذه القدرة، إنني أضحك بسهولة، ما دامت الدنيا مليئة بأناس مرحين ومصادفات مضحكة، ولكني لم أضحك في معظم الأحيان خلال الشهور الماضية دون أن أنسى نفسي، كما أوحي إليَّ إله الحقول الصغير بالضحك بطريقة ما بعد ظهر ذلك اليوم. إن الموهبة الخاصة التي يتميز بها الفنان هي القدرة على تقمص كيان شخص آخر، ويصدق هذا على الروائي، وكثيرًا ما ناقشنا ذلك، هو وأنا، فكان يغفر لي دائمًا استغراقي المؤقت في التفكير في شخص آخر غيره. إنه لعجيب هذا الاستغراق، ولا أستطيع أن أصفه إلا إذا شبهته ببؤرة الاهتمام الكامل الضروري للعالم المهتم بالأمور النظرية، فمثل هذا العالم فنان أيضًا بالسليقة، وليس بيننا من يستطيع التخلص من طبيعته.

ومع ذلك فإنني لم أستطع أن أستغرق في التفكير في أي شخص آخر منذ وفاته. وحتى عصر هذا اليوم حين عاودتني عادتي القديمة، شعرت أنني مزهوة، وبالأحرى عامرة القلب بالأمل، وقد شعرت على الأقل بالارتياح، ولو لفترة وجيزة، من أزمة الحزن التي كنت أجتازها منذ أسابيع طويلة، وضحكت من أعماق قلبي، فاندمل جرحي بعد ساعة. وأستطيع أن أقرر، أنني نفذت برنامج ليلتي، فأويت إلى فراشي كذلك في ساعة مناسبة لأول مرة منذ الأسابيع الماضية جميعًا. فكانت هذه الحقيقة هي البداية.

* * *

الفتيات الغواصات، صائدات الحلزون البحري... هل تحدثت

عنهن؟ لا أظنني فعلت، ولكن لا بد أن أفعل؛ لأنهن مجموعة فريدة وثيقة الرباط بجميع ممثلينا اليابانيين. وأصداف الحلزون البحري طعام لذيذ في المطبخ الياباني، ولكن الحصول عليها صعب؛ لأنها تلصق بالصخور بقوة شديدة، وتعيش في أعماق سحيقة حيث يكون البحر مظلمًا والمياه في برودة الثلج. ويرفض الصيادون اليابانيون عن فطنة الغوص لصيدها ويكلون هذا العمل إلى النساء الصغيرات؛ لأنهن أكثر تحملًا للبرد وأقوى على مواجهة الخطر. ويقوم الرجال بالتجديف بقواربهم إلى ما فوق الأصداف، وينتظرون في طول أناة ريثما تغوص النساء تحت مياه البحر، غير مرتديات سوى سراويل قصيرة وأحزمة يرشقن فيها المُدَى الطويلة الثقيلة اللازمة لانتزاع الأصداف من الصخور.

ومما أدهشني أن لباسهن، وهو لباس عادي ومعقول جدًّا بالنسبة إليهن، أصبح موضع اهتمام، بل موضع معارضة بين منتجينا الأمريكيين. ويظهر أن النظارة الأمريكيين لا يتسامحون إزاء رؤية صدور النساء الغواصات عاريةً، في حين أن ذلك أمر مقبول تمامًا في أوروبا، بل ويدعو إلى السرور. ولكن للاحتشام مقاييس مطلقة بالنسبة للوعي الثديي في الولايات المتحدة.

وسألت: «كيف؟ إن المرأة هي المرأة، ولا يمكن أن تكون أي شيء آخر».

وقال المندوب الأمريكي باقتضاب: «إنها لوقاحة»، ولكنه رضخ قليلًا عندما لاحظ دهشتي، وقال: «سنأخذ لقطتين. إحداهما وهن عاريات الصدور، والأخرى وهن غير عاريات».

وهذا ما فعلناه، وعجبت من رؤية تذمر النساء حين اضطررن إلى وضع مشدات على صدورهن السمراء المستديرة... لقد شعرن آنئذ أنهن حقيقةً عاريات كما شعرت حواء في الجنة دون شك، حين طلب إليها أن تستر عورتها بشجرة التين.

* * *

إن نقل قصتي من وسيلة إلى وسيلة أخرى، من صفحة مكتوبة إلى فيلم، أضفى عليَّ شعورًا عجيبًا بالرضا؛ لأن شخصيات القصة عادت حيةً بلحمها ودمها، ووجدنا «ستسو» يومًا، وسوف لا أنسى لحظة السرور السماوي الخالص الذي شعرت به حين نظرت إلى امرأة شابة فعرفتها. وقال لنا مدير الإنتاج إنها نجمة صغيرة تعمل في شركته. وكان أكثر اهتمامي بوجهها الجميل الصغير وعينيها الواسعتين بلونهما البني الباهت. وكانت قامتها من القصر بحيث أصبحت عضوًا بنادي الـ «ترانزستور» كما قالت لي، ويشترط في أعضائه جميعًا أن تكون قامتهم أقل من خمسة أقدام. ومع ذلك كانت قامة هذه الفتاة «الترانزستور» أقل من ذلك. وعندما وقفت في الفيلم بجانب صاحبنا «تورو» المكتمل النمو، والذي تبلغ قامته ست أقدام، كان على حق حين ألقى عليها نظرةً من عل، وضحك منها قائلًا: «إنني أميل إليك، لأنك قصيرة القامة جدًّا، ومرحة».

وأخيرًا اكتملت مجموعة من الممثلين، واستطاعوا جميعًا التحدث بالإنجليزية أو معرفة الكلمات القليلة التي يجب أن ينطقوا بها -فيما عدا والدة «تورو» التي لم يمنعها غير خجلها من محاولة النطق بكلمة إنجليزية واحدة، ولكنها كانت تمتاز بوجه جميل جدًّا، بالإضافة إلى

أنها ممثلة ذائعة الشهرة في اليابان، حتى أننا اكتفينا منها بالتمثيل دون الكلام. وكانت قد مضت في نفس الوقت ثلاثة أسابيع، ووقعت جميع العقود وكان الممثلون يكونون جماعةً لطيفةً، فالنجمة سسيو هاباكاوا لها أعظم شهرة في العالم الغربي، وكان جميع الممثلين الآخرين نجومًا في اليابان، فيما عدا الممثلة هاركو الناضجة التي اختيرت بنوع خاص لتقوم بدور الفتاة الغواصة صائدة الحلزون البحري، والتي وقعت في حب تورو، وكافحت في سبيله ضد ستسو اللطيفة.

وحين تأهبنا لمغادرة طوكيو أخيرًا، اجتمع الممثلون، والمصورون، وجماعة العمال المنتظرين، دعانا السيد العجوز إلى وليمة في أحد بيوت الجيشا، فذهبنا إلى هناك في إحدى الأمسيات، في سيارته الخاصة بدعوة رسمية منه، وكنت قد تعودت حتى الساعة على قضاء الأمسيات في فنادق هادئة مع أصدقاء من اليابانيين. والفندق الملائم في اليابان لا يوجد مطلقًا بالقرب من الطريق العام، إذ لا بد للإنسان بعد أن يهبط من السيارة أو الحافلة أن يسير مسافة مائة ياردة على الأقل -ويغلب أن تزيد المسافة على ذلك- فوق ممر يغطيه الطحلب إلى بقعة منعزلة حيث تجد تحت الأشجار -إذا كان هذا ممكنًا- أسقفًا منخفضةً، ممتدةً فوق حجرات مفتوحة على حدائق وبحيرات صغيرة. وكثيرًا ما كنت أميل إلى مثل هذه الأماكن التي كان يدعوني إليها الأصدقاء وأساتذة الجامعات والكتاب ومؤلفو التمثيليات ورجال الأدب والقانون وجماعة النساء الموهوبات كنا نقضي مثل هذه الأمسيات في محادثات هادئة حول العادات وذكريات السلام، والحرب ثم السلام مرةً أخرى. وكنت أستمتع استمتاعًا يفوق

الوصف بالحرية الجديدة التي نتحدث بها، إذ يبدو أن بعض العوائق قد وقعت في السنوات التي تغيبت فيها عن اليابان، لا عني أنا، ولكن عنهم هم، ولا أستطيع أن أعزوها من بعض الوجوه على الأقل إلا إلى التجربة التي مروا بها مع الأمريكيين إبان السنوات الأخيرة من الاحتلال وما بعدها، فقد كان هناك كثير من سوء الفهم، ثم ساد التفاهم.

لم تكن الأمسية في بيت الجيشا كالأمسيات الهادئة بين الأصدقاء المتجانسين. ولقد وقفنا عند مطعم جديد فخم، ثم دلفنا إلى قاعة ضخمة فيها أطول مائدة رأيتها في حياتي، يلتف حولها الضيوف الذين أكدت لنا مضيفتنا أنهم أسمى مجموعة في طبقتهم. وهناك قدمونا إلى أمير عجوز تحيط به فتيات الجيشا، وقد اجتمع منهن عدد كبير. ثم قدمونا إلى وزير من الوزارة القائمة، ثم إلى مارد شاب يبلغ طوله سبع أقدام وعرضه ثلاث أقدام، وهو بطل المصارعة في اليابان... وهكذا، وهكذا. وكان يحيط بكل ضيف من الذكور عدة فتيات من الجيشا، حتى أنا أعطيت منهن اثنتين، إحداهما عن يميني والأخرى عن يساري.

وكانت فتيات الجيشا المدربات يقمن بتسليتنا بالرقص التقليدي والغناء بين أطباق الطعام، ومع ذلك فقد كان الشيء الجديد فتاتين صغيرتين ساحرتين كانتا من أروع ما رأيت من السحرة على كثرة من رأيت منهم في كل بلد من البلاد لأنني أعجب بهم. وتختلف هذه الفتيات عن الجيشا في أنهن يرتدين الملابس الغربية، ويتركن أذرعتهن عاريةً حتى أكتافهن، فلم يكن هناك إذَنْ مجال للتفاهات كإخفاء أرانب ودجاجة وأوعية ماء في أكمامهن، وكن يقمن فقط بحيل تدعو إلى

العجب، لا أعرف مطلقًا عنها شيئًا.

وبعد أربع ساعات ممتعة انتهت الليلة، وعندما أفكر في أحداثها لا أجد في ذهني منها إلا قليلًا. ووصفت لي زوجة السفير الأمريكي، أثناء وليمة غداء أقامتها لتكريمي، الثياب الرسمية التي يلتزم بارتدائها الأجانب الذين يلون أي وظيفة في بلاط الإمبراطور أو قصره، وأخبرتني أن هذه الملابس يجب أن تكون طويلةً ذات رقبة عالية وأكمام طويلة. وسألت في آخر النهار صديقةً يابانيةً ذات عقل متزن عن سبب ارتداء النساء الأجنبيات ثيابًا عالية الرقبة، فأجابتني بسرعة ودقة: «يحدث هذا حتى لا يرتبك الإمبراطور إذا وقع نظره على صدورهن عاريةً عندما ينحنين له».

وفي ليلتنا الأخيرة، عندما انتهت جماعة الجيشا، جلست في الظلام إلى نافذتي قبل أن أنام، وتطلعت إلى المدينة المتألقة. كتلة من المباني الحديثة البراقة يقوم بينها المرتفع القديم الذي يحيط بالقصر الإمبراطوري. حقيقة إن هناك هوة سحيقة بين القسم القديم والقسم الجديد الذي يعتبر يابان العصر الحديث، وأذكر محادثةً تليفونيةً مهذبةً في ذلك الصباح حين اتصلت برئيس شركة كبرى من شركات الأفلام الأخرى، فكان من الرقة بحيث سمح بإعارتنا أحد نجومه الشبان ليمثل دور صاحبنا تورو وهو مكتمل.

وبذلك كان هذا المدير أيضًا جديرًا بالذكر. وهو رجل صغير نحيل الجسم مليء بالنشاط، عيناه حادتان، رشيق الحركة.. وقد عبرت له عن امتناني، فقال: إنه يريد نجاح الفيلم. ولاحظت في تلك اللحظة معبدًا

بوذيًّا مصغرًا مثبتًا بالحائط على مسافة مرتفعة؛ لأنه بوذي متزمت كما عرفت. وتحدثنا لبضع دقائق عن هذه الديانة الكبرى القديمة، وتذكرت أن والدي العالم كتب مرةً رسالةً طويلةً في موضوع البوذية بوصفها مصدرًا لا شك فيه من مصادر العقائد المسيحية؛ إذ إن هناك ثلاثين وجهًا من وجوه التشابه بينهما، وقد ذكرت شيئًا منها لهذا الياباني البوذي البارز فتأثر بذلك تأثرًا عميقًا، وقال إن والدي أصاب كبد الحقيقة، فهناك أشياء كثيرة مشتركة بين الديانتين، وأن هذا التشابه لم يكن بمحض المصادفة فيما يعتقد، بل بسبب تجربتهما المشتركة في التاريخ.

وفي اليوم التالي، وهو يومنا الأخير، اتبعنا العادة الصينية بإقامة حفل للممثلين والعمال قبل رحيلنا إلى مغامرتنا الكبرى. فازدحمت القاعة الكبرى التي استأجرناها من الفندق، وحضر جميع ممثلينا ومصورنا الذي لا شك في أن الآلهة أرسلته إلينا، وفنان الماكياج الذي قيل لنا إنه أمهر فنان من نوعه في اليابان، وغيرهم كثيرون. وقد ألح مكاتبو الصحف في الحضور، وكان لهم ما أرادوا.

كان ممثلونا الأطفال يرتدون أحسن ملابس الحفلات، مثل ستسو الصغيرة وتورو الصغير ويوكو الصغير، والكبار الذين ذكرناهم. وقد اختلت زهوًا في الواقع بجميع ممثلينا دون استثناء، فقد امتازوا بالوسامة وتقمصوا أدوارهم، كما كانوا متحمسين. وابتهج كذلك شركاؤنا في الإنتاج حتى مدير الإنتاج نفسه الذي مكث معنا طوال الحفل، وألقى حديثًا باليابانية، كان لا شك حديثًا ممتازًا، لأنه حظى بالهتاف المرتفع.. وكذلك تحدثت نجمتنا سيسو هاياكاوا باليابانية، وسجل مندوبو

الصحف ملاحظتهم، وومضت آلات التصوير تطقطق مرات ومرات، واستمر الاحتفال على هذا المنوال، وقدم فيه الشراب بوفرة، وسرعان ما عرف الجميع بعضهم بعضًا.

لقد كان حفلًا رائعًا، وخرجنا متثاقلين عند رحيلنا، وقلنا إلى اللقاء ونحن على ثقة أننا سوف نتقابل مرةً أخرى بسرعة لنعمل معًا في «الموجة الكبرى». وقلت لنفسي في تلك الليلة: «غدًا -غدًا، لربما تضيء جميع الأيام المقبلة ساطعةً كما أضاء هذا اليوم».

ومرةً أخرى لم أتجول وحدي بالليل، بل فتحت النافذة بدلًا من ذلك، وأرسلت إلى الفضاء رسالتي السرية محملة بالحب. فأينما كان هو، فإنه قد يسمعني، أو هكذا رأيت في حلمي؛ لأن راحةً جديدةً هبطت على قلبي، وجلبت إليَّ أول إيعاز بالسلام المنتظر. وكانت منحته لي.

* * *

(٣)

وصلنا إلى مدينة «أوباما» المبهجة بعد رحلة سبع ساعات بالطائرة والقطار والسيارة، وكان الليل قد انتصف عندما وصلنا إلى فندقنا وفراشنا المهيأة على الطريقة اليابانية، الموضوعة على الأرض على حصائر «التاتامي» وكانت تبدو فراشًا مريحةً.. والفندق ياباني لحمًا ودمًا، من حيث الطعام وكل شيء.. فندق كبير، مريح في معاملته إلى درجة من الترف..

ومرةً أخرى آوى إلى فراش ياباني.. حشية سميكة موضوعة على الأرض، حشية لينة ذات أغطية ووسائد ولحاف مكسو بالحرير، كلها نظيفة لا تشوبها شائبة تكفل الارتباط الوثيق بين الصلابة واللين الضروريين للنوم البالغ الهدوء.. وهناك فيما أظن اطمئنان خاص في النوم على الأرض قد يرجع إلى عدم وجود شيء يمكن السقوط من فوقه. والنائم القلق قد يطرح ذراعيه أو ساقيه، بل ربما يدور ويتقلب، ولكنه يظل في نفس المستوى.. إنه الأمن الذي يشعر به الكائن الحي دائمًا وهو على أرض ثابتة.. الاتصال بقاعدة منبسطة، والأطفال يعرفون ذلك بالغريزة، وهم لذلك ينامون أعمق نوم حين ينامون على بطونهم، فإذا ما استيقظوا، أو حتى حلموا، بأنهم يشعرون بأيديهم وأرجلهم تلامس شيئًا

صلبًا بدلًا من تشبثها بالهواء. ومهما كان الفراش ضيقًا فإنه إذا وضع على الأرض يبدو متسعًا، هذا بالإضافة إلى الانتفاع بالمكان!! إن غرفة النوم تتحول أثناء النهار إلى غرفة جلوس بعد أن يطوي الفراش ويوضع في خزانات، وفي هذا استخدام حكيم للفضاء في بلاد صغيرة المساحة مزدحمة بالسكان.

ونمت عميقًا، ولكني استيقظت مبكرةً، متشوقةً إلى رؤية المواقع التي اختيرت لالتقاط صور الفيلم. وكان الوقت متأخرًا عندما وصلنا، ولم أعرف ما ستكون عليه المناظر من النوافذ الواسعة بشرفتي الصغيرة التي تطل عليها حجرتي.. إنها تواجه الجنوب، وتطل على خليج مقوس تحيط به جبال خضراء. ويمتد الشارع بين الفندق والبحر، وتحت نوافذي بركة كبيرة ماؤها ساخن يتصاعد منه البخار، وهي حرارة طبيعية؛ لأن أوباما عين معدنية شهيرة ذات ينابيع طبيعية حارة.

وسرعان ما تحركت، حتى أزيحت الدريئة «الشوجي» المغطاة بالورق، ودخلت خادمة يابانية صغيرة باشة الوجه ترتدي «يوكاتا» زاهيةً، أي كيمونو من القطن، فركعت وانحنت، وثرثرت باللغة اليابانية وهي تزيح الفراش. ولم تمض غير دقائق قليلة حتى تحولت حجرة النوم إلى غرفة جلوس مكونة من نضد منخفض مصقول في الوسط، ووسائد للجلوس ومسند أتكئ عليه، ومظلة «توكونوما» تحمل في تجويفها زهريةً رشيقةً بها أزهار نضرة، ولوحة لمنظر طبيعي بريشة فنان ماهر.

وقالت الخادم بلغة الإشارات: «طعام الإفطار.. سيكون معدًّا على الفور».

فأومأت إليها، وهبطت بضع درجات إلى الحمام، حيث اغتسلت على الطريقة اليابانية، وكان الماء في البركة الصغيرة في درجة الحرارة الطبيعية ومنعشًا للغاية، يبعث النشاط دون أن ينهك القوى. وكان الإفطار مكونًا من بيضة واحدة وبعض الفاكهة والسمك المملح والأرز. وقد شعرت بالجوع من أثر الاستحمام بالمياه المعدنية. ورحلنا بعد الإفطار في سيارة... وهنا أتمهل لأقول إن السيارات اليابانية غريبة كسائقيها، فهي ملائمة للأرض الوعرة والطرق البرية الخطرة. وفي اليابان عدة طرق جيدة تزيد كثيرًا على ما أذكره منها في زياراتي القديمة، ولكن هذه السيارات تجري في الطرق الوعرة الضيقة، أو الطرق الممهدة بالأسمنت والأسفلت بنفس القوة.. ومعظم الطرق ضيقة لا يسمح اتساعها بالمرور المريح. وبعضها -وليس هذا البعض بالقليل- لا يسمح بمرور السيارات مطلقًا. وإذا تقابلت سيارتان وجهًا لوجه في مثل هذا الطريق، فإنهما تتوقفان وينعم كل من السائقين النظر في الآخر، ويفكر أحدهما عاجلًا أو آجلًا في أنه أضعف من صاحبه، فيتراجع بفطنة إلى أن يعثر على زاوية يستطيع أن ينتظر فيها، ويدع الآخر يمضي في سبيله. أما سائق الحافلة أو عربة البضائع، فإنه لا يعير الأمر اهتمامًا، بل يكتفي بالانتظار إلى أن تخلي السيارة الأخرى الطريق، ويتظاهر كمن صنع به معروفًا، فلم يقذف به إلى أسفل الجرف. ويبدو أنه لا بد من وجود جرف على الأقل على جانب كل طريق من طرق اليابان، وكثيرًا ما يشرف كل من جانبي الطريق على منحدر جرف لا تحول دونه قضبان حاجزة أو وقاية، والسبب في ذلك، فيما أظن -أن جميع الطرق تجري حتى قمة جرف

فوق البحر، فلا فائدة إذَنْ تُرجى من تخيل وضع قضبان واقية، إذ يجب أن يُعنى الناس بأنفسهم. ويصدق نفس هذا المبدأ على قيادة السيارة وسط المدن والقرى، وبين جموع راكبي الدراجات. ونتيجة لذلك كله ضرورة اهتمام الناس بأمر أنفسهم، وتعليم أطفالهم، ولذلك فإن عدد الحوادث قليل بصورة ملحوظة، إذا قورنت على الأقل بالمخاطر!

... قضينا نحو ساعة بالسيارة وسط ريف جميل أقرب إلى الخيال، فانتعشت جميع ذكرياتي؛ لأنني عشت في كيوشو شهورًا في وقت ما أثناء تحقيق سابق، فما أوضح ما أتذكر هذه الجبال ذات القمم المسننة التي تعودت استقبال رذاذ المطر المفاجئ، وهذه الشطآن المتماثلة والصخور التي مزقتها المياه وهذه القرى المحتمية، وراء الخلجان الصغيرة، وبيوت الزراع ذات الأسقف المصنوعة من الغاب، التي يبلغ سمكها ثلاثة أقدام، والحقول المدرجة التي ترتفع درجةً بعد درجة على جوانب التلال، بل وتصل إلى قمم الجبال! لم يتغير شيء! ولذلك طرحت من ذهني مدينة نجازاكي التي دمرتها القنبلة الذرية، وكانت منا على مسافة قريبة جدًّا، ولأن اليابانيين أنفسهم طرحوها أيضًا من أذهانهم وبنوا مدينةً جديدةً.

وذهبت لزيارتها فيما بعد، فوجدتها مزيجًا من القديم والحديث كرمز لجميع بلاد اليابان في هذه الأيام -والجديد فيها هو النصب التذكاري لأولئك الذين ماتوا عندما سقطت القنبلة الذرية الثانية، أما القديم فهو ذلك البيت الذي شُيد على التل الذي زاره «بونشيني» عند كتابة قصته «مدام بترفلاي». وقد أصبح هذا البيت الآن منطقةً سياحيةً لا نصيب لها من المحافظة الدقيقة، ولا حتى من النظافة.. ولقد تكررت هذه القصة

كثيرًا، فات الآن أوانها تمامًا؛ لأن الجنود الشبان من الغربيين يتزوجون من حبيباتهم اليابانيات، فإذا لم يفعلوا، فإن ميكي تقوم برعاية الأطفال.

ليس بين القديم والحديث ما يبعث على الفزع أكثر من دعوتك مصادفةً، في معظم الأحيان، في أحد أيام الصيف الحارة، إلى تحية الإمبراطور والإمبراطورة بمدينة «فوكيوكا»، وهي مقابلة كانت في العهد السابق مستحيلةً، حين كانت هاتان الشخصيتان في مصاف الآلهة، مقابلتهما بعيدة المنال، ولا نقول مستحيلة الحدوث. ومع ذلك فقد وقفنا للترحيب والانحناء لهاتين الشخصيتين الرفيعتي القدر. وهبطا من القطار في ثياب غربية، يبدو عليهما الرقة وبعض التعب. ولربما لم يكن الإمبراطور رجل عمل يميل كثيرًا إلى السرور، أو أن زوجته زميلة معينة تتصف بحنان الأم، إلا أن ثوبها كان طويلًا وقبعتها مشكلة من المشكلات. وإنني لأتساءل عما إذا كانا يذكران بالحنين تلك الأيام السالفة حين كانا يعيشان منعزلين لاهيين على «الأولمب».

* * *

لا أستطيع أن أنكر أن دقات قلبي قد أسرعت عندما اقتربنا من قرية «كتسو»، حيث كان يقيم صاحبنا «تورو» الصبي صياد السمك، فمنذ مائتي عام اكتسحت قرية كتسو موجة مد تركتها قاعًا صفصفًا، وكان من اليسير أن تعرف ما حدث؛ لأن قرية الصيد الصغيرة هذه تقبع كالعتبة بين جبلين، وأيسر من ذلك أن يتتبع المرء قرية كتسو إلى أعلى حتى يصل إلى القمة وما فوقها، ولا بد أنها كانت ماثلةً في ذهني حين كنت أكتب قصة «الموجة الكبرى»؛ إذ كانت هذه القرية ملائمةً كل الملائمة للقصة، ولقد أعاد بناءها في نفس المكان بعد موجة المد السكَّان اليابانيون الشجعان،

ومع ذلك فإن قريتهم ستتلقفها موجة باردة أخرى، إن عاجلًا أو آجلًا، فهي معرضة اليوم للتهلكة كما كانت منذ قرنين مضيا.. بيوتها على نفس الشكل وبنفس البناء، مقامة على نفس الطراز، ممتدة على الشاطئ، ولكن ليس بها نوافذ تطل على البحر..

لقد عرفتها، عرفت كل خطوة فيها أثناء هبوطنا مجتازين الممر الضيق المتعرج إلى القرية... فهنا كانت البيوت، وهنا كانت الشوارع الضيقة التي لا يزيد اتساعها على ثلاثة أقدام.

ولا شك أن أي عربة لم تكن تستطيع المرور فيها، وقلما يستطيع ذلك شخصان جنبًا إلى جنب، وعلى الدرج المهشم هبطنا إلى البحر يتبعنا ستة وعشرون طفلًا بالضبط؛ لأنني أحصيتهم حين وقفنا ببيت «تورو». وهناك أيضًا كان البيت كما رأيته تمامًا في كتابي، بل كان هناك الجد، الباش المبتسم العجوز يلوح لنا من فوق الجدار، وكان قد تخطى عهد الصيد. ويقوم بناؤه آنئذ وأحفاده بهذا العبء، أما زوجته فقد ماتت كما قال لنا. وتعني زوجة ابنه، وابنته الكبرى بشئون البيت، فتجففان السمك وتملحانه، وترفعان الماء من البئر عند الشاطئ...

تجولنا في القرية راضين أعمق الرضا، لأنها كانت القرية الملائمة أشد الملائمة.. شباك الصيد تجفف على الشاطئ، البيوت تحتضنها التلال المدرجة، مقبرة قديمة فوق أحد هذه التلال، بل كانت هناك مجموعة الدرج الحجرية نستطيع أن نجعلها مدخل بيت السيد العجوز القائم على الجبل فوقها.

لم يكن من المستطاع إيجاد شيء هناك أصدق ولا أكثر ملاءمةً من هذا.

ومضت الساعات، وحان وقت الغداء، فطعمنا في مطعم شهير بأكلة ثعبان البحر.. وهنالك صعدنا مجموعتين من الدرج إلى غرفة فسيحة جيدة التهوية حيث أكلنا شواء ثعبان البحر بالأرز، وشربنا الشاي الأخضر، وهنأنا أنفسنا إذ وفقنا إلى اختيار موقع لتصوير الفيلم..

وخشيت أن أزور الموقع التالي واعترضت على ذلك، لما ساورني من خوف.. لقد كان الموقع التالي قصر السيد العجوز، وهو عالم من ملاك الأرض. ألا يمكن أن نجد هناك عائلةً تعيش في مثل هذا البيت وترغب في تأجيره لنا؟ لا بد سيتوافر لنا هناك الفضاء والجمال والفخامة، كل ذلك في حدائق رائعة.. وقطعت الأمل فيما بيني وبين نفسي، وتعللت بشتى العلل ونحن نجتاز طريقًا ريفيًّا..

ومع ذلك فقد أصبح المستحيل ممكنًا كما يحدث هذا غالبًا في اليابان، ففي اللحظة التي رأيت فيها البيت ونحن على الطريق، عرفت أنه بيت السيد العجوز، بصرف النظر عمن يعيش فيه، فدلفت من الباب الخارجي لأجد نفسي في حديقة جميلة عاطلة من الأزهار؛ لأن الحدائق اليابانية قلما تكون حدائق أزهار، وسرت في طريق متسع من أحجار غير منتظمة الشكل بصورة غير عادية، يؤدي إلى المدخل الرئيس، وعلى الجانبين خضرة دائمة، وشجيرات قصيرة، ونبات السرخس والأركيديا غير المزهرة.. كل ذلك كان يُضفي على المكان منظرًا طبيعيًّا.. ووقفت بالباب سيدة ترتدي كيمونو أسود جميلًا، انحنت لنا انحناءةً شديدةً قابلناها بقدر ما يستطيع الأمريكي من الانحناء.. وسألتها عما إذا كنت أستطيع مشاهدة بقية الحديقة.. كانت هناك بركة ليست بالكبيرة، ولكنها

مصممة بحيث تمثل مناظر البحيرة الكبيرة. وكانت هناك قنطرة تؤدي إلى ممر ضيق وسرادق منصوب بين الأشجار.. لقد رأيت كل شيء من وجهة نظر السيد العجوز.. كانت الحديقة.. على الطراز الذي يجب أن يكون لديه بالضبط، وقد توقعت أن نجده في بيته ينتظرنا..

ولكنه مع ذلك لم يظهر، ولم يكن هناك غير السيدة الجميلة التي رحبت بنا في البيت، وقادتنا من حجرة إلى حجرة كلها فسيح ومزخرف بذوق جميل. كان عمر بيت المزرعة ثلاثمائة عام، أما هذا فقد كان بيت صاحب الأرض، ولم يمض على بنائه سوى أربعين عامًا تقريبًا، ليحل مكان البيت القديم. والسيد العجوز، كائنًا من كان، رجل ثري ذو ذوق سليم، فقطع الأثاث المنتقاة، والأشياء الفنية الموجودة تحت مظلات التوكونوما كلها كانت من اختياره أيضًا.. وهناك غرفتان من الغرف مؤثثتان بالسجاجيد المفروشة فوق «التاتامي» وبالمقاعد والمناضد كلها على الطراز الغربي، ولكنا تجاهلنا ما رأيناه لدى السيد العجوز من مظاهر حديثة، وبقينا في جانبه الياباني.

وقدمتنا السيدة إلى ابنتها، وهي سيدة شابة لا يرقى جمالها إلى نصف جمال أمها، ترتدي ثوبًا من الطراز الغربي لا يلائمها، ولكنها رغم ذلك كانت لطيفةً للغاية، حتى إنني تأثرت تأثرًا قلبيًّا عميقًا حين سمعتهما تحتجان بعد أن ألقيت كلمة تقدير لهما، بأنهما تعتبران استخدام بيتهما في تصوير فيلمي شرفًا لهما. وقالت السيدة إنها ترغب في إقامة حفل شاي يومًا ما تكريمًا لي، فقبلت دعوتها شاكرة. ثم قدمت لنا الشاي في كؤوس صغيرة جدًّا، فأدركت أنه من صنف ثمين قبل أن أذوقه، وقد

كان حقًّا من صنف ممتاز قلما يقدم للغربيين، ولذا أشفقت أن أشربه فينفد، ولكنه كان لذيذًا جدًّا، ألذ من أي نوع آخر أشربه عادةً من الشاي، حتى إنني لم أملك إلا أن أرشفه أثناء امتداحي له. وتأثرت بتقديري له فأحضرت إبريق الشاي الصغير الثمين، وصبت ملء قمع الخياطة من هذا الإكسير.. إنه شاي نادر مصنوع من بواكير أوراق الشاي الطازجة التي تجمع في الربيع، وتساوي الأوقية الواحدة منه دولارًا أمريكيًّا، وهذا يساوي الكثير من العملة اليابانية. إنني لواثقة من أنها لم تقدمه حتى لضيوفها اليابانيين كثيرًا، وإنما كانت تقصد بتصرفها هذا نحونا أن يكون بمثابة هدية، فتقبلته بهذا الوصف..

وبينما كنا نتحدث، أنا الإنجليزية وهي باليابانية، وبيننا المترجمة، سألتني عما إذا كنت أسمح بتسجيل المحادثة بوساطة المترجمة لابنها الذي يدرس اللغة الإنجليزية، فوافقت بطبيعة الحال، وسرني أن أرى شريط تسجيل من أحدث طراز كان مخبأً حتى هذه اللحظة وراء الوسادة!

وأخيرًا قلنا وداعًا مصحوبة بانحناءات كثيرة، ووعدنا بالعودة السريعة، كما تعهدنا بالعناية، فلا نكسر شيئًا في البيت أو نفسد شيئًا في الحديقة. لقد كانت سيدةً كريمةً للغاية، فدعتني إلى ترك الفندق والإقامة معها، ولكني أخبرتها بضرورة وجودي مع بقية الجماعة، ومع ذلك شكرت لها دعوتها..

لم يبق الآن إلا أن نرى بيت المزرعة والشاطئ الخالي.. إن الشاطئ يمكن أن تؤجل مشاهدته لاقتراب هبوط الظلام، أما بيت المزرعة فكان لا بد أن نراه، وسرنا مجتازين إحدى القرى، فعرفته بين الحقول

والطريق. كان بيت المزرعة يقوم بين المدرجات، وهو نفسه مشيد فوق مدرج واسع منها، الطريق أمامه على ارتفاع عشرين قدمًا من حقل الأرز، وأمام واجهة المنزل سور قديم من الآجر، ولكن الباب الخارجي الواسع كان مفتوحًا فدلفت إلى دنيا قصتي.. حقًّا كان هذا هو البيت المنشود... بسيط ولكنه فسيح، جدرانه خشبية، حجراته تفصلها «الشوجي» بعضها عن بعض، سطح منحدر تقادم عليه العهد حتى نمت عليه الحشائش والأزهار. وفيه كتاكيت وعنز، وحديقة خضر صغيرة وبعض شجيرات الزينة، وصخور الزينة ومطبخ لطيف عتيق. وشرفة ضيقة. وبركة صغيرة لغسل الأرز والخضر. والفلاح نفسه أرمل مشرق الوجه، يعيش مع ابنة له متزوجة ترعاه وهو محق في ذلك.. فكان هو البيت الملائم إلى أبعد حد. وخير من كل هذا، أن أسرة المزرعة كانت معاملتها وديةً، تتوق إلى معاونتنا. وقد سألونا: متى سنأتي؟ أفي الغد؟ حسن –حسن – لقد كان البيت بيتنا.. حقًّا، لقد كانت لديهم الكهرباء، ومضخة في المطبخ. وقال الفلاح بزهو إنها مزرعة حديثة، وكان يسره لو رآه الأمريكيون كيف يدبر كل شيء. وقال قبل أن نرحل: من فضلك، الشاي!! ولم يتركنا نذهب قبل هبوط الظلام، وكان العمل يبدأ في السابعة من صباح اليوم التالي، فكانت كل ساعة نقضيها في تصوير الفيلم في ضوء النهار ذات قيمة.

ولاحظت عند مغادرتي المكان أن أصوات الدجاج واضحة إلى أبعد حد، والظلام فقط هو الذي أسكتها، ولكن نقنقتها المتنافرة وصيحات إهاجتها وانتهاك حرمتها عندما نتحرك في اليوم التالي، لا شك ستكون أساسًا موسيقيًّا لكل منظر نلتقطه في بيت المزرعة.

لقد تأخرنا للأسف بسبب المطر، المطر.. وفي الوقت الذي بلغنا الفندق في تلك الليلة، كان المطر لا يزال ينهمر.. كنت أخاف المطر؛ فهو خطر دائمًا على التصوير السينمائي في المواقع الخارجية، وبخاصة في جو جنوب اليابان حيث يكون البحر والجبل جارين متقاربين، فإذا هبت الرياح من البحر صفا الجو، وإذا هبت من الأرض هطل المطر... تذكرت هذا عن عهد قديم جدًّا.. وبينما كنت راقدةً في فراشي الياباني أتسمع لصوت المطر وأنتظر النوم، أخذت أتأمل مراحل حياتي العجيبة.

* * *

ليس أبعد عن التصديق من أنني طوال النصف الأول من حياتي لم أعرف أنه موجود! فحين كنت هنا من قبل، أين كان هو؟ والآن، وأنا هنا للمرة الثانية، أين هو الآن؟ بين هاتين الفترتين خمسة وعشرون عامًا كاملة من الحياة، جوهرة وضعت في الأبدية من قبل ومن بعد. ويحدق بي السؤال القديم مرةً أخرى كما يحدق بكل كائن بشري عرف أن الموت أصبح قريبًا منه كثيرًا. وتشبثت بمقاومة الموت الذي لا يرحم..

هل هناك حياة وراء هذا العالم؟

لقد تذكرت شجاعته في الحياة، فكثيرًا ما نتناقش حول المستقبل الذي لا بد لأحدنا أن يعيش فيه وحيدًا!! وكم يكون من الخير لو أمكن أن نموت معًا وفي نفس اللحظة ونجتاز الحاجز المنيع يدًا بيد! لقد عرفت منذ سنتين أنني سيقدر لي البقاء من بعده، مع ما ورثته من طول العمر الذي امتاز به أسلافي من أسرتي، أمي وأبي. وكان السؤال الذي يساورني هو هل ينبغي أن أتذكر احتمال استمرار الحياة فيما وراء هذا العالم، أو

أطرح هذا الاحتمال جانبًا وأعيش كما لو كانت الأبدية قائمةً الآن –وهذا صحيح في معنى من المعاني حيث لا توجد بداية أو نهاية جميع الأشياء اللانهائية. وإذَنْ فما هي العزلة الراهنة التي أعيشها؟ أهي نهاية شيء كان، أم هي بداية شيء لم أعرفه بعد؟

هل عرف أنني هنا في اليابان؟ وهل لا يزال يطوف بالبيت في أرض الوطن، بجوهره هو نفسه؟ وإذا كنت هناك فهل كنت أدرك حقيقة وجوده؟ وبينما كنت مستلقيةً هنالك على فراشي الياباني، كان صوت البحر الثائر يختلط بصوت هطول الأمطار على السطح المغطى بالقرميد، كنت أسارع الحنين القوي إلى الذهاب والبحث عنه أينما كان. لإنه هو نفسه لا بد كان يبحث عني كذلك. لقد كان يساورنا القلق دائمًا حين نفترق، ولكن ما هي المسالك؟

أتذكر ليلةً كنت في «ساردي» بنيويورك مع صديق من هوليوود قابلت زوجته لأول مرة، وبينما كان زوجها يتحدث في موضوعات أخرى مع ضيوف آخرين، كانت تتحدث زوجته معي في شيء من الاستحياء. سيدة لطيفة من «ميدوست» وليست بحال من هوليوود. كانت شديدة الحياء أول الأمر، ثم خفضت من صوتها بدافع ما؛ لكي تخبرني برغبتها في التحدث إليَّ «حديثًا واقعيًّا»، ويبدو أن تغيرًا شخصيًّا غريبًا طرأ عليها في الشهور الأخيرة، وذلك أن والدها الذي كانت شديدة الالتصاق به، وقد عاش معها سنوات عديدة، قد مات أخيرًا فقلقت عليه، وكانت تتساءل مندهشةً عمَّ إذا كان هو نفسه لا يزال في مكان ما، وإذا كان الأمر كذلك، فهل هو سعيد؟ وفي غمار هذا القلق غشيها الاكتئاب وزايلها المرح.

وروت لي أنها في إحدى الأمسيات، وكان زوجها قد تأخر في العمل، كانت تجلس وحيدةً تقضي الوقت في عمل مخرم «الكروشيه»، منكبةً عليه كعادتها، حزينة على والدها، إذ بها تفاجأ بسماعه ينادي اسمها، فما إن رفعت نظرها حتى رأته في الجانب الآخر من الغرفة أشد ما يكون وضوحًا.

وقال لها بصوته الآمر المعتاد: «كفي عن هذا القلق.. إنني على خير حال -بل إنني لسعيد في الواقع».

فسألتها: «هل كنتِ خائفةً؟».

«وهل أخاف من أبي؟ لا!».

«ولكن هل كان هو بذاته؟».

فقالت: «هو بالذات»، ثم أضافت وهي تصف مرتبكةً: «فيما عدا أنني كنت أعرف أنه، وإن كان موجودًا هناك، إلا أن جسمه لم يكن موجودًا».

«وهل رأيته مرةً أخرى؟».

قالت: «نعم، عدة مرات، وإن كنت لم أنزعج بعد ذلك، وأحيانًا عندما نكون، جاك وأنا، جالسين في البيت هادئين في ليلة من الليالي، هو يقرأ، وأنا أشتغل في المخرم، أشعر بشخص آخر هناك، وأرى والدي يبتسم لنا».. وسألتها: «وهل يراه جاك؟».

لقد سألته مرةً: «هل ترى والدي هناك يا جاك؟»، فأجاب بالنفي. إنه لم يره، ولكنه يعتقد أنني أراه؛ وذلك لأن في الريف القديم -من حيث قدم هو- أناسًا مثلي يمكنهم رؤية ما وراء هذا العالم».

حقًّا... وأذكر أنني فكرت فيما روته لي ابنتي الكبرى التي تبلغ من العمر أربع عشرة سنة، يومًا بعد تشييع الجنازة وقد أرادت احتلال غرفته بعد إخلائها؛ لأنها ملاصقة لغرفتي. ونامت فيها بهدوء تام في الليلة الأولى، وأذكر ذلك لأنني سألتها عما إذا كانت ترغب حقيقةً أن تنام فيها بهذه السرعة.

فقالت: «إنني لا أريد أن تظل الحجرة خاويةً».

وفي صبيحة اليوم التالي قالت لي بلهجة طبيعية تمامًا أثناء تناول طعام الإفطار: «لقد جاءني والدي في هذه الليلة الأخيرة، وكان يبدو رائعًا -أصبح على أحسن حال، وغاية في الابتهاج.. لقد رجع لكي يرى فقط أن كل شيء يجري على ما يرام».

وكَبَت فكرة الشك وسألتها: «هل تحدثت إليه؟».

«لا، لقد ابتسم لي فقط».

وسألتها: «وماذا كان يرتدي؟».

قالت: «أظنها سترة التدخين القطنية الحمراء».

وكانت هذه السترة مهملةً منذ خمس سنوات، حين نسي كل ما يتصل بالتدخين، هذا على الرغم من تفضيله إياها.

هل أصدق هذا؟ إن صدقت فلا يكون هذا إلا لاعتقادي أننا في يوم ما سنعرف كما يعرفوننا في العالم الآخر، وستكون اتصالاتنا واضحةً... إن قوانين علم الطبيعة تكشف لنا القوانين التي تحكم الوجود الخالق، والدين المطلق على القوة الخالقة اسما هو «الله» الذي ننتظره.

وهناك في ظلام الليل، بالقرب من بحر اليابان، توسلت إليه أن يدعني أعرف بإشارة خاصة منه، أنه يعيش في مكان ما، ويخبرني فقط أنه هو بذاته، ولكنه لم يفعل. ومع ذلك فهو هنالك وأنا هنا، إذ ليس لدينا موجة من نفس الطول. فهل هذا يقين؟ إن ثقافتي محصورة في علم الطبيعة. وهناك مدرستان تعالجان هذا الموضوع: إحداهما تعتقد أن غير الممكن يظل مطلقًا ما لم يثبت أنه ممكن، وإلى أن يثبت أنه ممكن، وتعتقد الأخرى أن الممكن يظل مطلقًا ما لم يثبت أنه غير ممكن، وإلى أن يثبت أنه غير ممكن. وأنا أتبع هذه المدرسة الأخيرة، وإذَنْ فإن جميع الأشياء ممكنة إلى أن يثبت أنها مستحيلة -وحتى المستقبل يمكن أن يكون كذلك في الحالة الراهنة فقط..

وعلى هذا النحو واصلت حياتي التي كنت أحياها على مستويين منفصلين، أحدهما بالنهار والآخر بالليل، في البحث عن مأوى لم تصنعه يد إنسان...

* * *

تساقطت الأمطار حتى كأنها لن تنتهي.. ظلت تهطل ثلاثة أيام دون توقف، واختفت الجبال وراء ستار الأمطار، وهدد البحر وهو يتكسر على الصخور. وتطلع كل منا إلى الآخر في هلع، كأنه يسأله ماذا تكون النتيجة إذا استمرت الحال على هذا المنوال؟

وقال الأمريكي عاتبًا عليَّ: «أظنك قلت إن موسم الأمطار في شهر يونية، ونحن الآن سبتمبر»..

وكنت أنا نفسي قد فزعت إلى حد ما من هذا السيل المنهمر،

وألمحت بهذا إلى مدير الفندق الذي قال إن شهر يونية هو الموسم المطير على الدوام.

فسألته: «ولكن ما هذا؟».

فأجابني الياباني: «إنه مجرد مطر»..

لا يستطيع أحد إنكار الواقع، ولذا انتقلنا إلى شئون أولى بالمناقشة، وقررنا برنامجًا للعمل اليومي في حالة توقف المطر، وأخذنا نخطط منظرًا بعد منظر ولقطةً بعد لقطة، فكان عملًا ضروريًّا انشائيًّا. وتعلمت أنا أيضًا ما لم أكن أعرف من قبل، وهو أن المرء لا يروي القصة في الصور المتحركة وفقًا للتتابع الزمني، فهو يلتقط جميع المناظر في كل موقع من المواقع دون اعتبار لمكان هذه الصور في القصة. ومن ثمَّ بقينا لأول مرة أربعة أيام في بيت المزرعة نلتقط الصور لكل شيء يتصل به وبعائلته المكونة من أربعة أشخاص هم فاذر، وماذر، ويوكيو، وستسو. وبدا لي هذا العمل مربكًا، ولكني استطعت معرفة صوابه..

وجلسنا حول المائدة اليابانية الطويلة المنخفضة مع مصورنا ومهندس الصوت. وهو مساعد المدير.. جلسنا على الأرض بطبيعة الحال، وجافى المصور الصواب كثيرًا حين اختار أحد جانبي المائدة المنخفضة. وأقول جافى الصواب لأن ساقيه طويلتان، وطويلتان للغاية فلم يستطع أن يمدهما عندما أصابه التعب من جراء الجلوس عليهما، إذ إنني تعبت فعلًا ومددت ساقي تحت المائدة..

وأتريث هنا لحظةً لبحث مسألة الجلوس على الساقين مثنيتين، فقبل مجيئي إلى اليابان في هذا العام، بعد زمن طويل جدًّا، كنت أمارس كل يوم

بأمانة ثني ساقي والجلوس على قدمي وهي عملية ليست باليسيرة، حتى إنني لم أكن أستطيعها في أول الأمر إلا لمدة ثلاث دقائق، وفي أحسن الأحوال لمدة دقيقة، وهي مدة لا تكفي لتناول الطعام الياباني.. وهو على الأقل من النوع الذي كان يقدمه لي أصدقائي. وكنت أشعر بالخجل، ولكن هذا كان أفضل ما أستطيع أن أفعل. ولكم كان سروري إذَنْ حين اكتشفت أن اليابانيين إبان السنوات التي غبتها قد أقلعوا جميعًا عن الجلوس الطويل على سيقانهم!! واستخدموا المقاعد للجلوس كلما أمكنهم ذلك.. أما الأطفال -فإن كثرةً منهم- لا يجلسون على سيقانهم مطلقًا، وقد قالت لي صديقتي هي الأخرى صراحة أنها لا تستطيع الجلوس طويلًا على الطريقة اليابانية؛ لأنها ترى هذه الطريقة ضارةً من كل الوجوه بالدورة الدموية. وهي تعزو الزيادة المدهشة في طول قامة هذا الجيل من صغار الراشدين إلى أنهم لم يعودوا يجلسون ساعات طويلة على سيقانهم مثنية. وقد يكون هذا هو السبب لأنني لاحظت دون شك الزيادة الطارئة على طول قامة اليابانيين، وحسن مظهر الناس واستقامة سيقانهم..

والآن دعني أتحدث عن المصور، وينبغي أولًا أن أصفه بالرقة والحنان وتقلب المزاج، أما في ميدانه، فقد كان فنانًا، وكان يتكلم الإنجليزية على قلة، ولكنه كان يفهم منها أكثر مما نظن بكثير. وكان من الواضح أنه مخلص في عمله، ويريدنا أن نعرف أنه يولي اهتمامه الخاص «للموجة الكبرى»، وأعتقد أنه لكذلك، وإلا فلماذا يعمل معنا؟ لقد كان مشهورًا يستطيع أن يكسب بسهولة من عمل آخر أقل مشقةً مثل ما يكسب من عملنا، ولكنه كان يروقني لأسباب أخرى، فقد كانت هيئته

ككائن بشرى أغرب هيئة شهدتها في حياتي.. فارع الطول، قدماه وساقاه وجسمه وذراعاه ويداه ورقبته، وبخاصة وجهه، كلها شديدة النحول وكان فكه منخفضًا متدليًا، ولكني لا أستطيع أن أفصل هنا تشريحه، ولا أعرف كيف أصبح في هذه الصورة، وكل ما أعرفه أنه كان يروقني وأسر لهيئته الملفتة للنظر. وكان في وجهه الطويل الشيء الكثير، حتى أنني كنت أتطلع إليه مرارًا وتكرارًا على الجانب الآخر من المائدة- ظننت وجهه حزينًا ثم ظننته غير ذلك، ولذا داومت النظر إليه. وكانت مساعدتنا اليابانية على النقيض. فهي سيدة شابة على أحدث طراز، ترتدي قميصًا وسراويل، وتصفف شعرها على طراز خلية النحل، وتتكلم اللغات الأجنبية، وسبق لها أن درست «البالية» في أوربا. وقد تزوجت حديثًا من ممثلنا الشاب «تورو» الكبير الذي منعته ارتباطاته السينمائية من أن يكون معنا حتى يبلغ الحادية والعشرين وكان ذلك أول فراق بينهما، وكان الممثلون الآخرون يغيظونها كثيرًا ويضطرونها إلى كتابة بطاقة بريدية إلى عريسها كل ساعة ويكتبون لها العنوان، وهكذا. وتقدم نفسها بكل بشاشة لمزاحهم... سيدة شابة هادئة الطبع ذكية وكفء، ولكن الشيء الطارئ الكبير الأهمية هو أنها كانت غارقةً في الحب إلى أذنيها.

ومما يؤسف له أنه في نفس اليوم الذي انقطع فيه هطول المطر، وبدأنا تصوير مشاهدنا الأولى في بيت المزرعة، سقط مصورنا في حقل أرز، ولم يكن هذا الحادث كما كان يدل ظاهره؛ لأنه وقع بعد عمل يوم لمدة اثنتى عشرة ساعة، وكنت قد غادرت الموقع مبكرةً قليلًا لرعاية عمل ما في طوكيو عن طريق الاتصال التليفوني، ثم استدعيت إلى

المستشفى حيث رأيت المصور الطويل ممددًا على مقعد في القاعة، في انتظار الكشف بالأشعة السينية. وكنا خائفين مما هو أسوأ، وذلك أنه لم يسقط وحسب في حقل الأرز خارج بيت المزرعة، ولكن حقل الأرز كان عند قاعدة جدار حجري يمتد فوقه الطريق، ولم يكن سقوطه كما تصورت، في الطين اللين بين نبات الأرز المرتفع، ولكن على صخور في قاع الحقل. هذا إلى أنه من الخير تعريف هيكله في أي وقت بأنه مجموعة من العظام الشديدة الرقة والطول، متصلة اتصالًا غير وثيق بجلد أسمر ذابل. وكان يبدو وهو ممدود على المقعد أن طوله ثمانية أقدام.

ودهش لفزعنا، ولكنه لم يشاركنا إياه، وحمل على غرفة الأشعة رغمًا منه، وقرر الطبيب بعد نصف ساعة خلوه من أي كسر في العظام... مجرد كدمات، بل وخرج المصور نفسه بادية عليه مظاهر الابتهاج إلى أقصى حد، بوجهه ذي الشكل المعين متوقعًا الفوز بإعجابنا، وهذا ما فعلناه.. وكان يبدو أنيقًا للغاية في الـ «يوكاتا» ذات اللونين الأسود والأبيض، كما سمح للطبيب أن يضع ذراعه اليمنى في أنشوطة، ولكن إلى أن يغادر المستشفى وحسب؛ لأنه أصر على الرجوع إلى عمله، وركبنا عائدين معه إلى الفندق، وأصدرنا إليه أوامر عن طريق مترجمتنا، وهي أن يكون له تابع يحمل له مقعدًا يجلس عليه أينما ذهب، ومروحة ومظلة وشراب وفاكهة.

وأصغى المصور إلى هذا دون أن يتغير وجهه.

ثم ضحكنا وجلس الشخص العجوز الجموح على المقعد الأمامي وهو مشدود الجسم وحييناه في الفندق تحية المساء، وبذلك انتهى اليوم.

* * *

يجب أن أرجع هنا إلى مذكراتي المحفورة على صفحات مستنداتي، فهي مكتوبة في كل مكان، وفي أي مكان يمثل فيه المشهد.

وتقول المذكرة الأولى: «ريش-».

«ريش؟».

نعم، إنه المشهد الذي يرقد فيه «تورو» في ذهوله الطويل بعد أن ضربت الموجة ضربتها، وانسلت ستسو الصغيرة الماكرة إلى الغرفة ودغدغته بريشة لتوقظه، وكان مشهدًا جميلًا يقطعه دخول «ماذر» التي دخلت بالبيض في سلة صغيرة يتبعها آخر ما أضفناه إلى الممثلين، وهو كلب صغير شديد الذكاء. وكان آخر ما أضيف حقيقة، بطة، ولكنها لم تكن قد ظهرت بعد بين المجموعة.

ورأيت «فاذر» أثناء تصوير هذا المشهد في ركن آخر يكرر حفظ دوره الكبير مع يوكيو. و«فاذر» فلاح طيب ينم وجهه الأسمر عن الأمانة، أما أخصائي «الماكياج» وهو أكفأ رجل في اليابان -أو هل ذكرت ذلك من قبل؟- فكان يربت وجه «فاذر» ويجفف بلطف عرقه الناشئ من التركيز. أما «ماذر» فقد كانت تابعتها الخاصة تفعل لها مثل هذا في ركن آخر. وهيأت لنا هذه التابعة فرصة للضحك إذ كانت قديرةً جدًّا في هذه الناحية، واندفعت إلى الداخل في اللحظات الأخيرة قبيل بدء التصوير، تناديهم لكي تثبت شعرةً في الوضع المستقيم على رأس «ماذر»، وإضافة لمسة أو إصلاح زاوية عينها أو حافة شفتها.

وقالت لي مذكراتي: «عندما ينتهي العمل، سيكون من المناظر السارة رؤية «ماذر» مرتدية الكيمونو الحريري الرمادي الأنيق، تسير

بطريقتها المبجلة في الطريق القذر إلى قمة الجدار المطل على حقل الأرز.. إنها ممثلة ممتازة في اليابان إلى حد ما. ومثل «فاذر» في فيلم «مشرب شاي في قمر أغسطس»، أما تورو ويوكيو فكلاهما من النجوم الأطفال... إنني فخورة بأسرة فيلم «الموجة الكبرى».

واحتل الممثلون أماكنهم، ونشط المصور، ثم صدر الأمر صديق ياباني في طوكيو، وهو من الكتاب الزملاء. وكان قد تكبد مشقة الذهاب إلى المكتبة العامة وجمع بعض معلومات عن موجات المد، من سجلات إحدى العائلات القديمة. وكتب إليَّ يقول إنه قبل أن تطغى موجة المد، يحدث دوي أجوف مخيف في البحر، ويطلق عليه اليابانيون «مدفع المحيط». وهناك علامة واحدة لاقتراب الموجة، وهي جفاف الآبار أو فيضانها بالماء الموحل، وكذلك حين تسبح الأسماك وبخاصة سمك القرموط نحو اليابسة.

بينما كنت أقرأ هذه الصفحات الساحرة، سمعت مساعد المدير ينادي لتصوير المشهد الجديد.

«يوي!».

«هومبا!».

«ستارتو!».

«باكو!».

واحتل الممثلون أماكنهم، ونشط المصور، ثم صدر الأمر النهائي من المدير.

«العمل!».

«شيسي -كاني» وكررت هذه الكلمة مرارًا وتكرارًا أثناء المناظر دون أن أفهم معناها، حتى رددها مهندس الكهرباء وهو يجأر بلغة إنجليزية ممسوخة».

«الصمت!».

وكانت النتيجة صمتًا عميقًا. ودهشت لبساطة التركيبات الميكانيكية، فمكبر الصوت كان شيئًا ملفوفًا في كيس من القطن مدلى من طرف قائم من الغاب الهندي، وكان طرف هذا القائم يخز على الدوام شخصًا ما، بقدر ما تبينت ضلوعي أنا شخصيًّا، ولكنه أدى مهمته على الوجه الملائم، حتى أنني حين استمعت إلى شريط التسجيل وهو يعاد ثانيةً دهشت لشدة وضوحه.. وقد أمكن الحصول على نتائج طيبة بوسائل بالغة البساطة، فآلة التصوير مثلًا كانت ملفوفة برقة وعناية كأنها طفل أثناء عاصفة ثلجية في «سنترال بارك». ولم أستطع تعليل ذلك لأن الجو كان شديد الحرارة، ولا شك أن آلة التصوير لم تكن تشعر ببرودة، وقد عرفت عندما تحريت السبب أن الأغطية والأحزمة لتغطية صوت آلة التصوير نفسها حتى لا يلتقطه مكبر الصوت.

* * *

أيمكن أن يفوتني أن أروي كيف احتفلت مدينة أوباما بوصولنا؟ آه، ولكن هذا لم يستغرق إلا وقتًا قصيرًا، فقد وصلنا دون أبهة أو فخامة في سيارات يابانية صغيرة وتخففنا من أحمالنا، واستقر بنا الحال في الفندق دون إزعاج. وفوق هذا كنا جميعًا من اليابانيين، فيما عدا المدير الأمريكي وزوجته وطفله وأنا. وكنا جماعةً هادئةً إذا قورنا بالأمريكيين

على الأقل. ومع ذلك ففي مدى يوم أو يومين انتشر خبر وجودنا هناك، وأنني أنا شخصيًّا هناك، وأن فيلمًا سيصور. وطلب آكابر القوم بالمدينة السماح لهم بزيارتنا، فسمحنا لهم مسرورين، فقدموا إلينا يحملون باقات ضخمةً من مختلف الأزهار، وهدايا من الفطائر الكبيرة الإسفنجية المنبسطة التي تخصصت في صنعها مدينة نجازاكي، أقرب المدن إليها، ثم دعوناهم إلى تناول الشاي معنا، فلبوا دعوتنا مسرورين، ورجونا، عن طريق الترجمة، أن نطلب منهم أي شيء قد نحتاج إليه.

وقالوا لنا: «إذا لم تطلبوا منا، فلن نعرف ما تحتاجون إليه، ولذا يجب أن تطلبوه». ووعدناهم بذلك، وتناولنا الشاي، وانحنوا لنا، وانحنينا لهم، ثم افترقنا.

في اليوم التالي علق علم كبير على جدار بالشارع الرئيس كتب عليه عبارة ترحيب بنا في مدينة أوباما باللغتين الإنجليزية واليابانية. وعلق كل فندق، رأى ألا يتقاعس عن الترحيب بنا، علمًا مماثلًا، والتقط لنا صورًا ونحن نحمل باقات الأزهار، وظلت الأعلام تخفق طوال مدة إقامتنا. وبمضي الوقت حال لون حروف قليلة بسبب الأمطار المفاجئة التي تعرضنا لها، واتخذت الأعلام بشكل عام شكلًا مرقطًا. ولكن يسعدني أن أقول إن الترحيب ظل حارًّا كما كان دائمًا.

وبمناسبة الحديث عن الحروف نبهوني إلى أن اطفال المدارس مكلفون بتعلم ثلاث لغات كلها يابانية إحداها اللغة الصينية القديمة التي لا تزال مستعملةً في الكتابة الرسمية، والثانية يابانية النطق، والثالثة اللغة الجديدة الضرورية في العصر الحديث، وهي كلمات تنطق بالإنجليزية

مندمجة في اللسان الياباني.

وعلى الرغم من هذا العبء اللغوي، فإن الأطفال تبدو عليهم معالم الصحة والسعادة طوال اليوم، فيما عدا الصبي الذي رأيته في طريقي إلى قريتنا كتسو، فقد كنا ندور يومًا ما فجأةً عند إحدى الزوايا، فإذا بنا أمام أم قوية هائجة تلطم صبيًّا لخطأ اقترفه، وعلى الرغم من ظهورنا أمام الأم، فقد أتمت عملها. وأخذ الطفل يعول بأعلى ما استطاع من صراخ. ونفضت الأم يديها من التراب، ثم ابتسمت لنا بابتهاج، بينما لاذ الطفل بركن عند الحائط لينهي نشيجه. وعادت الأم بعد ذلك إلى أعمال المنزل.

* * *

أيجوز لطم الأطفال؟ سرت على مهل وراء الآخرين في الطريق الضيق على جانب التل، بينما كنت أفكر في هذا السؤال. إنه سؤال قديم في أسرتنا الأمريكية، لم ينتهوا فيه إلى رأي. لقد قال هو إنه يعتقد في جدوى لطم الأطفال في أعمار معينة لأنهم غير مهيأين للتعليل العقلي، ويتصرفون وفق الغريزة والعاطفة أولًا وأخيرًا. وقلت إنني أبغض جميع العقوبات البدنية، وأعتقد أنها لا تنتج خيرًا قط. وكان الفرق بيننا هو أنه حين يثيرني الطفل إلى درجة الغضب، وإنصافًا لنفسي أقول إن هذا لم يكن يحدث في غالب الأحيان، ولا يحدث إلا بعد أن يثيرني الطفل إلى درجة الغضب الشديد، فحين يحدث هذا، كنت أستطيع بل وأجد فعلًا السبيل إلى تبرير لطمة سريعة في الوضع الملائم، أما هو فعلى الرغم من اعتقاده في صحة المبدأ، لم تكن لديه الشجاعة الكافية لضرب أي طفل لأي سبب من الأسباب –فيما عدا حالة واحدة هامة رفضت أن أتدخل فيها مطلقًا.

قال لي يومًا وقد ارتسم على وجهه الاهتمام الشديد: «إن الأطفال يجب أن يضربوا».

ولا أذكر ماذا فعلوا، ولكنهم اشتركوا في بعض أعمال «الشيطنة»، ووقفوا جميعًا أمامنا في يوم لطيف من أيام الصيف وثلاثتهم متقاربو الأعمار صحيحو الجسم، غير نادمين على ما اقترفوا.

وقلت له: «لا أستطيع القيام بهذا العمل».

فأجابني بحزم: «لا بد أن أقوم به بنفسي».

ولشدة ما دهشنا أنا والأولاد أن قام فعلًا بضربهم الواحد بعد الآخر. ومع أنهم أصبحوا الآن رجالًا كبارًا، فإنهم لا يزالون يقهقهون حين يتحدثون معًا عن ذلك. كما أنهم لا يتذكرون أي «شقاوة» اقترفوها، ولكنهم يذكرونه هو بالحب والمرح.

ويقول الابن الثاني بروح السرور والفكاهة.. كنا نعلم أننا يجب أن نبكي إكرامًا له وحسب، حتى يشعر بالرضا لتوفيقه في مهمته، ولكن الأمر كان مزاحًا خالصًا -فكان لا بد لنا أن نضحك.

وأذكر نوعًا من الأصوات المكتومة، والتظاهر بدعك الأعين بظاهر أصابعهم، ولكني لم أكن بلهاء لحظةً واحدةً، إذ كنت أعلم أنهم يتضاحكون -باركهم الله- ويحاولون ألا يكشف أمرهم، لأنهم لم يرغبوا في جرح شعوره.

وإنني لا شك في أن يكون الصبي الياباني قد لجأ إلى شيء من هذا التظاهر إذ لم تكن أمه تضربه ضربًا قاسيًا جدًّا، وكان يجأر بصوت مرتفع

لا يتناسب مع الضرب مطلقًا، ولعله كان يقول لنفسه فلأدع أمي ترضى عن نفسها -ولأدعها تعتقد أنها تقدم لي الخير.. وقصارى القول لنترفق بوالدينا!

وفي ذلك المساء، أثناء تناولي طعام العشاء وحيدة -وكان مكونًا من الكابوريا- وجدتني أضحك بصوت مرتفع حين تذكرت ذلك، وكانت المرة الأولى التي أضحك فيها وحدي تلقائيًّا، ما دمنا تعودنا الضحك معًا. وكان ذلك بمثابة معلم آخر في طريق حياتي الجديدة.

* * *

كان بيت المزرعة موقعنا الأول فعملنا هناك عدة أيام، كل يوم منها كسابقه، وإليك نموذجًا منها: أستيقظ في الخامسة والنصف، وأهبط الدرج لأستحم. ولم تكن خادمتي الصغيرة الشديدة اليقظة بحاجة إلى استدعائها، فبينما أكون خارج حجرتي تدخل فتطوي الفراش وتشرع في إعداد المائدة ووسادة الجلوس، وتحضر طعام إفطاري. وينبغي أن أقرر أن هذه الوجبة أقل وجبات النهار توفيقًا، ولا يجعلها مستساغةً غير تلك الثمرة الخاصة من الفاكهة الشبيهة بالتفاحة، ولكنها لم تكن غير كمثرى ليست من النوع الأمريكاني الناعم بل من النوع الصيني الهش، ونوع غريب من القهوة. وقد سبق أن أوضحت أنني لا أطعم غير بيضة واحدة في الإفطار وشريحة واحدة من الخبز المحمر، ولكن التوضيحات لا تغني شيئًا، إذ كان مدير الشركة قد أمر بتقديم كل ما قدم لنا، فظهرت نتيجة أوامره. وأظن أن الخادمة كانت تأتي على الزائد من الطعام، وتركت أنا الأمر يجري على هذا النحو.

ومهما يكن من شيء، فقد كنت مضطرةً إلى أن أكون أمام الباب

الخارجي في نحو الساعة السابعة صباحًا، حيث نحشد جميعًا لاستبدال الأخفاف بأحذيتنا، وتقوم بمساعدتنا في ذلك خادمات صغيرات، وتمتلئ بنا عدة سيارات، ونحيي الخادمات المجتمعات في انتظار توديعنا بالانحناء عند رحيلنا، وهكذا مضينا مبتعدين. كانت الشوارع نظيفةً ككل شيء في اليابان. والتراب خامد لرشه بالماء النقي، والأحجار المرصوفة لامعة، والجبال القريبة المطلة على البحر خضراء يانعة، والبحر يتألق بزرقة مائه تحت أشعة شمس الصباح إذا كان اليوم صافيًا، وسرنا داخل المدينة بسرعة طائشة، ومررنا بمئات من أطفال المدارس في ملابسهم المبهجة، ثم خرجنا منها إلى الريف، فقطعنا طرقًا مخصبةً بين حقول الأرز الناضجة.. تمر بي أوقات أظن فيها اليابان أجمل بلاد العالم، ولع ذلك، فإن السحر الذي تمتاز به آسيا هو أن كل بلد فيها له جماله الخاص، فنحن إذ نقول «آسيا» نفكر في نفس الوقت في قارة فسيحة تعج بسكانها، لا يمكن التمييز بين شعب وآخر من شعوبها، ولكن ليس أمعن في الخطأ من هذا الاعتقاد؛ لأن بلاد آسيا وشعوها مختلف بعضها عن البعض أشد الاختلاف، بل أكثر من اختلاف الأمريكيين عن الأوربيين، «وذلك شيء مؤكد» كما يقول جيراننا الهولنديون البنسلفانيون. حقيقة أن الهند والصين منبع الحضارتين العظيمتين اللتين يمتد تأثيرهما إلى البلاد والحضارات المجاورة، ومع أن كل بلد وكل حضارة تسلم بوجود هذا الأثر، إلا أن كلًّا منها نمت فيه حضارة ذات شخصية معينة وجمال خاص.

وما إن وصلنا إلى بيت المزرعة، حتى وجدنا في انتظارنا مستقبلين يعبرون عن تقديرهم، فندخل من الباب الخارجي المفتوح كل صباح

لنجد كل شيء مهيأً لنا، وقد استيقظت العائلة ورفعت فراشها، وتناولت إفطارها، وغادرت البيت لسحابة يومها. وكان بعضهم يأتي من وقت لآخر؛ ليرى ماذا نفعل، ولكن أدب الضيافة كان يمنعهم عن أي تعليق مهما كان رأيهم. ومع ذلك فقد كان الفلاحون المجاورون يأتون بحرية للمشاهدة، وكانوا يأتون تباعًا.

وأول جماعة، الجماعة المبكرة، كانت دائمًا من أطفال المدرسة. وواضح أنهم استيقظوا مبكرين ليتوقفوا في طريقهم إلى المدرسة. وكانوا مهذبين وصامتين، أعينهم لا تطرف.. وفي الساعة الثامنة والربع تمامًا يتركوننا جملة ليبدأوا دراستهم في الثامنة والنصف، أما الفرقة الثانية فمن الأمهات اللاتي يكن قد نظمن بيوتهن في هذه الساعة ودبرن طعام الغداء. فيصلن بأطفالهن معلقين إلى ظهورهن، وهؤلاء لم يكن مهذبات إلى حد كبير، ولا يستطعن الكف عن الهتافات الهامسة والضحكات المكتومة خلف أيديهن. وهن يتركنا أيضًا مسرعات في الساعة الحادية عشرة والنصف لكي يرين إذا كان أزواجهن العاملون قد تناولوا طعامهم. وفي نحو الساعة الثالثة يفد علينا الجدود والجدات وعجائز القرية بعد الطعام والإغفاءة القصيرة، لقضاء بقية العصر معنا، ويلحق بهم في الساعة الخامسة الآباء العاملون، وهؤلاء يمكثون معنا بكل إخلاص إلى أن نغادر المكان في نحو الساعة السابعة..

أما نحن؛ فكنا نبدأ التصوير حالما تعد آلات التصوير للعمل، فنتحرك من حجرة إلى أخرى حسبما تقتضي القصة. أما «الماكيير» ومساعده فيراقبان الممثلين بحماسة خشية أن تذيب الحرارة الدهون

والصباغ الأحمر، فتسيل قنوات على وجوههم، وتلطخ ملابسهم –وهو فنان حقيقي وشخصية ساحرة بتركيباته السرية وفراجينه التي يصنعها بيده. وقد عثرت على أحد هذه الفراجين اللطيفة على الشواطئ بعد انتهاء العمل وسفره إلى طوكيو وقد احتفظت بهذا الفرجون للذكرى. وهو مصنوع من شظايا دقيقة وصف ضيق من أجود أنواع الشعر الخشن.

وكانت المؤثرات السينمائية هي مشكلتنا الكبرى طوال اليوم، فقد كان الثور يخور في وقت غير ملائم، والعنز تثغو في معظم الأوقات، وإن كانت تفعل ذلك استجوابًا للود وحسب.. أما الكتاكيت فقد يئسنا منها، إذ لم تكن هناك وسيلة ما لمنعها من النقنقة التي لم تنقطع عنها في جميع أنحاء بيت المزرعة وحيثما كانت تلتقط المناظر.

* * *

استمر العمل اليومي إلى أن وصل طعام الغداء من الفندق، فاسترحنا ساعةً، وكانت الحرارة مخيفةً في أغسطس، فجلسنا في ظل شجرة «الكاكي» الكبيرة بالفناء الخارجي، وهو فضاء صغير بين البوابة الضخمة وبين البيت، ولكنا جلسنا كلنا هناك، بعضنا على مرتقى البيت، والبعض الآخر على الأحجار وجذوع الأشجار وجوانب السيارة، وقدم الطعام لكل واحد على حدة في علبة جميلة مدهونة، كل منها قائمة بذاتها.. الطبقة العليا منها تحتوي على سمك وقطع من اللحم الأسمر والخضر والمخلل، وبالطبقة السفلية أرز ساخن. وقدمت أباريق الشاي الكبيرة ذات المقابض الملفوفة بقشور رقيقة من الغاب الهندي لعزل حرارتها، لتكملة وجبتنا التي تزيد في كفايتنا. وأكلنا بالملاعق اليابانية، وهي من

الغاب الهندي مختومة في ورق مشمع وتطرح بعد استعمالها، وهي دون شك خير أدوات صحية للأكل في العالم..

انتهى الأكل في عشرين دقيقة، وظل بيت المزرعة بقية ساعة الظهر في هدوء، واستلقى العمال والموظفون فوق «التاتامي»، وناموا كالسردين، ووجدت إفريزًا هادئًا خلف مائدة صغيرة بالقرب من الحجرة الخلفية فرقدت عليه، وأخذت أتطلع إلى الجبال الضاربة إلى أعلى في الجو. وكانت السحب البيضاء تطفو تحت زرقة السماء، وتلقي بظلالها السابحة، فخيل إليَّ أن وجودي هنا، ورؤية كتابي الصغير وهو يُبعث إلى الحياة من جديد، في البلاد التي تخيلتها، وأن قومي الآن أناس يابانيون أحياء يمثلون قصتي، كل ذلك حسبته حلمًا من الأحلام.

* * *

يا لحرارة أغسطس!! وكم كان انزعاج المخلوقات البرية!! كانت تقاطع الأصوات البشرية، صرخات حشرة الزيز المرتفعة الملتهبة فتزعج مهندس الصوت مرارًا وتكرارًا، أما بالنسبة إليَّ فقد كان هذا الصوت صيحةً أعادت إليَّ ذكرى الحنين إلى الوطن وأيام الصيف الحارة إبان طفولتي على شاطئ نهر ينجتزي، فكلما ارتفعت أصوات الزيزات الصارخة المهتزة يعرف المرء أن الصيف قد بلغ غايته. ومنذ ذلك الوقت يستطيع أن يأمل في هبوط الرياح اللطيفة يومًا ما، بل يأمل في هبوب الرياح العاصفة «التيفون»، ومع ذلك كان مهندس الصوت يلتهب غيظًا من حشرة الزيز في فناء بيت المزرعة ويصيح، فيقفز ستة من العمال إلى شجرة الكاكي الكبيرة ويحطمون أغصانها بقضبان الغاب، ولا تمضي خمس دقائق حتى تصمت الحشرة القوية، ثم نسمعها تبدأ صراخها

يشق الهواء. وفي هذه المرة يتسلق العمال شجرة الكاكي ويهزونها حتى تتساقط أوراقها وتتأرجح ثمارها الخضراء. وتظل حشرة الزيز عاقلةً نصف ساعة على الأقل، لتبدأ ثانية أغنيتها التي لا تنتهي. أما نحن فكانت تزعجنا مخلوقات أخرى.. ديك مزهو بنفسه كان يعلن عن وضع كل بيضة يضعها «حريمه» وتتعارك الكتاكيت وتصرخ، من الألم، ويصرخ الطفل بين جموع المشاهدين فيتحتم ابعاده..

وقد صادفنا يومًا شيء من حسن الطالع، ذلك أنه بينما كانت صاحبتنا «ستسو» الصغيرة تطير قادمةً من باب منزل المزرعة، وكأن كمي كيمونها جناحان، تصادف مرور أكبر امرأة سنًّا في العالم، وقد انحنى ظهرها تحت حمل حطب الوقود. وكانت ذات وجه جميل عليه معالم الهرم، مجعد أسمر، ولكن عينيها كانتا فتيتين كالحياة نفسها. فدعوناها لالتقاط صورة لها في فيلمنا، فوافقت بلطف واتخذت وقفةً خاصةً، وشدت جسمها لهذه المناسبة متشبثةً بهراوتها الطويلة، بينما كان وجهها المرح المغضن يتظاهر بالنبل. واندفع «الماكيير» تستحثه رغبة خاطئة لينظم ثنيتي كيمونها وكانتا قد انفرجتا فكشفتا عن لمحة من ثديين هرمين، ولكنا صحنا به أن يتركه كما كان من قبل، والتقطتنا لها صورةً على هذا الوضع.. وهي تسير في الطريق محنية الظهر تحت حملها، بينما الطفلة «ستسو» تجري مارةً بها.. وأردنا أن ننقدها أجرًا، ولكنهم أكدوا لنا أن ذلك يؤذي شعورها، وأن أفضل ما يمكن أن يقدم لها مع الاحتفاظ بكرامتها بعض علب السجائر، ففعلنا، ومضت في سبيلها..

تعاقب هطول المطر وظهور الشمس خلال الأيام، ونشط الممثلون

في عملهم وأصبحوا جماعةً عاملةً، وبدأنا نشرح الشخصيات، وعشنا القصة. وأذكر اليوم الذي انتهى بإعادة تورو عقب موجة المد، بعد أن أفاق الصبي الصغير من ذهوله وأخذ يستفسر عن مكان أبيه وأمه، فاجتاحت الممثلين جميعًا عاطفة مفاجئة شاملة.. لقد عرفوا أنهم فهموا كل شيء على أحسن وجه، وتساقطت الدموع من عيني الممثلة التي تقوم بدور الأم، وشعرت بغصة في حلقي؛ لأنهم كانوا قد التقطوا فجأةً لحظةً حقيقيةً من أولها إلى آخرها..

وكان المشهد الأخير في هذا اليوم الملتهب في العراء بفناء مخزن الغلال، وكان الوقت قد قارب الغسق. وكانت جموع الأعمار، وضربوا حولنا حلقةً، ولكنهم ظلوا هادئين وقورين، بينما كان الممثلون يعدون الأدوات، مزودة بعربة وثور، وغلة، وأسرة المزرعة. وكانت أسرتنا في هذه المرة مكونةً من بطة ستسو وكلبها المدللين، والبطة كما وردت في القصة المكتوبة، بطة صغيرة في الواقع، وأبعد من أن تكون ذكرًا ضخمًا.. إنه الجد الأكبر لجميع البط الذي على قيد الحياة.. وعندما حاولت ستسو أن تمسكه تحت ذراعيها، ذكرني ذلك بقصة «أليس في بلاد العجائب» وبطائر البشروش في لعبة الكروكيت مع الدوقة، أما الكلب -وهو من نوع كلاب صيد الثعلب- وعلى الرغم من أن ذنبه مختلف، بحيث لم أعرف ما هو على وجه التأكيد- فلم تكن قفزته مجردةً من الأذى كما كان المقدر أن تكون، بل أصر على مطاردة الكتاكيت مطاردةً جنونيةً، لهذا أزعج دجاجةً هي أم عائلة الكتاكيت، ناهيك بما حدث لعدد كبير لا يُحصى من الدجاج الصغير الذي لم ير كلبًا من قبل فيما يبدو.. وحملت

ستسو البطة بعيدًا عن المسرح وروقب الكلب وعوقب، واستمر المشهد..

وسمعت في هذه اللحظة نقنقة آدمي من خلفي حين كان «فاذر» يفرغ حمولة العربة، وكانت النقنقة صفيرًا لضحكات صادرة من اثنين تافهين من الفلاحين وسط الجمهور، وكان قد سيطر عليها الحقد لرؤية «فاذر» يتناول في التمثيل القضيب والسلتين. ومن الواضح أنهما لم يصدقا أنه فلاح، أما «ماذر» فحين ظهرت جاء دور النساء في الضحك، ولم يكن بينهن واحدة جميلة في حين كانت «ماذر» جميلةً، فكيف تكون زوجة فلاح؟ لقد كانت مشكلةً.. ربما كانت «ماذر» فائقة الجمال، ولكن هل يمكن ألا تكون هناك امرأة فائقة الجمال في السينما؟

وانتهى المشهد أخيرًا، وأخذنا نستعد للمشهد التالي، وحين اندفعنا إلى العمل بسرعة كبيرة قبل هبوط الظلام الذي يبكر كثيرًا في هذا المناخ الحار، سمعت فجأةً نباحًا عاليًا كأنه نباح كلب ضخم عجوز، ولم أستطع أن أتبين كنه هذا الصوت إذ لم يكن هناك كلب تابع للمزرعة، فتقدمت إلى الحظائر لاستجلاء الأمر، وهناك شممت رائحة خنزير.. لا يمكن أن يكون خنزيرًا لأنه يعوي كالكلب، ولكنه خنزير.. خنزير ذكر ضخم الجسم يبدو عليه الاكتناز، ويعوي كالكلب العجوز الغاضب. واستفسرت عن طريق المترجمة عن سبب عواء الخنزير كالكلب في حين أنه ليس كلبًا فكانت الإجابة بسيطةً: «لا نعرف لماذا يعوي الخنزير كالكلب» وهذا كل شيء. واستمر الخنزير في عوائه، وهبط الظلام، وأعلن مساعد المصور أننا لن نستطيع الانتهاء من المشهد الثاني؛ لأن

الضوء على الجبل أصبح ضعيفًا، فجمعنا شملنا ورحلنا.. وتوقف عواء الخنزير، وهبط القوم مبتعدين في الظلام، وهبطنا نحن كذلك.. ومضى يوم آخر، وكان الغد يوم أحد، ولا بد لنا من الراحة رغم إخطارنا بعدم انتظار عطلة أخرى أيام الأحد، وأن العمل سيكون سبعة أيام في الأسبوع لمدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وكان ما فعلناه كافيًا ليومنا -ولم أفكر إلا في الحمام والفراش، الحمام الياباني والفراش الياباني.

* * *

وهبت أثناء الليل رياح، بلغ من عنفها أن رأيت في نومي أننا نتعرض لريح التيفون العاصفة.. وأظن هذا الحلم من بقايا عهد الطفولة، أو يرجع إلى حياة سابقة على هذه الجزيرة، أو قد لا تكون إلا من أثر الموجة الكبرى نفسها التي ابتدعها عقلي ذاته، وربما لم يكن يزيد على كونه نتيجةً لحديثي في الليلة السابقة مع زوجة صاحب الفندق، إذ روت لي أن هذا الفندق تعرض كثيرًا لرياح التيفون، وأن آخر هبوب لها كان في العام الماضي فقط، حين اقتحمت مياه البحر نفس هذه الحجرة التي أسكنها.. ومهما كان الأمر فقد استيقظت وأنا أتسمع إلى صوت الرياح، وتذكرت عصر يوم من شهر أغسطس منذ طويل، حين وقفت على جانب جبل يواجه البحر في جنوب اليابان... وكانت رياح التيفون تتجمع في مكان ما فوق الأفق، وكنا قد أنذرنا بها، فكان من البديهي تمامًا أن أحتمي بداخل بيت نوافذه مسدودة وأبوابه مغلقة بالعوارض، إذ لا يعرف أحد ماذا ستفعل التيفون .. إنها رياح لا يمكن السيطرة عليها، وبالتالي التنبؤ بها.. إنها انطلاقة قوة غاشمة عملها الوحيد هو التخريب..

ومع ذلك فقد سبق أن رأيت كثيرًا رياح التيفون إبان طفولتي في آسيا، وكانت تدفعني الرغبة في ذلك اليوم إلى رؤية تيفون آخر، والتيفون أشبه ما يكون بالإعصار، ولكن الأعاصير التي سبق أن رأيتها في نيو إنجلند وبنسلفانيا لم تكن من نوع التيفون؛ لأن الأقاليم المدارية، أو القريبة من المدارين تمد الرياح والأمطار بقوة بركانية.. ولقد عشنا في جو شبه مداري على مسافة مائتي ميل من المحيط الهادي، ومع ذلك فإنني لأذكر حتى اليوم أوامر والدي الجافة ووجه والدتي المنزعج: «هناك تيفون في طريقِهِ إلينا! أحكموا غلق مصاريع النوافذ، وأقفلوا الأبواب»..

وبينما كانت تشتد ظلمة السماء وترتفع همهمة الرياح المنخفضة إلى هدير كئيب، جلسنا نحن ننتظر ونتسمع. ولما انتهى كل شيء، وساد السكون أخيرًا فتحنا الأبواب والنوافذ، فكان ما رأيناه هو ما اعتدنا رؤيته على الدوام.. دمار في كل مكان..

وتقول والدتي: «حماقة، حماقة كبرى»..

كان تذكري لتعليقها الذي لا يتغير هو الذي أوحى إليَّ باتخاذ فكرة التيفون محورًا لقصة، ودفعتني إلى الذهاب إلى منحدر الجبل في ذلك الصباح، منذ عهد بعيد، إبان زورة سابقة إلى اليابان.. وكانت الإذاعة قد أعلنت عن هبوب تيفون..

وقد حدث ذلك بعد الساعة الواحدة مباشرةً مسبوقًا بصوت غريب آت من مسافة بعيدة فوق الأفق المرتفع، فاتخذت ملجأً تحت صخرة أحتمي بها، كان بمثابة كهف بعد أن تأكدت أن هذه الصخرة جزءٌ من سلسلة الجبل، وليست صخرةً منفصلةً غادرةً تتهشم فوقي إذا ما جاءت

العاصفة، وتأكدت كذلك أنني على ارتفاع مناسب من الجبل بحيث لا ينالني البحر. وكان عليَّ أن أحذر وجود أشجار قريبة قد تسقط عليَّ، وبذلك كنت في مأمن مائة في المائة قدر ما يستطيع إنسان صمم على المغامرة أن يفعل..

هنالك جلست أنتظر، ولكني في هذه المرة كنت وحيدةً بلا عائلة أو بيت يحميني.. لقد كانت تجربةً عميقةً مخيفةً تستحق الجزاء، وهيأت لي المشهد الذي أردته لبداية القصة، فلأصفه على خير وجه أستطيع: هب التيفون من البحر أول الأمر كأنه زئير عميق أجوف، ثم ظهر في مثل سحابة هائلة سوداء، وبدت السحابة كأنها شيء حي، تشكل نفسها على هذه الصورة أو تلك، تمزقها الرياح المضادة. ومع ذلك قد تنتشر يمينًا أو يسارًا، ثم بدأت ترتفع إلى أعلى وتمتد شرقًا وغربًا، وأظلم الجو حتى أصبح في غبشة الغسق، وانقض هدير الصوت المفزع متجهًا نحوي خارجًا من الأعماق، فقبعت وراء الصخرة وانتظرت..

وأذكر أنه لم يكن هنا مطر في بادئ الأمر.. لم تكن هناك غير الرياح الهائجة والبحر المتلاطم، وكان البحر قبل ذلك هادئًا أزرق، فاستحال آنئذ أسود تعلو سطحه خطوط متعرجة من الزبد الأبيض.. وكان هطول الأمطار على حين فجأة كأن السحب قد فتحت وسكبت ماءها، فأسدلت ستارًا بين الجبل والبحر، كأنه صفحة ثابتة من الماء على مسافة ثلاثة أقدام مني.. وانبسطت الحشائش والشجيرات الصغيرة على منحدر الجبل تحت وطأة الريح والمطر.. وساورني جنون النشاط المهوش غير المقيد وتهوره، ولم يكن لشيء من هذا كله أي مغزى.. لقد كان أسوأ

من العبث -إنها الطبيعة تحطم خليقتها- تحطم نفسها. والخلق عمليات طويلة من النمو، يعقبه التخريب في نوبة هياج وحشية- ألم يكن هذا جنونًا؟ ألم يكن مجافاةً للعقل؟ لقد تهيأت لي بداية قصتي..

وأخيرًا بددت العاصفة نفسها بنفسها، وتوزعت الرياح، وتضاءلت الأمطار فأصبحت رذاذًا وضبابًا، وتفتت الغمام أجزاء بزغت من بينها الشمس.. وخرجت من مخبئي، وأشرفت على الخراب الذي خلفته العاصفة.. كانت الأشجار قد سقطت على المستويات الدنيا، وغرقت الأخاديد في الأرض المحصورة بين الصخور، ورقدت الحشائش والشجيرات الصغيرة منبسطةً هزيلةً... إنني لا أملك إلا أن أحدس مدى الخراب الذي نزل بالقرى المطلة على الشاطئ، وبزوارق الصيد التي تهشمت وألقيت في البحر، وتحطيم المنازل وحواجز الأمواج وقد تمزقت أجزاء وأسوار البحر التي انهارت- لقد كان كل شيء كما قالت لي أمي، حماقةً كبرى، وعبثًا في عبث..

لقد رأيت نفس هذا الضياع يصيب الحياة البشرية، والكائنات البشرية، والعواطف البشرية..

رقدت هناك في فراشي الياباني بعد ذلك بسنوات، وفكرت في التشابه بين نشاط التيفون ونشاط العاطفة البشرية... فكل منهما مدمر إذا لم يضبط زمامه.. ولكن هل تكون العاطفة بالضرورة مدمرةً؟ وإذا لم تكن كذلك، فمتى تكون ذات قيمة، لماذا؟ وكيف نفيد من العاطفة كنشاط مساعد، أي نشاط ضروري للحياة؟ وما هي فوائد العاطفة؟ وما هي الأنظمة الضرورية لفائدتها المساعدة؟ هذه هي الأسئلة التي كنت أتوق إلى الإجابة عنها، أولًا لنفسي ثم للآخرين. ولقد وضعت نفسي في

المكان الأول؛ لأنني العدسة التي أشاهد الآخرين من خلالها.

* * *

عندما لا أستطيع الإجابة عن أسئلتي الشخصية كعادتي أرسل عقلي وقلبي يبحثان عنه.. إنه لم يكن يستطيع الإجابة، ولم يكن ذلك دائمًا.. ولكنه كان يملك موهبة توجيه البحث بأسئلة من عنده، أسئلة بارعة فيها إسهاب.. ولم يكن تفكيره عميقًا، ولا أدعي أنه كان في استطاعته متابعتي في الوصول إلى النتائج، الواحدة بعد الأخرى، النتائج التي يتدرج فيها المرء لا بوصفها نتائج كليةً أو مطلقةً، ولكنها خطوات في طريق الحقيقة.. إن الحقيقة نفسها ليست مطلقةً بطبيعة الحال، ولربما تشتمل الحقيقة في الواقع على الطريقة، وهي ماثلة في كل شيء وفي كل مكان، خالدة خلود الزمن نفسه.. ولا نرى من صحتها في أي دور من الأدوار سوى وجه واحد فقط.. ولم يكن كذلك يملك العقل الذي يستوعب الكليات، كما لم يكن يمتاز بتنظيمات المدارس التي تدربت أنا عليها، وكان مفهومًا أن بيننا شيئًا كثيرًا لا يمكن أن نشترك فيه، فطبيعة كل منا تختلف عن الأخرى اختلافًا جوهريًّا، حتى استمتاعنا بالموسيقى والأدب كان متباينًا، فكلانا يحب الموسيقى مثلًا، ولكني أشعر بسعادة أوفر حين أنفعل بسوناتا لبتهوفن أو لشوبان، أما هو فتمتعه الموسيقى الخفيفة التي أستمتع بها أنا أيضًا، ولكن كاستمتاعي بأكل البطارخ «الكافيار». ومن ناحية أخرى أهتم اهتمامًا عميقًا بموسيقى «الجاز» وليس اهتمامي بها من الناحية الموسيقية المجردة بقدر اهتمامي بها من الناحية النفسية، في حين أنه لم يكن يهتم مطلقًا بالجاز ولا يحمل له أي ود. لم يكن يهتم كذلك بعلم الطبيعة مع

نفعه الأكاديمي في التكنولوجيا.. ولما كان ملحدًا متزمتًا، فقد وافق على انشغالي الذي لا ينتهي مع علماء الطبيعة النظريين، وما تتضمنه كشوفهم الأخيرة من أهمية بالغة، وإن كان لم يشاركني هذا الانشغال.

أما ما كان يمتاز به فعلًا، فهو العقل اللمَّاح المبدع، وأندر من هذه الميزة، قدرته على تقدير الشيء الذي يعجز عن فهمه. إن الأسئلة البارعة كانت تحفزه.. وكان يبدو أنه لا يحسن القيادة مطلقًا على الرغم من عدم اتباعه غيره، فهو يكشف عن الأشياء ولكنه لا يشكلها.. وقد هيأ لي جوًّا استطعت أن أفكر فيه تفكيرًا أكثر وضوحًا، وأبدع إبداعًا تلقائيًّا أعظم مما كنت أستطيع من دونه. كان ينصت إليَّ وأنا أفكر بصوت مرتفع في الموضوع الذي يهمني، وفيما يتصل به من قريب أو بعيد، ويدعني أنظمه بحرية كما لو كنت وحدي، ولم تكن أسئلته قط معالم طريق، ولكنها دعوة إلى مسالك ربما لم ألاحظها لنفسي..

إنني أدرك ذلك الآن بالأسف، وليس معي أحد أتحدث إليه.. فلتهدأي يا نفسي!

* * *

إن القائمة تستدعي العمل في الخارج.. منظر نزهة مع ستسو الصغيرة، ثم منظر المحصول، والحقل والحرث.. ولكن السماء كانت تمطر مرةً أخرى.. ومع ذلك تابعنا العمل مع السير مسافة في داخل الموقع وهو مكان ساحر على جانب تل مدرج.. وفيما وراء هذا المنظر مقبرة يابانية قديمة رمادية اللون.. وكان على ستسو أن تنتظر على أحد أحجار هذه القبور ومعها طعام «فاذر» و«يوكيو»، ومعها أيضًا ما معها من النتائج المفجعة

السيئة التي ألا أذكرها هنا. لقد كانت المفارقة بين أحجار القبور العتيقة التي يعلوها الطحلب، وبين فتاتنا الصغيرة الجميلة كالمفارقة بين الحياة والموت، وكنت أعلل نفسي بهذا المشهد.. وانتظرنا بداخل السيارات أثناء هطول الأمطار، ولكن أسرة فلاح رقيقة دعتنا إلى الاحتماء بمنزلها المريح، فدخلنا شاكرين. وأعدت لنا زوجة الفلاح الشاي، وتناقشنا فيما يجب عمله.. إن الجبال والبحر هنا يشتركان في جعل الجو لغزًا، أشد تقلبًا منه في معظم أنحاء العالم، ولقد خيل لنا أن الجو سيظل يفرغ ماءه مدى أربعين يومًا متواليةً، فقررنا الذهاب إلى منزل المزرعة لنصور هناك منظرًا مناسبًا للمطر، ومنظر المطبخ من الداخل.. وكان لا بد لمساعد مصورنا من الذهاب إلى كتسو، قرية الصيد، لإعداد قوارب للمشهد الذي تخرج فيه القوارب أثناء هطول المطر إلى شاطئ سمك القرش.

ومع ذلك كان الصباح مخيبًا للأمل، إذ بدأ المطر كالسيل، وتحول فناء المزرعة إلى بحيرة من الطين، وكان الماء يقطر من أفاريز السقف المصنوعة من القش، بصورة تدعو إلى الانقباض، وكان العمال يشتغلون بداخل بيت المزرعة دون حماسة. وادخر المصور لحظات التشاؤم إلى أن بدأ العمل، وعيل صبر المدير، وأصابني الضجر، وأعيد المنظر الأول مرارًا وتكرارًا، وأخطأت آلة التصوير خطأً فاحشًا مرارًا وتكرارًا، وبلغت الساعة الثانية عشرة. وأصبحنا على أهبة التقاط المنظر الأول حين بزغت الشمس، وعلى الرغم من ضعف ضوئها إلا أننا اضطررنا إلى إحداث مطر بوساطة الخداع السينمائي.. وهكذا صعد الرجال إلى سطح بيت المزرعة وأعدوا أحسن آلة في العالم لإحداث المطر في يوم مطير كهذا

اليوم.. وهي مكونة من عود غاب مثقب ذي خرطوم من المطاط يتصل بأحد طرفيه، والطرف الآخر مثبت، وبذلك يتقطر سيل لطيف من المطر فوق القش، ثم إلى البحيرة الموحلة التي كونها المطر الحقيقي. وأخيرًا التقطنا المنظر. وحلت ساعة الغداء، فكان يومًا بالغ النحس، حتى أن طعام الغداء لم يكن لذيذًا..

كان مشهد المطبخ، ومشهد الشاطئ المطير من أجود مشاهدنا، ففي المطبخ كان منظر الزلزال، حيث أسرعت زوجة صاحب المزرعة وهي فاقدة الوعي تحاول إنقاذ أطباقها، وكانت من شرود الذهن بحيث نسيت أن تضع سلة البيض على الأرض، فتهشم البيض وازداد بذلك الارتباك، إذ لم يكن في الواقع شيء أدعى إلى الارتباك من وجود سلة من البيض المهشم، وخاصة حين تنسى امرأة وضع بيضها قبل اندفاعها إلى مطبخها فتحاول إنقاذ أطباقها أثناء هزة أرضية، وترى فوق هذا أن مصباح البترول مشتعلًا مما قد يتسبب عنه حريق البيت. لقد كان مشهدًا صادقًا، حتى إن أمنا بالتزامها الواقعية في التمثيل جرحت قدمها مرتين بزجاجة مكسورة، وتهيأت الفرصة أخيرًا للممرضة المدربة التي كنا بحاجة إلى الاحتفاظ بها كل الوقت لإنقاذ حياة أي شخص، إذ تقدمت وقد ارتسم على وجهها الاهتمام فوضعت على قدم «ماذر» شريطًا لاصقًا، فتأثرنا بهذه الكفاءة وانبسطت أساريرنا نوعًا ما..

منعني مجرد العناد من الكف عن العمل والرجوع إلى الفندق في طريقي الموحل، وكنت مسرورةً لهذا التحول الفجائي الغامض الذي يبدو أنه شيء لا مفر منه عندما تسوء الأمور، وأصبح عمل ما بعد الظهر مثيرًا

على حين فجأة، وسُرِّح ممثلو مشهد بيت المزرعة، واستدعيت أسرة صياد السمك لتصوير مشاهد الشاطئ، وانتهى المشهد الممطر، وكانت الشمس قد غابت وعاد المطر يهطل مدرارًا كالسيل. وأصبح واضحًا الآن أن المدير الأمريكي عقد كل العزم على إبعادي أنا أيضًا بحجة هبوب العاصفة وهطول المطر، وتلاطم الأمواج، وما إلى ذلك... وعندما رفضت فكرة إبعادي، قدم عدة اقتراحات غامضة كخوفه من أن تكسر ساقي أو أي شيء آخر في الممرات المنحدرة الضيقة المؤدية إلى كتسو، ولأن المساقط كانت كثيرةً هناك.. ورفضت اقتراحاته المضحكة؛ لأن منزليَّ الحبيبين يقعان في ريف بنسلفانيا وجبال فيرمونت حيث كنت أسير بصورة مدهشة في كل مكان، وأتسلق كأنثى المعز دون أن تزل قدمي أو أسقط، ما لم يدفعني أحد كما يدفع الطفل، وهو ما لا أذكر أنه حدث مرةً.. وطلبت من هذا المدير ألا يهتم بي، إلا أن يعيد النظر قبل الذهاب إلى الفندق في المساء؛ لكي يتأكد من وجودي في سيارة أو أخرى.. وهكذا ذهبت إلى كتسو.

سوف لا أكف عن الامتنان لتصرفي هذا، بسبب التجربة التي استفدتها من هذا العمل -حسن، وإليك البيان:

سرت في الممر الجبلي الضيق المتعرج هابطةً دون أن تعترضني عقبة من العقبات حتى بلغت الشاطئ في غير مباهاة أو زهو، متظاهرةً بأنني لم أكن هناك.. وكانت السماء تمطر بصورة رائعة مطرًا غزيرًا قويًّا، وهي ظاهرة أحبها. وكان يحميني تمامًا معطف واق من البلل، وقبعة ومظلات مختلفة كان يحملها فوق رأسي قرويون كرماء، ولقد كانت شكواي الوحيدة في اليابان من أن أهلها يبالغون في الكرم، حتى أنني

أجد دائمًا مظلةً فوق رأسي ومروحةً في يدي ومقعدًا صغيرًا أجلس عليه. وبينما كان المدير يشكل مشهده ويحدق في آلة التصوير، وقفت مسندةً ظهري إلى الجدار المرتفع أمام منزل «تورو» أتطلع إلى البحر الرمادي والسماء الرمادية.. وكان ممثلنا، والد تورو، صياد سمك، وقد بدأ عند الإشارة في نفخ صدفة حلزونية كبيرة لاستدعاء الزوارق..

وصرخ المدير قائلًا: «التقط»..

والتقطنا.. وكانت كل القرية في الخارج تحت المظلات لمشاهدة ما كان يجري.. واندفع صبي متهور فاجتاز المشهد لاحتلال مكان أفضل على الجانب الآخر.. وكان رئيس القرية حاضرًا هذا، فانتابته موجة خفيفة من الغضب.. وعلى الرغم من عدم هذا انتابته موجة خفيفة من الغضب.. وعلى الرغم من عدم معرفتي اللغة اليابانية، إلا أنني فهمت أنه كان يصف إخوانه القرويين بالحماقة، وأنهم يريدون أن يظهروا أمام العالم مدى غبائهم.. ألا تعرفون أنه بمروركم أمام آلة التصوير تفسدون الصورة التي يلتقطها الأمريكيون هنا في قرية كتسو لأول مرة في التاريخ، في مكان يجهل العالم حتى الآن أنه موطن الأطفال والبلهاء؟ وعبس الجميع خجلين وتراجعوا ست بوصات أو نحوها، ثم اندفع فجأةً صبي آخر لم يكن قد سمع ما دار من حديث، من بين ساقي الرئيس نفسه، المخيفتين كثيفتي الشعر، ولم يتذكر أن يطوي مظلته قبل أن يفعل، فكانت النتيجة مؤسفة، إذ تحطمت المظلة..

وأتوقف هنا لحظةً لأذكر بإعزاز ذلك الرئيس، بقرية كتسو.. كان رأسه مستديرًا حليقًا، ووجهه خشنًا مشرقًا، وساقاه مقوستين كساقي

الكابوريا، وإرادته حديدية، وقلبه خليقًا بملك.. وكان بطبيعة الحال حاكمًا بأمره، يحكم جماعته حكمًا مطلقًا.. كان يخبرهم كل ليلة عما يفعلون في اليوم التالي، وماذا ينبغي ألا يفعلوا، ولذلك منع القرويين بعد تصرف الصبيين الذي يستحق اللوم، من التحديق فينا أو التلكؤ حولنا، وأن عليهم مواصلة واجباتهم المعتادة كأننا غير موجودين، فيما عدا ساعة واحدة بين الخامسة والسادسة وقت العصر، وحينئذ أيضًا كان يجب أن يقفوا على مسافة لا تقل عن خمسين قدمًا منا لمشاهدتنا في صمت تام. وكانت حماسته للفيلم مثيرةً لاقتناعه بأن القصة تدور حوله.. وهو يشبه تورو في أن عائلته قد اكتسحتها موجة مد حين كان صبيًّا صغيرًا..

وشاهدت المصور وأنا واقفة، مسندةً ظهري إلى سور البحر المرطوب وهو يلتقط صورةً جميلةً للصيادين وهم يحملون شباكهم ويجرون إلى البحر، ثم ينطلقون بزوارقهم مقتحمين الأمواج والأمطار. وأسرعت آلة التصوير آنئذٍ إلى حاجز المياه الكبير الذي يكون رصيفًا مثاليًّا، يمكن أن نلتقط منه صور القوارب وهي تسير في عرض البحر.. واندفع القرويون وراء آلة التصوير، وابتلعني الزحام.. وكنت على وشك أن أسقط من فوق الحاجز البحري إلى الماء، مما كان سيعطي المدير كل الحق في أن يضطرني إلى الرجوع على أول طائرة إلى أرض الوطن لأنجو من غضب الله، ولكن لحسن طالعي أنقذني قروي قوي، كان يتنفس في وجهي تنفسًا حارًّا - وكان للأسف مصابًا بداء البحر في أبشع صورة، فتحسرت عليه لأنه كان رجلًا لطيفًا. وأخبرني وهو يلهث أنه رآني في تليفزيون طوكيو، وسألني إذا كان يستطيع أن يحمل مظلةً فوق رأسي...

لماذا لا يعنى شخص ما بشخصية هامة مثلي؟» فقلت له، إن أحدًا لم يكن يرعاني مطلقًا أثناء تصوير الفيلم، فشكرًا لك، كما أنني لست بحاجة إلى المظلة لأن لديَّ قبعةً واقيةً من المطر.. وبذلك تخلصت منه لكي أذهب لأجلس على دعامة من الحجر وأراقب جمال زوارق الصيد اليابانية الذي لا يباريه جمال، وهي تخرج إلى عرض البحر.

إنني أغفل بالأمور النمطية (الروتينية) السخيفة جميعًا، كطلب استدعائهم لعادة التمثيل؛ لأن المصور أغلق الباب على آلة التصوير ولم يستطع أن يوفق، ثم ظن أن بالآلة عطبًا، وقول الأمريكي بصرامة أن الشيء الوحيد الذي أصيب بالعطب هو المصور نفسه، وما إلى ذلك من أحاديث تافهة. ولأتحدث فقط عن الجلوس هناك تحت المطر، ذلك المطر المنحدر الذي أحبه «هو كوساي» حبًّا جعله يصوره في رسوم مطبوعاته، وقد أحاطت بي التلال الخضراء المدرجة والجبال المرتفعة التي تلفها السحب، والتطلع إلى البحر اللانهائي، وترقبي عودة الزوارق ومشاهدتها وهي تدور عند الرأس الممتد في الماء. ما كان أجمل وأروع شكلها، وأسرعها وأرشقها!! كان يجلس في كل زورق ثلاثة رجال كلهم يجدفون، ولكنه تجديف يختلف عن التجديف في زوارق الغرب المبتور، إنه تجديف لطيف شبيه بعوم السمكة، فلا يرفع هؤلاء المجدفون مجاديفهم مطلقًا من الماء، ولقد درست إيقاع تلك المجاديف فوجدته إيقاعًا ثلاثيًّا، فلا يتحرك مجداف في نفس الوقت الذي يتحرك فيه مجداف آخر، ومع ذلك فإن كل حركة تجري هينةً دون توقف. وأخيرًا أدركت الإيقاع.. إنه إيقاع زعانف السمكة، فالزوارق

تتحرك في البحر كما تتحرك السمكة بزعانفها. وشعرت بارتياح عميق لهذه النتيجة الصحيحة، وهذا بالضبط ما كان يحدث، ولكني أبطأت في فهمه حتى هذا الوقت من حياتي، على الرغم من أنني أشاهد هذه القوارب منذ طفولتي، حين كنت أقضي أيام الصيف في اليابان.

خرجت القوارب إلى عرض البحر مرةً أخرى في صف طويل، ثم استدارت إلى اليسار مع انحناء الخليج حتى اختفت وراء قمة صخرية قام فوقها بمحض المصادفة شكل رجل يتطلع وحيدًا مجهولًا نحو الأفق... يا له من جمال!! إن هذا ليكفيني ليومي، وأحمد الله، وأتمنى أن أرى في حياتي كلها جمالًا في مثل هذا الوضوح!

أذكر أنني عدت في صمت ينطوي على الامتنان، فاستحممت وتناولت عشائي، وكان الحمام فسيحًا ذا نافذتين صغيرتين غير شفافتين تطلان على البركة في الخارج، فكنت أسمع صيحات السابحين وضحكاتهم أثناء استحمامي، وأرضه وجدرانه من القرميد الأبيض. والحوض مربع من آجر الأسمنت، طول ضلعه أربع أقدام وعمقه مثلها، ويمكن رفع أحد جانبيه فيتكون منه مقعد، وبذلك تظل رأسي فوق الماء. وكان الحوض مليئًا دائمًا بالمياه المعدنية الساخنة الملطفة للجلد... ولكن لماذا أتحدث عن الحوض؟ لقد عرفت أن الأفضل أن تغطس فيه دون حاجة إلى الإعداد الضروري، وهو ملء جفنة صغيرة بالماء والجلوس على مقعد صغير من الغاب في وسط أرض الحمام المغطاة بالقرميد مع جفنة صغيرة أخرى أمامي، ثم أدعك جسمي بالصابون دعكًا جيدًا يليه سكب الماء جسمي، وحينئذ فقط عرفت أنني مهيأة للاستحمام

في الحوض الكبير. وعندما خرجت منه ذهب عني كل ألم وأثر للتعب... لقد استجممت وتجددت.

* * *

وأذكر أنني جلست في ذلك المساء إلى نافذتي، وقد ارتديت «يوكاتا» خفيفةً، أستمع إلى أصوات السابحين في البركة بالخارج يغطسون ويتصايحون ويضحكون. وكنت في ذلك اليوم غارقةً في الجمال، أما الآن فلا أحتمل هذا الجمال؛ لأنني عاجزة عن وصفه له... ربما كان يدرك -ولكنه إذا لم يكن يستطيع أن يوصل إلى إدراكه فكيف أشعر بالراحة؟ ظننت أنني أتصرف أحسن التصرف، ولكنني عرفت فجأةً أنني لم أكن كذلك؟

لقد حذرتني صديقة أرملة بقولها: «إن هذا التصرف لن يجديك نفعًا، بل إنه يعود بك إلى ما هو أسوأ».

ما معنى أسوأ؟ كيف يمكن أن يحدث ما هو أسوأ من هذا؟ لقد رغبت فجأةً في أن أنبذ كل ذكر للجمال، ومع ذلك فإنني ممن لا يستطعن الحياة عاطلة من الجمال- ولا أسمح لنفسي بالبكاء. لقد ظننت أنني أتصرف تصرفًا سليمًا، وشعرت أنه لا بد أن يكون فخورًا بي إذا كان يرقبني من مكان ما بعيد عني. إنني بحاجة الآن إلى العون مرةً أخرى، ولأبعد حد. ولكن أين أجد العون؟ إن الجمال قضى عليَّ وتركني مريضةً بالشوق. يجب أن يصبح الغرباء ملاذي مرةً أخرى. خلعت «اليوكاتا»، وارتديت ملابسي الخاصة، وخرجت لأتجول ثانيةً في الشوارع وحيدةً.

لم أبتعد كثيرًا عن الباب الخلفي للفندق، في شارع ضيق مرصوف،

حتى اكتشفت مسرحًا للصور المتحركة، وكان المسرح الوحيد في المدينة، إنه مسرح ملائم جدًّا، فسيح ومقاعده مريحة، وأرسل لي صاحب المسرح من قبيل المجاملة كلمةً قال فيها إن من حقنا دخول المسرح دون مقابل ما بقينا في «أوباما»، واعتدت التسلل بمضي الأيام، عبر الشارع في برودة الليل، واختيار مقعد بالقرب من عمود ذي دهان أحمر، ومن حولي جمع من اليابانيين معظمهم من الرجال، ما دامت أوباما خاليةً من المشارب، وربما كانت هذه الدار هي الغوث الوحيد لهم من صياح الأطفال والزوجات المرهقات. حقيقةً كانت بالمدينة ثلاث من الجيشا المتقدمات في السن، ولكن عملهن إلى حد ما كان شرفيًّا، وقد أصبحن آنئذ بعد تقاعدهن عن النشاط الإيجابي أعضاء في الجماعة، فلا يعتبرن مصدر ترويح لأصحاب الأعمال المكدودين.

كانت الأفلام استعراضيةً، وأرق الأفلام التي تنتجها اليابان وأقربها إلى الفن، فأخشى أن أقول، إنها الأفلام التي تستهلك في الخارج، أما المادة الحقيقية فيحتفظ بها في أرض الوطن، وبخاصة للمناطق البعيدة، ولا شك أننا في «أوباما» كنا من هذا الفريق الأخير. إن الانفعالات التي كانت تعرض على الشاشة، عنيفةً بدائيةً معادةً، ولكنها بالنسبة إليَّ كانت مسليةً للغاية... كل شيء كان فاقع الألوان لفظًا ورمزًا. فالألوان الحمراء إشارة إلى الدماء، والألوان الخضراء للأشياء السامة، والزرقاء للفسفورية. وكان التمثيل على هذا النحو من التطرف. فالاغتصاب مرةً واحدةً لا يكفي مطلقًا في فيلم واحد، فكنت أجلس خلال الأمسيات حين يمثل دور فتاة بعينها يغتصبها مرتين أو ثلاث مرات رجل واحد، أو رجال عديدون، وواضح أن إطلاق البنادق منقول من مناظر غربنا المتوحش

(أي غرب أمريكا الشمالية Wild west) ولكن بصورة أشد توحشًا، فكل شخص يقتل كل شخص آخر إلى أن يتبقى رجل واحد فيقتل نفسه. وكانت أقرب الأمسيات إلى التسلية حين تغتصب جميع النساء ويقتل جميع الرجال، وهنا يتنفس النظارة في سعادة وينهضون في حال من الحلم الذاهل ليعودوا إلى زوجاتهم وأطفالهم، ومع ذلك فهؤلاء الرجال بعينهم كانوا دائمًا كرماء في سخاء إزاء الغريب، ومهذبين، ووادعين مع بعضهم البعض. إن الطبيعة اليابانية ليست شديدة التعقيد بقدر ما هي متناقضة وحسب.

وبدا لي عندما كنت أفكر في هذه العواطف الفجة أن الغيرة فيما يظهر هي الانفعال المسيطر الذي لا بد أن ينجم عنه الاغتصاب والقتل. وكان لا بد لي أن أضحك من هذا، لولا أنني كنت آنئذ أستعيد ذكرى حادث منزلي، يعرف «بمسلة الطبق الخشبي».

فلقد سافرنا هو وأنا إلى اسكندیناوا في إحدى السنين، في رحلة للهو والعمل معًا، ووقفنا في كوبنهاجن لزيارة بعض أصدقائنا، وأعجبت في ليلتنا الأولى أثناء تناول طعام العشاء ببعض الأطباق الخشبية الجميلة وصرحت برغبتي في شراء اثنى عشر طبقًا منها لبيتنا في بنسلفانيا، ونفذت هذه الرغبة في صباح اليوم التالي نفسه، وطلبت أن ترسل هذه الأطباق إلى هنالك مباشرةً. وعندما عدنا إلى بيتنا كانت هذه الأطباق الاثنى عشر قد وصلت وفكت من حزمتها في انتظار وصولنا، فوجدتها أجمل حتى مما كنت أتذكرها، واستعملناها في أول إفطار لنا. وكان الأطفال قد استيقظوا مبكرين في الصباح وتناولوا إفطارهم مع مربيتهم؛

لأننا وصلنا متأخرين في الليلة السابقة فلم يكن هناك غيرنا، هو وأنا.

وظل أطفالي ومديرة بيتي وغيرهم من الأغراب يسألونني بإلحاح لماذا يكون عدد هذه الأطباق الخشبية أحد عشر طبقًا فقط. وظلت إجابتي عند هذا السؤال غامضةً عدة سنوات، وكنت أسألهم إذا كانوا متأكدين أن عددها أحد عشر طبقًا فقط، وأقول إنني لا بد أن أحصيها بنفسي... وما إلى ذلك.

والحقيقة أنني كنت أعرف أنها أحد عشر طبقًا خشبيًّا فقط، وأنها كانت اثنى عشر عندما بدأنا، هو وأنا، في تناول طعام الإفطار في ذلك الصباح، ولكنا حين انتهينا كان عددها أحد عشر فقط، وإليك ما حدث: وأبدأ بالقول إنه لشيء رائع بفضل الله تعالى أن خطأً واحدًا يرتكب ضد الشخص المحبوب لا يعرقل الحب الصادق، ولذلك أقرر أنه كان الخطأ الوحيد الذي ارتكبه أوانه الوحيد تقريبًا فيما عدا -كما سبق أن قلت- إنه لم يكن يدق مسمارًا واحدًا دون أن يهرس إصبعه حتى يصبح أسود وأزرق، ولذلك أدرك قيمة نصيحتي إدراكًا واعيًا وعمل بها، فطلق استخدام المطارق نهائيًّا. أما هذا الخطأ الوحيد الذي حدث آنئذ فسببه الغيرة!! فقد ضحكت منه أول الأمر لأنني لم أكن أعرف الغيرة مطلقًا، فإذا كان مثلًا قد وقع في حبائل الحب مع واحدة غيري، أو اجتذبته لفترة مؤقتة وحسب، فلا أستطيع أن أتخيل أنني أشعر بالغيرة فإن كان الشخص المحبوب يجد شيئًا أفضل مما يملك فعلًا، فكيف يطاوع المرء قلبه فيحرمه من هذه المتعة؟ أما فيما يتصل بالجاذبية العابرة -فإن المرء يستطيع دائمًا أن يفكر في شيء آخر أثناء ذلك، وهناك أشياء كثيرة ممتعة

تهيئ الحياة لها جميعًا وقتًا قصيرًا جدًّا. فالموسيقى يمكن أن تشغل أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، وكذلك يمكن أن يملأها النحت ورعاية الحدائق وبخاصة الورد وزهر الكاميليا- وكذلك القراءة والكتابة وتحسين مظهر المساكن والمسير في الغابات، وقيادة السيارات، والطيران والسياحة في السفن، وفوق كل هذا المحادثة مع أشخاص ممتعين.

وللأسف إن المحادثة كانت آخر مهنة سببت لي المتاعب، إذ إنني لا أستطيع مقاومة الأشخاص الذين يمتعني حديثهم، وبعض هؤلاء من الرجال، وسواء أكانوا رجالًا أم نساءً فليس هذا بذي بال عندي؛ لأن العقل الراجح يستهوي اللب، سواء احتوته جمجمة ذكر أو جمجمة أنثى. ولكن الأمر عنده يختلف عن هذا، فعلى الرغم من أنه كان أهدأ الرجال وأرزنهم وأحكمهم، فإن غيرته تصبح غير معقولة لأنها ظهرت أمامي في هذه الصورة لأول مرة، ولم أكن أقصد أن أقصر المحادثة على النساء وحدهن، وقد صرحت بذلك، وجعلت الأمر كله مزاحًا، ولكنه لم يضحك، فأدهشني ذلك منه، ثم أزعجني، ولكني أخفيت انزعاجي قدر ما استطعت اصطناعه من لباقة.

وكانت حاله أثناء رحلتنا إلى أوربا خيرًا من حاله المعتادة، وتحدثت إلى كثير من الناس ذوي الحديث الممتع دون مبالاة بالعواقب. وفي ذلك الصباح المعين عندما رجعنا إلى بيتنا، كنا نتحدث أثناء الطعام ونضحك من بعض حوادث معينة مرت بنا، وأمتعنا نفسنا كالمعتاد. وكان صباحًا رائعًا تضيء فيه الشمس مائدة إفطارنا، وتنشر زهرية الورد شذاها حولنا. وكان أمامنا البيض الطازج ولحم الخنزير المملح في البيت، وأعجبني

منظر لحم الخنزير والبيض وهي في أطباقنا الصينية الزرقاء، ومن تحتها الأطباق الخشبية التي اشتريناها من كوبنهاجن. وإذ بذلك الرجل العزيز، الثاقب العقل عادةً، حدق فيَّ من الجانب الآخر للمائدة، وكف عن الضحك، فنظرت إليه مندهشةً، ورأيت عينيه الزرقاوين كالسماء، تتحولان إلى الخضرة.

وقلت مندهشةً: «ما الخطأ الذي اقترفته؟».

قال: «هذه الأطباق، إنها تذكرني بذلك اليوم في كوبنهاجن، وبدأت أقول: «ولكن لماذا؟»، ثم توقفت عن الكلام.

وقال بصوت بارد كالثلج: «الطريقة التي تحدثت بها إليَّ... والطريقة التي ابتسمت بها لـ -»

وأسكته آنئذ، ولكن ليس بالكلمات، فقد كانت ثورة غضبي أشد كثيرًا من ذلك. إنني لست في المعتاد امرأةً ميالةً للغضب ولا محبةً للخصام أو الجدل، بل أعتقد أن مراسلي الصحف يطلقون عليَّ ذات الحديث اللين، وهم على حق في هذه التسمية لأن حديثي لين، بل لطيف. وقد تعلمت كذلك من مأثور الكنفوشية أن الشخص الممتاز لا يتحدث مطلقًا أو يتصرف وهو غاضب، ولكني في ذلك الصباح، وفي تلك اللحظة أنسيت كل شيء عن كنفوشيوس وعن الأشخاص الممتازين. حقيقةً إنني لم أتكلم بغضب؛ لأن غضبي كان أشد من أن يسمح لي بالكلام ألبتة. فلقد أصابني العمى والصمم من فرط غضبي، ورفعت بمحض الغريزة الطبق الخشبي مع الطبق الصيني الأزرق وعليه نصيبي من لحم الخنزير والبيض وحطمتهما على الأرض، فكان تحطيمًا كاملًا لأن أرض حجرة مائدتنا

من القرميد، ثم سرت إلى خارج المنزل، فاجتزت المراعي وهبطت إلى الغابات حيث جلست على قرمة من الخشب بالقرب من الجدول، ومكثت هناك ثلاث ساعات أفكر في حياتي برمتها، وأفحص زواجي وأوزان بين مزايا ومضار وقوعي في الحب. وفي هذه الأثناء ذهب عني كل الغضب، واستطعت أن أضحك، ووجدتني مهيأةً للحياة معه مرةً أخرى. وعدت إلى البيت منتعشةً جائعةً؛ لأنني لم أكن قد أكلت طعام إفطاري قبل أن أغضب، فوجدته جالسًا إلى مكتبه متجهمًا، يحاول أن يعمل. واستطعت أن أتبين بجلاء أن إحجامه عن الحضور والبحث عني قد أشقاه، فطرنا، كل بين ذراعي الآخر وهو يهمهم بشيء عن المغفرة، ولكني لم أقل شيئًا من ذلك. وعندما عاودنا الهدوء مرةً أخرى قال في كثير من التذلل مزق قلبي، لأن التذلل لم يكن قط من طبيعته.

«هل أكتب إلى –».

فأجبته: «لا تذكر اسمه».

وسألني في تذلل أيضًا: «ولكن، ألا أطلب طبقًا خشبيًّا آخر؟».

قلت: «لا، فلتظل دائمًا أحد عشر طبقًا خشبيًّا، فإذا نسيت مرةً واحدةً فقط، فسوف أعدها لك بصوت مرتفع لكي تسمع واحد ،اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشر!!».

كانت خاتمة هذه القصة أن عشنا بعد ذلك سعداء، ولم أضطر إلى عد الأطباق مرةً أخرى، بل كانت مرةً واحدةً، مضيت بعدها في محادثاتي الممتعة في جميع أنحاء العالم، ومع جميع الناس.

* * *

كان اليوم الذي غيرنا فيه الموقع، وانتقلنا إلى القصر الذي كان مسكنًا قديمًا لسيد عجوز من أكثر الأيام ملائمةً، فاستيقظت في وقت ما، بعد منتصف الليل على هواء جديد؛ لأن الحرارة الشديدة التي تحملها رياح اليابسة تغيرت فجأةً لتحل محلها رياح غربية من البحر. وكان هذا الهواء خفيفًا نظيفًا. ومعنى هذا إشراق للشمس في النهار. واستيقظنا على صباح كهذا. الجبال خالية من الضباب، والشمس مضيئة، والدنيا متجددة. وركبنا في الوقت المحدد السيارات التي كانت في انتظارنا، وسرنا بمحاذاة التلال إلى بيت السيد العجوز، وكانت من تحتنا على مسافة شاسعة حين كنا ندور حول المنحنى الكبير، زوارق صيد تجر وراءها في الشباك دائرةً من النقط البيضاء، وتقترب شيئًا فشيئًا.. وأقول منحنى كبيرًا؛ لأن الطريق كان يبدو دائمًا معلقًا فوق التلال، وكان عند نقطة الانحناء تمامًا، هيكل يقوم فوقه إله صغير من الحجر يحذر السائقين المهملين، فهو إله للدفاع والحماية. وكنت أمر به كل صباح، وكذلك كل مساء، إذا لم يكن الجو مظلمًا.

كان منزل السيد العجوز قريبًا من «أساهايا»، وهي مدينة مزدحمة صغيرة نظيفة للغاية كجميع مدن اليابان، وبها كثير من متاجر المدن التجارية الصغيرة التي يبدو عليها الرواج، وعدد ليس بالقليل من متاجر الخزف، لأن خزف «أريتا» المشهور يصنع بالقرب منها، ولكن لم تشغل المدينة ولا تلك المتاجر أنظارنا في تلك اللحظة. وكان البيت في مواجهتنا تمامًا بسقوفه القرميدية، تتألق بالندى تحت شمس الصباح. كان بيتًا فخمًا يحيط به سور، وباب الدخول مهيبًا، يتكون من بابين

ضخمين من الخشب مثبتين بطوقين ومفاصل حديدية. وإلى اليمين كوة صغيرة لا تسمح بالدخول لأكثر من شخص واحد.

كانت الأبواب مفتوحة؛ لأن عمالنا كانوا قد وصلوا توًّا، وعندما دخلناه، وجدنا الأثاث الغربي قد نقل ولم يبق غير الأشياء اليابانية القديمة الجميلة دون غيرها في انتظار التصوير، وكان سيد البيت موجودًا في هذا اليوم، وهو رجل قوي البنية يرتدي كيمونه القاتم اللون، وكانت معه زوجته، فرحب بنا برفق وحرارة، ومعهما ابنتان إحداهما في العقد الثالث من عمرها، والأخرى في العقد الثاني، فرحبتا بنا أيضًا بحماسة.

ومع ذلك فقد تساءلت عما إذا كانت العائلة قد عرفت شيئًا عن سبب وجودنا. ودخل ببساطة عمالنا ذوو الكفاءة المذهلة: النجارون والكهربائيون والمشرفون على الماكياج، وخزانة للكتب. وفي لحظة واحدة أصبح البيت العريق الهادئ الأنيق شبيهًا بالمصنع. فوضع الحصير على «التاتامي» اللطيف، ووضع العمال تحت المشابك، التي تثبت الأنوار الكهربائية الباهرة بالأسقف، وقايةً من الورق الناعم. وكانت أسقف البيت جميلةً مصنوعةً من الخشب في لون النحاس، مصقولةً صقلًا ناعمًا كالحرير... كل شيء كان جميلًا. فبين الحجرات وعلى طول الشرفات أستار من الغاب الرفيع مربوطة بالحرير، تتوافر فيها الزينة، كما تستخدم كدريئة. ولكل مظلة «توكونوما» في كل غرفة نظامها الخاص، لوحتها وتنسيق أزهارها الخاص. وتحتل مائدة حفلات الشاي وآنيته حجرةً خاصةً. وكانت اللوحات المعلقة على الجدران مفتوحةً، تكشف عن بوذا في رقيقة ناعمة من الذهب. ولم تكن الحدائق في الخارج

فسيحةً، ولكن مناظرها حسنة التنسيق، وأحجار ممراتها المستوية منظمة بمهارة وذوق سليم. وشغل رجالنا بوضع الحشائش البحرية على طول الحواف، وفي شقوق الممشى الأمامي، فأدى العمال بذلك عملًا باهرًا، حتى إنني ظننت هذه الحشائش البحرية طحلبًا حقيقيًّا. إلى أن قيل لي إنها ليست كذلك.

وعندما تم استعدادنا، جلسنا جميعًا في انتظار وصول نجمنا وهو السيد العجوز «سيسو كاياكاوا» الذي تناول معنا طعام العشاء في الليلة السابقة، وكان يبدو في لباسه الغربي رجلًا جميلًا في سن الخمسين. وبحثنا في مسألة السن المتقدمة، فأخبرنا أنه يمارس «اليوجا» ويتوقع أن يعيش إلى المائة، ولا أعرف إن كان لليوجا دخل في ذلك أو لا، ولكن أفراد أسرته يعيشون فعلًا أكثر من مائة عام -فطول العمر ورائي عندهم فيما يظهر- ويشعرون أنهم خدعوا إذا ما وافتهم منيتهم قبل أن يتموا قرنًا من الحياة. وقال «سيسو هاباكاوا» إن جدته ماتت عندما بلغت التاسعة والتسعين فقط، فشعر أقاربها أنها خيبت أمل الأسرة، واشتطوا كثيرًا فظنوا أنه كان ينبغي أن تنشط حتى تتم القرن بأكمله كما فعل أسلافها من قبل.

وسرعان ما استعد «مسيو هاباكاوا» للتمثيل، فبدا جميلًا بدرجة مذهلة في رداء السيد الياباني المحافظ، ذي الطراز القديم. وفحصنا «مكياجه» وبينا لصانع «المكياج» أن هناك شعرةً في لحيته في غير موضعها، وأن طرف شاربه أصبح إلى حد ما مشوشًا، وكان سكرتيرته الخادمة، أو خادمته السكرتيرة تروح له طوال الوقت، وتشعل له سيجارَهُ أو لفافَتَهُ، وتقدم له الشاي، وتسليه بوجه عام. وكانت شابةً كفئًا، قامت

برعايته كما لو كان طفلًا ظريفًا كبيرًا، ولعله كان كذلك. ومهما كان من أمره، فقد كان كذلك ممثلًا محترمًا ونجمًا، وكم كان سرورنا عظيمًا حين رأيناه أثناء التمثيل، فقد وهب نفسه لدوره، وأحرز مكانةً في آخر النهار. وأحضرت له معاونته بعد الغداء مساند ووسادةً، ونزع ملابسه إلا الداخلية منها، وكانت كلها من الحرير الأبيض، ثم رقد ونام في هدوء «اليوجا» بينما كان العمال يحومون حوله.

كنا في ذلك اليوم من دون صبيينا «يوكيو و تورو»، فيما أذكر إذ كانا ذهبا إلى نجازاكي في اليوم السابق، وشربا هنالك الجعة اليابانية وأكلا طعامًا صينيًّا، والجمع بينهما ليس مستحبًا، ومن ثمَّ مرضًا عندما أقبل المساء، ولم يستطيعا الظهور في الصباح بين مجموعة الممثلين، وعلى ذلك شكا نجمنا، واحتج بعدم استطاعة التمثيل من دونهما. وبدا اليوم كئيبًا لحظةً ما، ثم أذعن وقال إنه إذا أُعطيَ فتاةً صغيرةً من الممثلات تلهمه، فإنه يستطيع التمثيل. ولذلك أعرناه فتاتنا الصغيرة «الترانزستور» حتى يصل الصبيان. وجلست عند قاعدة آلة التصوير، فبدت جذابةً جميلةً، وشرع هو في العمل بلذة وابتهاج.

إنني لأذكر هذا اليوم برمته بوصفه فرحًا خالصًا... كان الهواء رقيقًا رطبًا، والشمس ساطعة، وكنا جميعًا فيما أظن في حال من الانتعاش المؤقت لمشاركتنا مباهج البيئة المحيطة بنا، وما جرى عليه العمل من يسر. وكان السيد العجوز يتقدم أمام أنظارنا فكان ذلك أشبه ما يكون برؤية فنان عظيم يرسم صورة. نعم، إنني لأرى المنظر كأنه ماثل هنا الآن أمام ناظري.. الحجرة اليابانية الفسيحة، و«السوجي» تؤدي إلى الحديقة

الجميلة. وهناك أمام النافذة سيد عجوز في ثيابه الحريرية البيضاء... عالم وأرستقراطي وشاعر ومتنبئ، يجلس على حشيته أمام مائدة منخفضة، يرسم على صفحة متسعة من الورق حروف قصيدته:

أبناء الله

محبوبون كثيرًا

إنهم غاية في اللطف، غاية في البر

ويركع أمامه الطفلان، ويقرأ القصيدة بصوت مرتفع، ويسألهما عن معناها، ولكنهما لا يعرفان، فيشرحها لهما في أناة واعتزاز وقوة.

كان الحوار باللغة الإنجليزية، ولكنها إنجليزية غير سليمة، وإن كانت قادرةً على حمل المعنى والجو اللذين تنطوي عليهما روحه، ويستجيب الأطفال إلى وهم الحقيقة. ورحت أبتسم طوال اليوم بعد ذلك.. ويقترب المساء فيملأني الرضا والأمل.. لقد بلغت القصة الآن غايتها، وهي الساعة التي يعرف فيها السيد العجوز أن موجة المد قريبة، فيأمر بدق الناقوس الكبير، وأن توقد المشاعل خارج الأبواب. وهي التنبيه النهائي للناس لكي يصعدوا الجبل إلى بيته لإنقاذ حياتهم وحياة أطفالهم -إن كل ما يعرفه هو أنه يخشى ألا يكترثوا، ولكن لعل قليلًا منهم يأتون.

* * *

كان الظلام قد أسدل أستاره عندما اجتمعنا من أجل هذا المشهد، وعشناه مرةً أخرى كما كتبته، ودعني أتم حديثي بصيغة المضارع: .. يجتمع حشد كبير من القرى والريف، وينقضي اليوم ويصبح الناس

أحرارًا في أن يأتوا ويشاهدوا ما يحدث فوق التل، وكانت قد شيدت منصة بعرض الطريق على مسافة مناسبة من آلة التصوير، مواجهة للبوابة والبيت، وعلى الجانب الآخر من الباب وضعت مشاعل كبيرة معدة للإضاءة، ويخرج مدير الشركة وهو شخص بدين جهوري الصوت فيخاطب الجمع ويستحلفهم ألَّا يحدثوا ضوضاء، ويقول لهم إنه المشهد الكبير، فينبغي ألا يكون هناك سعال أو صياح، ويجيب الجمع صائحًا بالوعود ويستمر في انتظاره، ويمضي وقت طويل لا ينتهي إلى حد ما، في الوقت الذي تنفذ فيه اللمسات الأخيرة.. وصانع «المكياج» رجل به هوس، والسيد العجوز عليه أن يرتدي قبعةً قديمةً عاليةً، يجب أن تثبت بحيث لا يعصف الهواء بشعرة واحدة، وحتى الخادم يجب أن يعمل له «مكياج» بكل عناية..

وأُعطيت مقعدًا قابلًا للطي تحت المنصة العالية حيث جلست في دهشة هادئة، أنتظر وأشاهد، وتعطي الكلمات الأخيرة، ويصرخ المساعد بعبارته: «استعدوا.. انتظروا» ويقول المدير: «العمل»..

ونبدأ، وأشاهد، وقلبي يضيق ضيقًا شديدًا، بل لا أكاد أتنفس. وأذكر حين كنت أكتب ذلك المنظر، وحين انتهيت منه أنني كنت خائرة القوى. والآن أراه وقد دبت فيه الحياة، فهل يمكن أن يؤدي السيد العجوز دوره كما كتبته؟ وهل في استطاعته أن يؤديه بالقوة والمهابة اللتين تكشفتا لي؟

ووراءي يقف الجمهور صامتًا مستغرقًا في الفناء الداخلي المكشوف بين حقول الأرز المحيطة بنا، والعمال مشغولون بالأضواء وآلة التصوير. ويسقط الضوء الباهر على الخادم العجوز وهو قادم لإضاءة المشاعل،

وتومض اللهب المتراقصة في الظلام لتكشف عن السيد العجوز، ذلك الرجل المتكبر المسن الواقف بأعلى الدرج الحجري المؤدي إلى الباب يتطلع إلى البحر. إنه بائس ذلك الرجل العجوز.. إنه نبي غير مرعي الجانب، وإن كان قلبه يطفح بالحنان. إنه يرى بوضوح كذلك ما سوف يصيب قومه الجهلاء المتمردين المحبوبين.

نعم، نعم -إنه الشخصية التي ابتدعتها، إنني لأراه واضحًا. وسليمًا، كاملًا في التصور وفي التفصيل. وتأخذني الدهشة حين أشعر بالدموع تتساقط على وجهي- أنا التي لم تبكِ قط!

إن مثل هذا الإدراك قلما يواتي الفنان -ربما يواتيه مرات قليلةً طوال حياته المبدعة، أما بالنسبة إليَّ فإن هذا التوافق في الإبداع يأتيني الآن كاملًا لأول مرة، يتمثل في جسم كائن بشري آخر وفي عقله، لقد غلبتني حاجتي إلى شخص ما يشاركني هذه اللحظة- نعم شخص ما! إن مئات من الناس يزدحمون حولي، أناس عطوفون ولكنهم أغراب عني في هذه اللحظة.. ليس بينهم واحد- فاستدرت وسرت أشق الظلام إلى السيارة التي تنتظر، وأمضي بعيدًا في الليل.

* * *

تحققت في تلك اللحظة ممَّا كنت قد عرفته من قبل مجرد معرفة.. لقد مات ولم يعد هناك اتصال بعده، فإن كان الاتصال ممكنًا لحدث بطريقة ما هنالك عندما كنت في الظلام وحدي بين الجمهور، ولكان قد سمعني وعرف حاجتي، فمهما كانت الحواجز لوجد طريقه إليَّ بطريقة ما إذا كان مستيقظًا واعيًا، وأينما كان.. لقد كان يعرف طريقه دائمًا، أما عجزه

فمعناه أن التواصل بيننا الآن مستحيل، أو أنه ليس مستيقظًا ولا واعيًا..

أصبحت حجرة الفندق مرةً أخرى غير محتملة، فانسللت إلى الممرات الخاوية، وسرت في الشوارع الصامتة بالمدينة. كان جميع الناس المعتدلين ينامون في فراشهم، حتى الرجل المخمور كان يتأرجح في طريقه إلى البيت، وكان القمر مكتملًا -لقد مضى الشهر على وجه ما، وعلى ضوئه غادرت المدينة وخرجت إلى الريف- صمت، صمت في كل مكان، ولا شيء غير الصمت؛ لأن الموت صمت، لا أعرف كم من الوقت قضيت في السير، ولا إلى أي مدى سرت، بل ولا إلى أين سرت. غير أن مسيري بجانب البحر، وكان البحر هادئًا، فلم تكن هناك أمواج، اللهم إلا الارتفاع المديد الذي يحدثه الجذر العميق.. وأذكر كم كانت المناظر الطبيعية جميلةً في الليل.. الجبال تشمخ فوق الضباب الفضي في الأودية.. ورأيت كل شيء، ولكن لم أشعر بشيء. كنت كأنني أسبح بعيدًا في بلاد غريبة لم يسبق لي بها حياة. ربما كنت ميتةً أنا نفسي.. لقد كان الصمت عميقًا جدًّا داخل نفسي، ولن أبكي مطلقًا مرةً أخرى.. لقد عرفت الآن أن الدموع لا تجدي شيئًا ولا الراحة أيضًا إذ تنشدها أو تجدها.. ليس هناك إلا هذه- نفسي.. إن من البلاهة أن أبكي من أجل نفسي!

واتجهت آنئذ من البحر إلى الداخل، وكنت أسير في ممر ضيق بين حقول الأرز، وكان الهواء ساكنًا إلى أن هبت ريح عليَّ حين فجأة من لا مكان فيما يظهر. ووقفت لأستشعر طراوة وجهي.. وفي نفس تلك اللحظة سمعت طفلًا يبكي، إنه طفل، وأستطيع أن أعرفه بصياح النزع المرتفع المجنون.. وتطلعت حولي.. نعم، هناك بيت مزرعة على الجانب

الآخر من الحقل يتألق فيه الضوء، فهل كان الطفل مريضًا؟ لقد سمعت بكاء أطفال كثيرين حتى أصبحت أعرف لغتهم. لا، إن هذا ليس نزعًا، قد يكون دهشةً أو خوفًا أو حتى غضبًا.. إنه صراخ طفل حديث الولادة.

وجلست على الشاطئ المعشب أصيخ السمع، وتوقف الصياح، وسمعت أصوات ضحكات.. لقد كان الطفل ذكرًا إذَنْ!! كانت حياة جديدةً، واضطجعت على الحشائش كأنني أنام على فراشي، وأخذت أتفرس طويلًا في السماء.. لم تكن النجوم ظاهرةً، لأن القمر اللامع كان يتأرجح بسفينته وهو يجتاز السماء فأخذت أراقبه حتى صدقت أنه يتحرك.. قلق يائس كان يزحف إلى عظامي، قلق التسليم الذي لا مهرب منه.. فكرة الوضع الجامد. يجب ألا أتوقع منذ الآن أن أتقاسم اللحظات العظيمة من حياتي، ولا بد من وجود لحظات إثارة وابتهاج: وفوق هذا كله لحظات أعمال عظيمة، فقد كنا في مثل هذه اللحظات، هو وأنا، يتطلع أحدنا إلى الآخر تلقائيًّا، تمامًا كما نتنفس، ولكن ذلك لم يعد له وجود.. وليس من الحقيقة في شيء أن المرء لا يستطيع مطلقًا أن يسير وحده. فهناك أبدية يسير فيها المرء وحده ولا يعرف نهايتها..

وانقضى الليل، وكانت الشمس تضئ من الشرق تحت الأفق، وحان وقت عودتي إلى حجرتي.. حان وقت الإعداد لأعمال النهار.

* * *

لم يعد الطقس معتدلًا، وسرنا إلى بيت السيد العجوز لنجد عمالنا على أهبة البدء، حتى في تجديد الحشائش البحرية في الممرات.. وكان معي اليوم صديق، وقد تعلمت منذ سنين أن أذكر بالفضل العجائب

الصغيرة، وكانت هذه الأعجوبة صديقًا قديمًا من هيروشيما، وقد بدأ تعارفنا حين قدم هو وزوجته وأطفاله إلى الولايات المتحدة في أمر يتصل ببعض النساء الصغيرات بوصفهن فتيات صغيرات أصبن بجراح مؤسفة من تفجير القنبلة الذرية، ولكنهن لم يمتن، وفي أثناء رحلته لإلقاء المحاضرات وجمع المال لمصروفات المستشفيات في مقابل إجراء عمليات جراحية للإصلاح وجوههن المشوهة إلى ما يقرب من جمالهن الطبيعي. وقضت زوجته وثلاثة أطفال الصيف في منزلي الكبير، فوجدته في انتظاري في ذلك الصباح، وأبهجتني رؤية وجهه الودود..

وسألته: «أترغب في الذهاب معي لالتقاط صور اليوم؟».

هناك شيء ما، بطبيعة الحال، مشترك بين الممثل والواعظ.

فقال وقد أضاء وجهه الطيب: «يا لها من متعة»..

وبينما كنا في طريقنا إلى بيت السيد العجوز تحدثنا عن أشياء كثيرة، وعرفت أنه قد أعيد بناء هيروشيما على نطاق أوسع من ذي قبل، وأن تعدادها أصبح الآن قرابة نصف مليون نسمة، كل منهم بجسمه إصابة، وأذكر الجسم بالذات لأن الجسم هو الذي دمرته القنبلة.. الأجسام ثمينة، فيما يبدو؛ لأن من خلالها وحدها تستطيع الأرواح الاتصال..

انقضى النهار بسرعة كبيرة، وطويلة جدًّا، وجلس بجواري صديقي الهيروشيمي استغرقه التفكير في التفصيلات التي لا تنتهي الخاصة بصنع الفيلم وكنا نتحدث من آن لآخر، وسألني متوسلًا: «أرجو أن تعديني بزيارة هيروشيما قبل أن تغادري اليابان»..

ولم أستطع أن أعده؛ لأنني كنت أعرف أنني لن أذهب، إذ لم يكن الموقف يبدو كأنه بحاجه إليَّ؛ لأن سكان هيروشيما الذين عاشوا أبان الكارثة عرفوا أن السلام أثمن هدف في حياة البشر. فما لم يكن هناك سلام فلا بد من وجود الموت.. فإذا ذهبت إلى هيروشيما فسأكون كالمتفرج، ولست أنا هذا الشخص المتفرج، وليس في هيروشيما. ولكني لم أستطع أن أشرح كل هذا لصديقي، وافترقنا آخر النهار ليذهب هو إلى مدينته التي ولدت من جديد، وأنا إلى حجرتي.. لقد كنت هناك ولم أكن هناك، وفي راحة مطلقة قضيت المساء في صمت لم يكن بينه وبين النوم إلا خطوة واحدة. وحدث أن استيقظت في الليل مرةً لضحك سمعته تحت نافذتي، فنهضت وتطلعت إلى الخارج.. كان القمر مضيئًا أيضًا، وهناك كان في البركة الفسيحة ثلاثة شبان يستحمون، وكانت أجسامهم النحيلة العريانة يخفي نصفها الضباب المتصاعد من مياه الأرض الحارة.. ويبلغ من جمال هذا المنظر العامر بالحياة أنني كدت أقتنع أثناء مشاهدتي إياه أن المصور يملك خير ما فينا بوصفه فنانًا.

* * *

كان آخر يوم بمنزل السيد العجوز، وكنت عازفةً عن الرحيل؛ وذلك أن موقع بيت المزرعة كان يبعث على البهجة، وقد عقدت روابط الصداقة مع جميع أفراد العائلة هناك حتى مع الديك ودجاجته والعنز، فيما عدا الخنزير النباح الذي كنت أحرص على الابتعاد عنه مسافةً ما، لشعوري بانعدام الاهتمام المتبادل، وذلك دون شك نتيجةً لعدم وجود شيء مشترك بيننا.

أما فيما يتصل بأهل بيت السيد العجوز، فقد كانت هناك أشياء كثيرة مشتركة إذ استمتعت إلى أقصى حدود الاستمتاع بعقولهم المثقفة وترحيبهم الرقيق وودهم الصريح والمستور.. ومع ذلك فالنهاية لا بد آتية هنا أيضًا.. وقام السيد العجوز بدوره بوقار وكياسة. وقام خادمه بإرشاد «يوكيو» الصبي الصغير «تورو» ابن صياد السمك إلى البيت الفخم، ثم عاد فتقدمهما إلى الباب ثانيةً بعد أن اختار «تورو» لنفسه الرحيل المشئوم.. وحانت للخادم لحظته الكبرى عند الباب، فهنا يجري حواره الخطير الذي يقتصر على كلمتي «نعم» و «لا».

وقد نطق بهاتين الكلمتين باهتمام، والواقع أنهما أهم كلمتين في أي لغة، تتضمنان في جرسيهما القصيرين قوة الإيجاب وقوة السلب في كل هذا الوجود..

وحييناهم نحن كذلك تحية الوداع، فانحنينا وأبدينا امتناننا، ووقعت دون شك بخطي مئات التوقيعات على بطاقات التوقيع التي تُستعمل كثيرًا في اليابان لهذا الغرض. إنه لسرور عظيم أن يكتب المرء اسمه على صفحة واسعة بيضاء في لون القشدة.. ويصدق هذا تمامًا على الفرشاة أو لوح الرصاص الواسع الناعم الداكن اللون. ويكتب المرء بالسليقة اسمه كبيرًا في خطوط رشيقة فتكون النتيجة مرضيةً بصورة من الصور.. ويزداد الرضا بسبب حواشي البطاقة الفضية والنجوم الفضية التي تتألق على ظاهرها..

ومن المؤسف أننا اجتمعنا معًا، وغادرنا المكان الجميل والناس الكرام الذين يعيشون هنالك، وحملتنا عربة شحن وسيارة إلى موقعنا

التالي، وهو قرية «كتسو»، وأنزلتنا سياراتنا على قمة تل، ومن ثمَّ كان المسير على الأقدام في ممر ضيق ملاصق للجانب الصخري من التل.. وظللنا نهبط ونهبط حتى بلغنا القرية نفسها، وهي مجموعة أكواخ مبنية من الحجر، تفصلها شوارع مرصوفة.. وعرفت أثناء سيري في هذه الشوارع أنني أحببت كتسو فعلًا أكثر من جميع المواقع الأخرى... وكان اليوم رائعًا مشرقًا، والشمس تتلظى فوق الرمال، ولكن للأسف فالقصة الأصيلة تتطلب وجود مطر، ولكن المطر هناك لا يمكن توقعه في ذلك الجو الصافي، ولذلك كان لا بد من اللجوء إلى اصطناعه مرةً أخرى..

واصطنعنا المطر طوال النهار والليل، حتى سحبنا فيما يظهر جميع مياه القرية، فنضب ماؤها. وكان اصطناع المطر يجري بطريقة بدائية، ولكنها فعالة، وذلك أننا وصلنا البئر بوساطة خرطوم من قماش الخيام السميك بخزان على مقربة من بيت المزرعة حيث كانت ستلتقط المناظر.. وكانت الخزانات جفنات خشبيةً كبيرةً يسع كل منها خمسين جالونًا من الماء، لم أعرف لماذا لم نضع الخرطوم في المحيط؛ لأن خمسين جالونًا ليست إلا قطرةً بالنسبة لكمية المياه التي كنا بحاجة إليها..

وكان يصيح شخص ما في كل مرة نتهيأ فيها لالتقاط المنظر، بأن الماء قد نفد، فتأخذ مضخة البنزين في العمل مرةً أخرى. أو أننا حين كنا نتهيأ لالتقاط المنظر، ويقف الممثلون في أماكنهم، وينهمر المطر، يكتشف «الماكيير» أن الشعر في غير موضعه على جبهة أحد النجوم، أو أن جدولًا من العرق يجري فوق جبينه، فيصلح هذا العيب لساعته، ثم مرةً أخرى ينفد الماء وينقطع المطر..

ومع ذلك ظلت حاجتنا إلى المطر باقيةً حتى تلك اللحظة، إذ حان وقت التقاط منظر السيد العجوز وهو يحذر عائلة صياد السمك من قدوم موجة المد الكبرى دون ريب.. فيهمهم الجد قائلًا: إنه لن تكون هناك عاصفة، ولكن سيهطل المطر وحسب، وتزود الكبار محليًّا بالمواد الإضافية واجتمعوا يملؤهم الزهو بعملهم الجديد في شرفة ضيقة بمنزل تورو واتفقوا معه..

يا لأولئك الكبار! لم أتخيل أن قريةً واحدةً تستطيع أن تكفل مجموعةً من الرجال ذوي الأسنان المهشمة، المرحين المتفاخرين الواهنين، ولكن من الواضح أن قرية كتسو استطاعت أن تفعل، بدليل وجودهم فيها. لقد كانوا في أول الأمر يتسمون بالوقار وحسن التصرف، بصورة غير طبيعية، وبخاصة ذلك الشخص الذي تشبه سحنته وجه العقاب، الأشبه بالطائر العجوز منه إلى الرجل، وهو الذي كان يختلس النظر بعينيه المستورتين.. أما فيما عدا ذلك فلم يبد منه ما يدل على الحياة، إلى أن طلب المدير شيئًا من الضحك في لحظة مناسبة، فحينئذ تسبب في إضحاكنا جميعًا إذ صاح بصوت جهوري كرنين النحاس بسلسلة من الكلمات جاءت بعد ترجمتها كما يلي:

«ضع قبعتك فوق رأسك أيها الأمريكي! إن هذا يضحكني».

وضج الجميع بالضحك؛ لأن هذه القبعة كانت قد أصبحت فعلًا مثارًا للضحك.. كانت قبعةً صغيرةً من القش، جدائلها مفككة ولونها أصفر لامع في لون الفسفور، يلتف حول قمتها شريط فاقع اللون، ولم تكن ذات نفع إلا للدلالة على الأماكن التي يكون فيها المدير..

وبينما كنا جادين في العمل عقب الضحك، وقد توافر الماء والمطر في وقت واحد، بدأ صوت الراديو يجلجل فتوقفنا عن العمل مرةً أخرى، ويئس مهندس الصوت.. جاء هذا الصوت من مدرسة بأعلى التل، فجرى رئيس القرية بكل غيرة فصعد أعلى الجبل ليتأكد من نظافة جميع الأطفال وحسن سلوكهم.. وانتظرنا... ونفد الماء، ولكن الأطفال وصلوا بادي النظافة، وقد مسحوا أنوفهم، وارتدوا ملابس قطنيةً نظيفةً أو سراويل كيفا كانت الحال.. وكان رئيس القرية متكبرًا ولكنه جاف الطبع، فقال حين تركنا الأطفال وحدهم، إنهم يحيطون بنا ويخنقون نشاطنا.. ومهما كان من أمر إدارته لشئونهم بنظامه الصارم، الذي يهدف إلى خيرهم، فقد اتجهوا في ذلك إلى عملهم اليومي صاغرين على الرغم مما كان يبدو عليهم من شدة الرغبة في الوقوف حولنا.. وأسرع إلى العمل مع صاحب الساقين المعوجتين.. إنسان أشبه بالكابوريا، وإن كان ضاحك الفم..

* * *

يا للقرية الحبيبة، كتسو!! لقد جلست الليلة الماضية في مسرح خاو في نيويورك، أشاهد الفيلم الذي أنجزناه، وكان بجانبي صديق يشاطرني التذكار ويقرر ما إذا كان الفيلم هو نفسه الذي فكرنا فيه عندما أخرجناه.. أما المحكمون الذين يملكون الحكم النهائي فيجب أن يكونوا أناسًا غيرنا؛ لأنني شعرت بموجة روحية جياشة من الحنين إلى الوطن حين عادت كتسو إليَّ على شاشة السينما، وحين رأيت البحر يطوي الشاطئ الأبيض ثم ينحسر عنه، والشباك المتعددة الألوان معلقةً لتجف، والزوارق المستقرة تعلو فوق الأمواج ثم تهبط بخفة، وتلال الساحل الصخرية

المتشامخة، والجبال، وربما فوق كل هذا وجوه القرويين الوادعة.. هناك أماكن قليلة ومساكن قليلة يألفها الإنسان بسليقته بحيث تظل موطنه إلى الأبد، ولست أدري إذا كنت سأرى كتسو مرةً أخرى في حياتي، ولكنها باقية معي وفي أعماقي..

دعني أتذكر!!

إن كتسو كما رأيتها لأول مرة من أعلى الممر المتعرج الضيق تتكون كما قلت من مجموعة من الأسطح تقوم على عنق ضيق من الأرض يحتضنها البحر بين ذراعيه ويتقارب كل سطح وما يليه كفلسات سمكة، ويختلف منظرها من البحر، ومن البحر يروق لي أن أراها.. كنا نتسلق القوارب كل صباح، ونرسو على شاطئ «أوباما»، ونذرع الشاطئ الرائع بطوله نحو نصف ساعة، ثم ندور حول مرتفع فوق الصخور الضخمة لنواجه الشاطئ الأبيض وجدران كتسو الحجرية.. ولم يكن لهذه البيوت نوافذ تطل على البحر، فإذا أراد القوم أن يناموا بحثوا عن مأوى يحتمون فيه من صديقهم وعدوهم القوي.. وكان التناقض واضحًا.. فلقد عاشوا قرب البحر ولن يعيشوا في أي مكان آخر، ولكن مزاجهم كان مزاج البحر نفسه، فإذا ما انبلج النهار مشرقًا لا رياح فيه، وإذا ما كانت المياه زرقاء كمياه البحر المتوسط، نشطت القرية كلها في الضحك والعمل، وإذا أعتم الجو وقست الرياح عبس الناس وانتابهم القلق، وزحفوا إلى أرصفة البحر؛ ليحكموا رباط قواربهم إلى الصخور التي دحرجوها إلى الشاطئ، ثم يعودون ثانيةً إلى بيوتهم.. وإذا دخلنا المرفأ الفسيح مبكرين في يوم مشرق، فلربما أسعدنا الحظ برؤية أساطيل القوارب وهي تخرج إلى

عرض البحر، وهو منظر جميل جدير بالتذكر... أما في اليوم العاصف فتتحول الأمواج الطليقة إلى أمواج ساحلية غاضبة، فنذهب إلى هناك عن طريق البحر.. وعادت الذاكرة إلى كتسو عندما كنت جالسةً في المسرح المظلم بوسط مدينة أمريكية كبرى، فرأيت «تورو» و«يوكيو» يجلسان في القارب ويصيدان السمك، وكذلك «ستسو». حسن، يجب ألا أروي القصة.. أرى وجوه الأطفال ضاحكين ناعمي البال، وأرى هؤلاء الأطفال أنفسهم كبارًا، ووجوههم الصغيرة رصينةً بالإرادة والحزم.. ويعلن «تورو» وهو رجل شاب، حبه تحت مخبأ من الصخور الرمادية الضخمة في طرف الساحل الملتوي الذي شوهته وجوفته العواصف والرياح..

* * *

أصحت أيامنا مثالًا للعمل: نستيقظ مبكرين، ونتناول طعام الإفطار، ثم نغادر الفندق في الساعة السابعة، ونستقل سفينةً على مسافة ميل تحملنا بسرعة إلى القرية، ويشرع كل شخص حال وصوله في إعداد نفسه لمشاهد اليوم ولا تكون هناك حاجة لوجودي لمدة ساعة، فأسير على الشاطئ مارةً بأرصفة الأمواج الحجرية حتى أبلغ سفح تل منحدر، ويؤدي إلى أعلى هذا التل درج من الحجر على مسافة ميل أو نحو ذلك.. وكان على قمة التل معبد خاو مشيد من الحجر كان يومًا ما هيكلًا لعبادة «الشنتو»، يحيط به جدار منخفض، فكان المنظر يجمع بين البحر والجبال والسماء.

ومع ذلك فقد وجدت محرابي الخاص وراء الهيكل، وكانت عند حافة التل المرتفع فجوة في الصخور، اتساعها ملائم لجسمي، فكنت أذهب إلى هنالك كل صباح، وأحبس نفسي في هذه الفجوة، كأنني

بين ذراعيها، ثم أرقد في هدوء، ولكنه لم يكن هدوء النوم، بل هدوء لتفريغ العقل وإطلاق سراح الروح.. لم نكن معًا قط، هو وأنا، في هذا المكان، ولم أدرك كذلك إبان السنوات التي عشتها في جزيرة كيوشو أنه موجود، ولا أنه كان يحلم بي، وليس بيننا اتصال الآن -ولا أستطيع الادعاء أنني سمعت صوته أو حتى تنبهت إلى وجوده. أما الشيء الذي حدث تدريجًا بمضي الزمن فهو تمرد عميق على السكينة. لم يصبح أحد جزءًا مني، ولكني أصبحت أنا جزءًا من الكل.. فالفراش الصخري الدافئ الذي أرقد عليه، والرياح التي تهب رطيبةً من البحر، والسماء ذات الزرقة الشديدة، والسحب المتراكمة البيضاء، وشجرة الصنوبر الملتوية الحانية فوق رأسي.. كنت جزءًا من هذه جميعًا، بل ومما وراء هذه.. جزءًا من العالم كله.. إن ذاتي لم تعد بعد ذاتي، فترةً من الزمن على الأقل.. مخلوق وحيد يحمل قلبًا موجعًا.. كنت أدرك البرء، وهو يتدفق في أعماقي.. واستطعت في الواقع، بعد انقضاء ساعة أن أنهض مجددة القوى، عند سماعي صوت النفير، لألحق بزملائي من العمال.

والدرج الحجري؟ لقد رأيته بالأمس في المسرح المظلم عندما نزل السيد العجوز لتحذير القرويين، يتبعه خادمه الأمين. نعم، كان نفس الدرج الذي كنت أصعد عليه كل صباح ظامئةً إلى الهدوء الذي أجده في ملجأي بين أحضان الصخر.. لقد أصبحت عادةً. كنت أستيقظ مشتاقةً إلى تلك الساعة، وكنت أتذوقها تذوقًا عميقًا بلذة مجددة كل يوم، ثم اكتشفت حينئذ أن هناك بعضًا من هدوء النهار باقيًا منه فضلة لليل، أي أنني لم أستنفده كله، ولا يزال منه وفرة.. لقد أصبحت أقوى من ذي

قبل.. كنت أستطيع أن أهمل يومًا أو يومين ثم أكثر من ذلك، وأحسست باستقرار ذاتي، فلم أكن بحاجة إلى الصعود بعدئذ إلى ذلك المكان المرتفع المنعزل وأنتظر استقبال الهدوء والسكينة.. أصبحت قادرة على خلق السكينة في داخل نفسي لمجرد تذكري مدى البحر والجبل والسماء في حين أنطوي أنا على نفسي في الصخرة المجوفة. كان السلام آنئذ ينبع من ذات نفسي، وأصبح المكان في ذاكرتي هيكلًا، ولا أعرف كيف جاء هذا البُرء.. إنني لم أصل إذا كانت الصلاة مجرد كلمات أو توسلات أو بحث.. فإذا كان لا بد من تفسير هذه العملية، فإنها لم تكن أكثر من أنني وهبت نفسي برمتها للوجود الذي لا أفهمه، وإن كنت أعرف أنه فسيح وجميل بما يفوق إدراكي، وأن مكاني منه لا يزيد على فجوة في قلب صخرة.. ولكن هناك الفجوة وهي ملكي، وهناك الصخرة.

* * *

إذا كان لهذا الترتيب الزمني أي فائدة، فيجب أن يكون صادقًا.. لقد أنجزنا ربع إنتاج الفيلم تقريبًا.. ووصلنا إلى الصحراء التي تقع في منتصف الطريق في كل مشروع مبتكر، وتبدأ الصحراء في تلك النقطة التي يكون فيها النجاح أبعد من أن يعدل عنه، وأبعد كذلك عن التمام؛ لأن النهاية تكون عندئذ خافية. ولربما لا يكون التفكير فيها إلا في ثقة ينتابها التردد.. فما أكثر معرفتي بالمطمح المكشوف! إنني أواجهه في كل كتاب أكتبه، فالربع الأول منه يجري كالنسيم يهب من البحر، ويكون العمل فيه سرورًا خالصًا، فأعتقد أنه سيصبح أحسن كتاب كتبته.. ثم أصل إلى النصف الأوسط من الكتاب وهنا يذهب عني السرور، فالشخصيات تأبى

أن تتحرك أو تتكلم أو تضحك وتبكي، بل تقف كأنها أعمدة من الملح..
لماذا، نعم لماذا بدأت هذا الكتاب؟ إن عملًا كثيرًا جدًّا قد تم فيه، بحيث لا أستطيع أن أطرحه جانبًا، ومع ذلك فالنهاية بعيدة جدًّا كنهاية قوس قزح.. ولست أملك إلا أن أسير قدمًا متمهلةً، وأدفع الشخصيات هنا وهنالك وأنفخ فيها بحرارة عسى أن تستعيد الحياة، وأتخذ كل وسيلة للتنفس الصناعي. وفي مكان ما، وفي يوم ما، وفي الوقت الذي لا يعقل فيه أن تتنفس بعد أسابيع أو بعد شهور أو حتى بعد أعوام، إذ بك تجدها تتنفس فعلًا. يا لها من راحة!! لقد اجتزنا الصحراء، وتنفس الربع الأخير من الكتاب إلى التنفس..

جلست في صباح أحد الأيام، في منتصف الفترة الصحراوية من الفيلم، على حافة قارب صيد، وتأملت نجمنا «سيسو هاياكاوا»، وكان ينتظر استدعاءه إلى جماعة الممثلين في صبر عابس.. كان لا بد من إعادة المشهد؛ لأن مهندس الصوت أعلن عن وجود ذباب على مكبر الصوت لم يلحظها واحد منا.. لقد كان هناك ذباب على الرغم من قيام أحد العمال بطرده بحماسة بوساطة الرش على غير هدى، ولكنَّ ذبابةً واحدةً ماكرةً استطاعت أن تختفي على مكبر الصوت، وطنت طنينًا طغى على كل شيء عداه.. وانتظر نجمنا، وكانت سكرتيرته الخادمة تروح له وهو تحت أرديته السميكة..

وسأل المدير الأمريكي: «لماذا لا يروح لي أحد بهذه الطريقة الفنية؟».

ولم يحر أحد جوابًا، ولم يروح له أحد، وكان النجم جالسًا وحده معتصمًا بالصبر، وبيده راديو ترانزستور صغير يستمع إلى مشاجرة وقال

موضحًا حين ابتسمت له: إنه لم يجد الحياة محتملةً إلا على هذه الصورة في مثل هذه الظروف. وفي نفس الوقت جرى «الماكيير» ليضع مناشف مثلجةً على رسغيه وعنقه، ويجري بعض اللمسات على وجهه، وأشعل النجم سيجارًا ضخمًا مما جزع له غاية الجزع خوفًا على اللحية التي بذل في وضعها عنايةً كبرى.. ومع ذلك لم يجرؤ أحد أن يقترح على النجم شيئًا ما، وظل يدخن في هدوء وهو مغمض العينين مصغيًا إلى المشاجرة..

وتشاحن المدير عند الغروب مع الجد الذي كان صوته في الواقع رغم تقدم سنه صوت شاب قوي جدًّا، فأوضح له المدير كيف يجب أن يكون صوت الرجل العجوز.. واستمسكت بهدوئي؛ لأنني أعرف أن أصوات المسنين عالية حادة وليست منخفضةً خشنةً.. ولكني لذت بالصمت، وعرفت لأول مرة أن أعتصم بالهدوء - «في سبيل الله!»..

لقد كافحنا بصورة ما، ونحن نجتاز الصحراء.. كنا نستيقظ في الصباح الباكر فنتجمع خائري القوى في القوارب، لا يخفف من متاعبنا غير سماء الشمس الغاربة.. وكانت هناك ليال عملنا فيها إلى ساعة متأخرة. إلى أن يهبط الظلام حين نستقل السفينة، والبحر يلتمع بالسمك الفسفوري الصغير الذي يفوق في لمعانه نجوم السماء.

* * *

كان «سيسو هاياكاوا» الذي ظل متقدمًا حتى آخر أيام تعاقده معنا، ينجز مشاهده في شخصية السيد العجوز، وكنا لا نزال في الصحراء.. وقام «الماكيير» بعمل بارع، وهو إبرازه كأنه في سن متقدمة عشر سنوات، كما تستدعي القصة الأصلية أن يكون.. ولكن الرياح نفسها التي جعلت

الأمواج الشاطئية ترتفع ارتفاعًا فوق ما تحتمل الزوارق، هبت صباح يوم فأطارت حاجبه الأيسر، وكان «الماكيير» يستحق أن يقيد لأنه لم يحضر معه حاجبًا إضافيًّا من الفندق، فلم تكن هناك وسيلة إلا أن يصنع حاجبًا آخر من الشعر المتبقي من صنع اللحية.. واستمر كل شيء في الطريق الخاطئ، فالكعك الذي تركه معنا أهل المدينة طيبو القلب منحةً للعمال تحول إلى نوع غير مستحب فلم يأكله أحد، وسادنا جميعًا الاكتئاب.. وتأخر العرض، الذي كنا نأمل في رؤيته منذ أسبوع. وتخلل يوم عطلة رسمية في اليابان، ثم يوم أحد، فلم نر غير تقدم قليل جدًّا، وبذلك بلغ تأخرنا عن الخطة الموضوعة ثلاثة أيام على الأقل، فانسحبنا على حدة تساورنا الأفكار السوداء.. هل كنا نحاول المستحيل- الممثلون اليابانيون يتكلمون الإنجليزية! إن يوكيو الصغير، وتورو الصغير، وأم المزرعة، من بين آخرين غيرهم كانوا يتكلمون قليلًا من الإنجليزية أو لا يتكلمون بها إطلاقًا ثم أصبحوا الآن يتكلمونها، ولكن هل يفي هذا بالقدر المطلوب؟ وكيف سيكون وقعه على المشاهدين الأمريكيين حتى لو كان نجمنا هو المتحدث؟

وردت إلينا رسالة من وكيلة أعمالنا في طوكيو ونحن في قلب هذه الصحراء من التشاؤم، قالت فيها إنها شاهدت تجارب المناظر التي مثلها السيد العجوز، فكانت رائعةً بما في ذلك الحوار. وقررت أنها أبكتها، وبكاء هذه المغالطة السفسطائية الصغيرة له دلالته، وذلك أننا لم نتوقع أن يكون ذلك ممكنًا لأنها فاترة العاطفة، هادئة، مقتصدة في مديحها، فارتفعت أمالنا.. لعلنا أوشكنا على الخروج من الصحراء.. ودعونا

«سيسو هاياكاوا» بروح مجددة إلى وليمة عشاء تكريمًا له بمناسبة رحيله. وكان معتدل المزاج، وشرب مزيجًا من الجعة المثلجة وشراب الساكي، واستطاع احتماله بصورة تستحق الإعجاب.. وكانت حكاياته في جودة تمثيلياته.. إن خمسين عامًا قضاها في مختلف البلاد لجديرة أن تجعل قصص الحياة قمينةً بالرواية.. وأسفنا لتركه إيانا، وأظنه أسف هو أيضًا لفراقنا، ولكن ليس هناك شيء دائم في حياة المسرح، فنحن نعمل معًا عن قرب لأيام وأسابيع وأشهر قليلة، وينمو حب الواحد منا نحو الآخر، ثم نفترق وننسى -ليس هناك شيء عميق- وهذا هو السبيل الوحيد لتحمل الفرقة..

وصلت التجارب، فذهبنا إلى المسرح على الجانب الآخر من الشارع بعد أن انتهى العرض المسائي. إن المناظر لم تبكني، ولكني سررت بها، ورأيت فجأةً نجمنا الصغير. «تورو» الكبير جالسًا في الصف الذي أمامي وقد راح في نوع عميق، فغاص قلبي تحت المقعد، وقلت لنفسي: هل استطاع أن ينام؟ نعم، لقد استطاع، ونام فعلًا. ثم التفت إلى زميلي قائلةً: «انظر إلى ذلك!».

فكانت إجابته الحانقة: «إنه سكران».

نعم، لقد كانت هناك وليمة في هذه الليلة، وقد سكر نجمنا، واتضح ذلك كل الوضوح في نهاية عرض التجارب ومغادرتنا المسرح، إذ لم يستطع أن ينهض، ومع ذلك فقد شعرت بخيبة الأمل؛ لأنه سواء أكان سكرانًا أم واعيًا. فكيف استطاع أن ينام؟ لا، لقد كنا لا نزال في الصحراء، لا نستطيع إلا السير على مهل.

بقيت هناك لحظة واحدة من النهار.. إنها آخر ومضة.. اللقطة النهائية لخادم السيد العجوز، فالتقطنا صورةً أمام واجهة الفندق حيث احتشد الجمهور، وكان ذلك اليوم يوم عطلة موفقًا مزدحمًا بالناس ومعهم آلات التصوير ويعمهم المرح. وكان خادم السيد العجوز بطبيعة الحال هو صاحبنا القديم المشرف على الملابس ولكنه حقق لنفسه حلم حياته كلها. لقد أصبح الآن ممثلًا بعد أن ظل طوال هذه السنين يصنع الملابس، ويبحث عن ملابس للآخرين يرتدونها على المسرح، ولكنه ارتدى الآن ثوبًا خاصًّا وأجرى «الماكياج» على وجهه ليقوم بدوره، ووقف في ذلك الليلة في حضور الجمهور هادئًا وقورًا، وأخذ المصور اللقطات التي احتجنا إليها للفيلم النهائي، وعندما انتهت اللقطات وتبادلنا التحية والمصافحة، شكرناه ورد على شكرنا بانحناءة، وقال لنا إن هذه السنة خير سني حياته؛ لأنه أصبح ممثلًا، ولعب دورًا مع مسيو هاياكاوا، وإنه سيعقد قران ابنته في الشهر التالي.

وهكذا انتهى اليوم

«أوتسو كاريزاما!!».

وهي كلمة معناها «إنك متعب» وهي طريقة مهذبة لعبارة «تستطيع أن تتركنا اليوم».

حقيقةً، كان التعب قد نال منا.

* * *

وتخطينا آنئذ الصحراء تمامًا، ولم يبق غير مشهد واحد لقرية كتسو، وهو قدوم موجة المد. وينما كنا نقوم بأعمال تتصل بهذا المنظر، كان

موظفنا المشرف على الخدع السينمائية في «الأستديو» التابع لنا في طوكيو قد حضر مرتين للتشاور معنا ولالتقاط مئات من الصور لقرية كتسو والشاطئ الخالي فيما وراءها، فعرفنا أننا بين أيد أمينة، وأنَّ موجة المد ستكون متقنةً، ولكنا لم نستطع رؤيتها قبل رجوعنا إلى المدينة. أما مهمتنا فكانت تصوير المنظر الخاص باقتراب موجة المد، ثم الخلاص منها.

وزحفت إلى القرية روح من التوتر والخوف أثناء استعدادنا لالتقاط منظر موجة المد، فقد كان ذلك شيئًا بالغ الألم إذ كان كل رجل وامرأة وطفل، تفزعهم قبل كل شيء في حياتهم الجميلة القلقة موجة المد الشديدة المراس، تضربهم دون تحذير، اللهم إلا ذلك الهدير المشئوم من فوق الأفق، ومياه البئر الموحلة، واهتزازه الأرض. إن مجرد الرعب كان في الغالب أقسى مما يحتملون وهم يضطلعون في عناد بواجب الحقيقة المفزعة. ولقد لعبت عائلات المزرعة وعائلات الصيادين أدوارها على وجه مُرْضٍ، ثم اقتربنا من الليلة الختامية، وبينما المشاعل في هذه الأثناء تتوهج في الظلام أمام بيت السيد العجوز، كانت عائلات كتسو -وقد استولى عليها الرعب القاتل- تهرب في الظلام تاركةً بيوت أسلافها مصعدة في الممر الضيق المتعرج إلى أعلى الجبل تنشد الأمن فوق المرتفع.

كان تورو هو نجم تلك الليلة.. الصبي تورو. وكان نصيبنا في هذا المشهد هو الوصول به إلى المرحلة التي يرى فيها القرية وهي تُمسح من الوجود، ونرى فيها صور ذلك مرتسمةً على وجهه، وهنا يجب أن يقحم منظر موجة المد، ثم نضطلع ثانيةً بعد ذلك بالتقاط منظر تورو وهو في محنته وجنونه وقد اكتسحت الموجة كل شيء حتى هو نفسه فلم تنقذه سوى يد أخرى قوية حانية امتدت لتمسكه وهو متشبث بالجرف.

وقام تورو بدوره على أروع وجه، ولكني أذكر بنوع خاص الأهلين وهم يحتشدون على جانب التل، الأهلين المروعين خائفين، وهم يسلكون نفس الممر الذي طالما وطأه أسلافهم كثيرًا، ولكن في عالم الحقيقة.

وعندما انتهى كل شيء في تلك الليلة، رحلنا في وقار، وقد اكتسبنا معرفةً جديدةً بالشجاعة النادرة التي أبداها أهل كتسو، وبولائهم الراسخ للبحر، وبطريقة حياتهم، وهي طريقة نظيفة سليمة ولكنها خطرة. وحييناهم تحية الوداع مقرونةً بالأسف الرقيق. وإنني لأحتفظ بذكريات عن قوم ذوي وجوه كريمة في ضوء الفانوس، وعن الرئيس المتكبر الذي كان يتلقى مديحنا في تعالٍ وامتنانٍ، ويقول إن الجزاء الوحيد الذي يطلبه هو أن يعرف متى سيعرض الفيلم في اليابان.

وقال لنا: «إننا سنرتدي خير ملابسنا ونذهب حتى إلى طوكيو».

وأخيرًا ذوى على الجبل لهيب المشاعل التي أوقدت عند بوابة قصر السيد العجوز وتوارت في ظلام نهائي.. انتهى كل شيء، والتقط الفيلم. ولن أنسى مطلقًا تلك الأيام الطويلة الجميلة التي قضيتها في البحر، وأباريق الشاي الكبيرة المصنوعة من الزنك، ولن أنسى مطلقًا ساعات الراحة التي كنت أقضيها راقدةً نصف نائمة في زورق خال يجرونه إلى الشاطئ، وصوت الموج الوسنان يرن في أذني، وحرارة الظهيرة تلفحني. لقد طرحت في تلك الأيام، وحتى هذه الساعة أشباح الضياع، والعزلة المتربصة. لقد عشت يومي وساعتي وعملي، والبرء العميق لبدني من حرارة الشمس، والمطر والبحر العاصف.

* * *

أصبحنا الآن قريبين جدًّا من نهاية الفيلم، واستطعنا أن نصمم خطةً لأيامنا المقبلة. وبعد أن انتهينا من كتسو أصبح أمامنا شاطئ «تشيجوا» حيث المشهد العظيم الخاص بصيد سمك القرش، وهو المشهد الأخير الخاص بالأطفال الذين أصبحوا الآن كبارًا يلاقون الحب والحياة، والفرح والحزن: وآخر ما تبقى في كتسو المنظر الذي يجمع بين السيد العجوز وتورو وستسو، ثم لا يبقى لكي يصور غير منظر البركان في أوشيما، فيوضع في مكانه المناسب من الفيلم.

إنني أكتب بسرعة كبيرة، فلأتذكر الآن «تشيجوا» نفسها، حيث يترك في بلاد مزدحمة بالسكان، مثل هذا الشاطئ الفسيح غير مأهول.. إنه خاو، وهو كذلك منذ قرون. اذهب إلى هنالك في أي يوم فترى شباك السمك منشورةً لتجف، ولكن ليس هناك أناس. إن بلدة تشيجوا تواجه البحر من زاوية غريبة بحيث يجتاحها التيفون وأمواج البحر بقوة مدمرة. وأخيرًا استجابت جماعة الصيادين بعد تجارب متكررة من التدمير الشامل، إلى تهديد البحر فلم تعد تسكنها من بعد.

إنه شاطئ رائع إلى أبعد حد، طوله ميلان، ويتوغل في داخل الأرض، وطرفاه الشرقي والغربي صخور ضخمة جميلة. إن حياتي التي عشتها في آسيا، وحبي للفن الآسيوي جعلاني أتكيف مع الصخور؛ لأنها تضيف إلى المنظر الطبيعي رسوخًا، وتوضح أشكالها التي اتخذتها من الزمن والطقس تقلبات الطبيعة، وهي تدل على القوة والمقاومة والقيم الخالدة.. وتوجد مثل هذه الصخور في الطرف الأخير من تشيجوا، وقد مثلنا عندها المشهد النهائي للحب بين تورو وستسو عندما نضجا. وإلى

هذه الصخور ذهب السيد العجوز حين حيانا تحية الوداع الأخير.

ويجب ألا أنسى كذلك سمك القرش، فهو منظر فريد في الفيلم، كما كان تجربةً فريدةً في التمثيل، إن جماعة الصيادين في ذلك الإقليم يخرجون لصيد سمك القرش مرةً في العام. وتقضي هذه المخلوقات البحرية الشرسة على السمك في أي منطقة تختار تملكها، فيشن عليها الصيادون الحرب. ويعلن عن مجيء سمك القرش أسراب من السمك الصغير، وهو سمك الطعم، فحين يظهر هذا النوع، يعد الصيادون خطتهم، فيحضرون قواربهم التي تبلغ نحو المائتين، وينشرون بينها أكبر وأقوى شبكة في العالم، ثم توسع المسافة فيما بين القوارب فتصبح دائرة واسعة. وبينما تسبح أسماك الطعم في فضائها، يتبعها سمك القرش. وعندما تمتلئ الشبكة بهذه المخلوقات الملتوية تسحبها القوارب مجتمعةً، وتكون أسماك القرش آنئذ بداخل الفخ، ويسحب الشبكة إلى الشاطئ مئات من الرجال، وهناك يضربونها بالهراوات حتى تموت، ثم يحملونها على عربات وتؤكل أجزاؤها الطرية، وتستخرج من الباقي زيت السمك والسماد. ويكون الصيد أحيانًا طيبًا وأحيانًا سيئًا. وقد اصطاد الرجال في العام الماضي سمكةً واحدةً فقط من سمك القرش، ولكنا في هذا العام جلبنا إليهم الحظ على حد قولهم فاصطادوا منه وقتلوا مائة وعشرين.

إنني لا أعطف على سمك القرش، ولكن عملية الضرب بالهراوات لا تروقني، وتلذ لي كثيرًا مشاهدة أسطول قوارب الصيد بأعلامها المبهجة تخفق في ضوء الشمس الساطع والشعب النشيط على الشاطئ -لقد كان الجمهور دائمًا معنا، وتعلمنا منذ عهد بعيد أن نعتبره جزءًا من المنظر

الطبيعي. ولكن لماذا أصف المشهد بأكثر من ذلك في حين أن كلمات الممثل في الفيلم ومشاهدته أفضل من وصفه بالكلام؟ إنها حرب متوارثة بين الإنسان والقرش، وقد كسب الإنسان الحرب في ذلك اليوم.

وبينما المعركة تدور مرةً أخرى، كان ممثلونا عاكفين على كفاحهم الشخصي... هاروكو الكبير وستسو في حربهما المشهورة، عندما سعى هاروكو إلى إغراق ستسو، أما تورو ويوكيو اللذان لم يعودا بعد طفلين، فقد واجها أخطارهما الخاصة لبلوغهما مبلغ الرجال.. كل ذلك ماثل في الفيلم، حتى في آخره حين يخرج تورو إلى عرض البحر في قاربه ومعه حبيبته.

كان علينا آنئذ أن نعود إلى أوشيما، ومع ذلك فقد كان لديَّ حلم واحد أحب أن أحققه، وهو حلم صغير.. حلم لا أهمية له لأي شخص سواي، كان لا بد من الذهاب إلى المنزل الياباني الصغير على منحدر الجبل بالقرب من «أوزن» حيث حدث مرةً في ساق حياتي أن التجأت إليه إبان الثورة الثانية في الصين، حين ثبت أن جيوش الغزاة كانت تحت القيادة الشيوعية، فاضطر الغربيون إلى ترك مدينة ثانكنج حيث كنا نقيم، ورحلت إلى اليابان مع عائلتي وعدد قليل من الأمريكيين، فقصدنا إلى الجبال فوق نجازاكي، وقد عدت الآن إلى هناك مع صديقة يابانية اتخذتها دليلًا ومترجمةً.

واستأجرنا سيارةً وسائقًا، وسرنا كالمعتاد بسرعة خطيرة، وسلكنا طريقًا متعرجًا ذا انحناءات شديدة إلى «أوزن»، وأذكر أن القرية الجبلية قد نمت وأصبحت منتجعًا حديثًا للمياه المعدنية، ولكن إلينا بيع الحارة كانت كما هي، تنبجس تيارات البخار من مئات الثقوب الصغيرة في

صخورها، حيث كان يسلق الأهلون البيض ويغلون الماء لعمل الشاي على هذه النيران الطبيعية.

وضللت السبيل وسط هذه الشوارع الجديدة إلى الطريق الخلوي القديم الذي أتذكره، فاستوقفنا سيدةً شابةً استفسرنا منها عما إذا كانت قد سمعت عن بيوت كان يسكنها أمريكيون مهاجرون منذ سنوات، فأشرق وجهها وقالت، إن جدها يعرف، وكثيرًا ما كان يذكر أولئك الأمريكيين، وجاءت بجدها، وهو رجل نحيل عجوز مرح، أرشدنا مبتهجًا إلى الطريق، وهبط بنا إلى واد قليل الغور، ثم عبرنا جدولًا، لنصعد ثانيةً إلى الجبل، حتى وصلنا أخيرًا إلى مجموعة من البيوت اليابانية، وكانت آنئذ خاويةً على عروشها مغلقة الأبواب، ولكني رأيت ذلك المكان الضيق الذي كنا نتخذه ملجأ، وعشنا فيه بأمان فترةً من الزمان بين أصدقائنا، ولكن على حال من الفقر المدقع، بعد أن سلبتنا الثورة كل ما نملك. وتغيرت حياتي تغيرًا تامًّا في السنوات التي تخللتها، فلم أعد تلك الشابة اليائسة التي عاشت تحت ذلك السقف الذي تطل عليه أشجار البلوط. وأجبرت الرجل العجوز على أخذ بعض النقود ورحلت وأنا أعرف أنني لن أعود مرةً أخرى. ومع ذلك فبينما كنا نغادر أوزن إذا بشخص ما يناديا، فأوقفنا السيارة.. لقد كانت المرأة الشابة، فناولتني كيسًا وهي تقول:

«يقول جدي إنه يذكر أنكم اعتدتم شراء هذا الكعك المصنوع من الأرز لأطفالكم».

وهذا صحيح... لقد نسيت، ولكنه لم ينسَ.

* * *

كانت أوشيما تبدو غاية في البشاعة في رحلتنا الكشفية التي قمنا بها في شهر مايو، ولكنا الآن في أكتوبر، وكان البركان ثائرًا متمردًا فيما بينهما من الشهور، حتى في طوكيو نفسها كان الجو ينذر بالسوء، وكنا قد قررنا السفر عن طريق الجو واستأجر طائرةً تنقلنا جميعًا عبر الخليج جماعات، ولكن تكشف النهار عن فجر معتم رمادي اللون، فرفض قائد الطائرة أن يطير. وكنا آنئذ نسابق الزمن، كل منا مشتاق إلى الرجوع إلى الوطن أو تضيع عليه أعماله. ولكي نتحاشى التأخير ركبنا قاربًا ليليًّا؛ لأن التيفون كان في عرض البحر. حتى السفينة كانت لها مخاطرها، وكنا قد صادفتنا أخطار كثيرة جدًّا، ومع ذلك فقد أسلمنا أنفسنا في كثير من الأحيان للبحر والجو، حتى لقد كان يبدو لنا أن الإقدام على مخاطرة أخرى واحدة أمر شبه معقول.

شققنا طريقنا في تلك الليلة تحت وابل من المطر الشديد والرياح المزمجرة إلى رصيف الميناء، وصعدنا إلى باخرة من طراز قديم، ترزخ تحت حملها الثقيل، ولم نتبين لحسن الحظ عدد المسافرين عليها لشدة الظلام فصعدنا جميعًا: المصور والعمال والممثلون وكل الباقين، وقصدنا لتونا إلى قمراتنا. وفي بضع دقائق كنا في طريقنا إلى عرض البحر.

كلما تذكرت تلك الليلة المفزعة أصابتني قشعريرة، إذ كان البحر رديئًا، والريح والمطر عدوان متنافسان، وأسوأ من هذا كله أن السفينة كانت تحمل أربعة أمثال حمولتها المناسبة من المسافرين. بالإضافة إلى أن هؤلاء المسافرين كانوا مئات من أطفال المدارس في رحلة إلى أوشيما، ومرض منهم مئات بدوار البحر، وأصبحت المغاسل والممرات غير صالحة للاستعمال ولا يمكن المرور فيها، أما الخطر الحقيقي فكان

يكمن في السفينة نفسها، إذ كان بناؤها العلوي شاهقًا جدًّا، فكانت تتأرجح يمينًا ويسارًا حتى تعرضت أرواحنا للتهلكة... إنني متمرسة على ركوب البحر، إذ عبرت المحيطات مرارًا وتكرارًا منذ رحلتي الأولى عبر المحيط الهادي وكنت في الشهر الثالث من عمري، إلى أن اجتزت في آخر رحلة لي نفس المحيط بالطائرة منذ شهور قلائل في سن أصبحت غير محددة، ومع ذلك لم أشعر بخوف قط كما شعرت طوال تلك الليلة في طريقي إلى أوشيما، وفي مكان ما قبيل الفجر جاء صديق كان مسافرًا معنا ليسأله عن صحة زوجته، وكانت زميلتي في القمرة، وقد استحال لون وجهه الطيب من فرط الخوف إلى الخضرة.

وقال وهو يتأوه: «إننا اجترحنا كافة قوانين الرياضة».

فالسفينة تتخبط بصورة لا تتفق مع الدرجة الحسابية.. إن هذا لا يمكن أن يحدث، إذ يجب أن نكون الآن بحق مستلقين على جنبنا، غارقين تحت الماء.

رقدت على سريري بالقمرة أتأمل حياةً عجيبةً... حياتي أنا... كيف يتسنى لسيدة هادئة الطبع مسالمة، ليست لها رغبة أو طموح، أو حتى ميل إلى المغامرة أن تكون دائمًا في قلب المغامرة؟ إنني شغوفة كل الشغف بالحياة العادية، والأماكن العامة، والحياة اليومية الرتيبة، حتى إنني أقفل التلفزيون على الفور عند عرض برنامج المغامرات.. ولكن ما جدوى هذا إذا كنت قد تورطت في بعثة جريئة أشمئز منها؟ كما أنني أبغض بنوع خاص فكرة الغرق في البحر، وأكره الموت غرقًا على أي حال. ولكن إن كانت حياتي لا بد أن تنتهي بالغرق، فأنا أفضل أن يكون في جفنة استحمام. ومع ذلك لا أستطيع إحصاء البحار التي سافرت فيها،

فكم من مرة اجتزت المحيط الهادي، وأقل منه المحيط الأطلسي والبحر المتوسط والبحر الأحمر وجميع البحار في منعرجات الشطآن الآسيوية المعقدة التضاريس وحولها. وقد اتضح لي آنئذٍ أنني لا بد ملاقية مصيري بين طوكيو وأوشيما- إنها الموجة الكبرى حقيقة!

وأخيرًا انبلج الفجر، فجر هزيل رطب، وأرسلت الشمس خيوطها الباهتة يغشيها الضباب، والمحيط لا يزال يدمدم، وتختلط أمواجه التي يكللها الزبد الأبيض بالتيارات العكسية. وظهرت خطوط أوشيما المعتمة من مكان غير محدد المعالم، وكافحنا في سبيل الوصول دون جدوى، وكانت خمس عشرة دقيقةً كفيلةً بالوصول إلى المرفأ، ثم أصبحت الخمس عشرة دقيقة ساعةً كاملةً ثم ساعتين، وظللنا نلف وندور، وظهر أننا لن نتمكن من بلوغ المرفأ؛ لأن البحر كان شديد الهياج، وأننا سنضطر إلى الذهاب إلى الجانب الآخر من الجزيرة حيث يوجد مرسى صغير، ولم يثبط ذلك من همتنا، فذهبنا إلى الجانب الآخر حيث المرسى الصغير، ونزل إلى البر صف طويل من أطفال المدارس الشاحبين، وإن كانوا ذوي عزائم قوية، ثم نزلنا نحن وذهبنا إلى الفندق تحت وابل من المطر، وفي هذه المرة كنت أطوع من أن أحتج حين وجدتني للمرة الثانية أنزل بغرفة الإمبراطور وهو وضع سبق لي أن رفضته في زيارتي السابقة إذ إنها أفخم من أن تلائم مواطنةً متواضعةً تنتسب إلى جمهورية.

وتناولنا إفطارًا سريعًا، وخرجنا بالسيارة إلى سفح البركان، وكانت الجياد تنتظر الراغبين في الركوب، وقد اخترت أن أمشي إذ كانت قد مضت بضع سنوات دون أن أعتلي ظهر حصان.. وفوق هذا علمتني

التجارب ألا أثق بحصان أو بغل أو فرس صغير (سيسي) آسيوي؛ لأنها تعيش في ظروف قاسية، فلا يعطف الآسيوي على الحيوانات كما نعطف عليها نحن معشر الأمريكيين. إن فلسفة تناسخ الأرواح تؤدي إلى اعتقاد الآسيوي أن الإنسان الذي كان في الحياة مجرمًا، يصبح في صورته الأخرى حيوانًا لا يوثق بأن يكون تصرفه خيرًا من الحيوان الذي يتقمصه. وفي حين أنني لا أعتقد في هذا إلا أنني إذا حكمت وفقًا لسلوك الخيل التي عرفتها في آسيا، فيمكن أن أعتبر على الأقل أن هناك قوةً شريرةً هي التي تدفعها حقيقةً إلى هذا السلوك. ويقول لنا الكتاب المقدس: «لا تضع ثقتك في الخيل». ولذا ارتقيت البركان الأسود راجلةً، صعدت لأرى منظرًا طبيعيًّا قاتمًا مقحلًا ذا جمال مروع.

حتى الجو العاصف الرمادي كان ذا تأثير أكثر كآبةً وغرابةً، وكانت ألسنة البخار الأبيض تتدفق من كل شق وكسر في البركان وفي الجبال العالية المحيطة به، وهذه لم أرها في زيارتي السابقة. وقد عرفت حين تحريت الأمر أن هذه الظاهرة يسببها التيفون، فقد كانت فوهة البركان شديدة الاتساع، وازدادت اتساعًا في الأيام القليلة الماضية، وذلك لأن جدران الفوهة تقوضت في مواضع مختلفة نتيجة المطر الغزير، فأينما وجد سطح فإنه يكون مرطوبًا متميعًا بالماء. ومن ثمَّ يقتحم البخار الحبيس طريقه في أخاديد الجبل، ومن ثمَّ تسوق الرياح أعنة البخار وألسنته في اتجاه واحد. وكنت أقف في طريقي مرارًا وتكرارًا لأتطلع إلى المنظر، حقًّا لقد كان منظرًا جديرًا بالرؤية. ولقد رأيت مناظر طبيعيةً رائعةً في شتى أنحاء العالم، ولكني أضع بركان جزيرة أوشيما في ذلك

اليوم في الصف الأول من حيث الفخامة والروعة.

قضينا هناك يومين عامرين بالمغامرة ودواعي الدهشة لا يمكن نسيانهما، فقد كان البركان ثائرًا قبل قدومنا بوقت قصير، يقذف إلى الهواء بالصخور الكبيرة وينحر في الجبل، وكان الحراس يقفون في كل مكان ليمنعونا من المرور، ولكنا اقتحمنا الطريق رغمًا منهم حتى بلغنا الحافة نفسها. وكانت آلة التصوير تجثم مخاطرةً في أي مكان يمكن وضعها أو حملها. والنزول إلى داخل الفوهة يتم على مستويين، الأول إفريز دائري، والآخر ليس له قاع وتحجبه سحب الغاز والبخار الكريهة الرائحة. ولقد هبط إلى الإفريز، المصور والعمال والمدير، أما أنا فبقيت على الحافة العليا، لا لأنني حذرةً وحسب، ولكن لأن الحراس الشاردي الفكر نبهونا إلى وجوب الهرب بحياتنا إذا ما سمعنا أقل هدير أو دمدمة داخل الفوهة،فلم أشأ أن أخاطر في هذه الحالة بالرجال الشبان الذين قد يضطرون حفظًا لشرفهم إلى الجري بسرعة خطواتي البطيئة.

وهبت رياح قارسة البرودة، واستمر العمل خلوًا من الضحك المعتاد والانبساط الجميل، وقام كل بنصيبه من العمل بسرعة وتركيز، وإنني لأعترف بأن قلبي كان قد فقد كثيرًا من دقاته أثناء مشاهدتي العمال وهم يتجولون في داخل الفوهة ويقفزون فوق الشقوق الواسعة ويغوصون في التربة اللينة الهشة، ويقفون على حافة الهاوية نفسها، لقد تذكرت كل ذلك مرةً أخرى أثناء عرض التجارب بالمسرح في نيويورك، ورأيت الصبي يوكيو يقف هناك على الشاشة، وكانت عيناه تحملقان فزعًا، والبخار الأبيض يتصاعد متلويًا من الفوهة فيلفه بين طياته، فلا عجب أن

يصرخ مناديًا والده: «نحن تعساء معشر سكان اليابان!».

ويسأله والده: «لماذا تقول ذلك؟».

فيقول الصبي: «البحر والجبل يعملان على هلاكنا».

وشعرنا بالفرح عندما انقضى اليومان وانتهى العمل، ومع ذلك لم تفتنا التجربة، ولن أنسى مطلقًا المناظر الطبيعية، السوداء كالوجه الآخر من القمر، وطرنا عبر الماء في اليوم الثالث في جو صاف، فوصلنا مطار طوكيو بسلام في خمس وأربعين دقيقةً بالضبط.

وبعد ذلك بخمسة أيام ثار البركان وسقطت التربة اللابية السوداء التي كنا نقف فوقها إلى الهاوية.

* * *

وهكذا أنجزنا الفيلم وتم كله فيما عدا منظر موجة المد التي كانت تنفذ في أستوديو الخدع السينمائية التابع لنا في طوكيو. فذهبت إلى هناك في اليوم الأخير، وكان فنان الخدع السينمائية المشهور ينتظرني، وكان معتدل المزاج يرتدي حلةً خفيفةً وقبعةً وبيده عصا. وكان يبدو عليه وثوق الرجل الذي قام بعمل جيد ناجح. وبعد أن استعرض المنظر اتفقت معه. وكان قد شيد في مساحة تبلغ اتساع حدائق ميدان «ماديسون» في نيويورك، وهو أوسع مكان ورد على ذاكرتي في تلك اللحظة.. شيد في هذا المكان قرية كتسو والجبال والبحر، وكان ارتفاع المنازل ثلاثة أقدام كلها تصغير متقن، وكان كل شيء سواها يتناسب معها، ويجري خارج الأستوديو نهر، وينطلق الماء المندفع الذي يتناسب معها، ويجري خارج

الأستوديو من خلال فتحات كبيرة ممتدة على جانب واحد. وتطلعت داخل البيوت وتسلقت الجبل الصغير، وأعجبت بدقة الشاطئ، بل دقة الصخور التي كنت اتخذ منها ملجأً في حياتي الواقعية. ولم تكن جماعة الممثلين قد استعدت بعد لموجة المد التي كان لا بد لي أن أراها على الشاشة فيما بعد، بكل ما فيها من قوة ورعب، ومع ذلك رأيت كل شيء غيرها، ثم ودعت، وشكرت، ثم رحلت.

لقد أصبحت حجرتي بالفندق شبيهةً بالبيت، وشعرت بامتعاض لتركها، وإن كنت أعرف أن حياتي فيما قد انتهت، إذ كانت مكانًا سارًّا حيث عشت في هدوء عميق، والآن عاودني خوفي القديم من مواجهة حياة أخرى من دونه، ومن الرجوع وحيدةً إلى الأماكن التي كنا نجتمع فيها دائمًا، ومع ذلك فهو أمر لا بد أن يحدث، ولا مهرب لي منه. وحينئذ فلن يكون هناك تسويف.

وقال لي أصدقائي الأعزاء: «عودي، عودي بسرعة إلى اليابان»، ووعدتهم أنني سأعود. وابتعدت بسرعة وركبت وحدي الطائرة التي كانت ستقلني إلى نيويورك مرةً أخرى.

أقول نيويورك مع أن نيويورك بطبيعة الحال ليست إلا في طريقي إلى بيت المزرعة في موطني ببنسلفانيا، ولكني أملك مكانًا أتوقف فيه في نيويورك، تلك المدينة التي تضم العجائب والأسى، فقد كنا، هو وأنا، نحتفظ بمكان دائم هناك، كان هو يحتاج إليه في أعماله واستعادة نشاطه وجريت أنا على هذا التقليد، ولكن ليس في نفس المكان الذي تقاسمناه سنوات عدة؛ لأنني في نطاق مسكننا القديم لا أستطيع الهرب من عذاب

الذكرى، ولست أدري ما إذا كان الواجب يقتضيني البقاء فيه أم لا، ولكن ناطحات السحاب من الصلب والزجاج قد عرفت طريقها إلى شارعنا، وكان لا بد للمبني الذي اتخذناه مقامًا لنا في المدينة أن يهدم، ووجدت مكانًا بعيدًا عن مرتفعات المدينة في مبنى جديد حيث لا توجد ذكريات، اللهم إلا الذكرى التي أخفيها في صدري وأحملها أينما كنت.

وأذكر هنا قصة لا تتصل بالفيلم في شيء سوى أنها تهيئ لي شخصيًّا مشهدًا ختاميًّا، إذ كنت أبحث عن مسكن جديد عاونتني إحدى بناتي في عزل الأماكن التي يتعذر اختيارها، ثم أخذتني لتريني المسكنين أو الثلاثة التي يمكن الاختيار بينهما، وأذكر أن الوقت آنئذ كان ليلًا حين رأيت هذه المساكن، وكنت في عجلة، فبدا لي أن مكان إقامتي ليس بأمر ذي بال، ودخلنا حجرات عاريةً غير مدهونة، ورأيت نافذةً واسعةً، وتبينت في غير وضوح من خلال الظلام بناءً يواجه سطحه نافذتي، وقالت لي ابنتي إنه مدرسة، فكان هذا من حسن طالعي إذ ينبغي ألا يكون هناك بناء مرتفع يحجب عني المنظر. لم يكن يهمني ذلك كثيرًا؛ لأن وقتي لا يتسع حين أكون في نيويورك للتطلع إلى منظر ما، هذا بالإضافة إلى أن لديَّ مناظر كثيرةً في بيتي في بنسلفانيا، ولذا استقر رأيي دون روية.. «سآخذه».

ينبغي أن أقول أن الاختيار كان عشوائيًّا.. شيء جاء مصادفةً، ولكني بدأت أعتقد في عدم وجود شيء مما يسمى بالمصادفة البحتة في هذه الدنيا؛ فهنا تمهيد لختام القصة التالية:

حينما كنت طفلةً، وكثيرًا ما كنت أحجم عن أداء واجبي، اعتاد

والدي أن يقول لي بحزم ولكن برقة: «إذا لم تنجزي واجبك؛ لأن إنجازه صواب، فأنجزيه لمجد الله الأعظم».

ومع ذلك فلأجل مجد الله الأعظم، ومن أجل والدي لم أفعل إلا ما كان يجب أن أفعل، أو على الأقل ما كنت أستطيع أن أفعل.

ولنعد الآن إلى المسكن.. لم أره مرةً واحدةً أثناء تزيينه وزخرفته، وعندما تم كل شيء، فتحت الباب، وقصدت مباشرةً إلى النافذة الكبيرة، وكان اليوم فيما أذكر مشرقًا من أجمل أيام نيويورك، فالهواء عليل يهب من البحر، والسماء زرقاء. ورأيت أمامي على الجانب الآخر من البناء، تحت الإفريز وعلى طول السطح، هذه الكلمات محفورة بحروف حجرية كبيرة:

«لأجل مجد الله الأعظم»..

إنها أمامي وأنا أكتب.. لأجل مجد الله الأعظم! ماذا يعني هذا الصوت الذي يأتيني من القبر، قبر والدي؟ إنه يرقد هنالك على قمة جبل في صميم الصين لا أعرف له مكانًا. إنني هنا حية على مسافة آلاف الأميال، فهل نحن، هو وأنا، على اتصال عن طريق والدي؟ هذا شيء غير محتمل؟

كيف أجسر على القول بأنه غير محتمل؟

سنعرف ذلك يومًا ما، ولكن أي يوم؟ ربما كان ذلك اليوم عندما يتحد القديسون والعلماء ليقوموا بعمل بحث شامل عن الحقيقة.. إن القديسين والمؤمنين هم الذين ينبغي أن تكون لديهم الشجاعة لحث العلماء على مساعدتهم في الكشف عما إذا كانت الروح تواصل حياة

نشاطها حين تتوقف الكتلة التي نسميها الجسد عن إيواء الروح.. إن الإيمان يزودنا بالافتراضات، ولكن العلم وحده هو الذي يستطيع أن يزود الإحصائي بالتحقيق. والملحد لا يستطيع مطلقًا متابعة البحث.. إنه ساكن، عمود من الملح يتطلع دائمًا إلى الوراء.

ليس هناك معجزات.. إنني واثقة من ذلك، فإن مشى أحد على الماء وأبرأ المرضى، وأقام الموتى وبعثهم إلى الحياة، فليس في هذا شيء من السحر، بل لا يعدو أن يكون معرفةً بالطريقة التي يتم بها ذلك.. ليس هناك خوارق، بل العمل الطبيعي الفائق، العمل العلمي الخالص وحسب. العلم والدين.. لا نرى من خلالها غير الظلام حتى تضبط بؤرتا هذين الجانبين فتكشف عن الحقيقة.

في اليوم الذي تأتينا فيه الرسالة من فوق الأفق البعيد حيث تقيم «تلك الغالبية العظمى»، الأموات، فإن البرهان سيصل إلينا، لا في صورة طغمة من الملائكة في السماء، ولكنه طول موجة يسجل في المعمل، طول الموجة الذي لا يخضع للجدل ولا للرأي الشخصي كما هو الحال في بصمة الأصبع.. الأصبع التي أصبح صاحبها ترابًا. وحينئذ يصيح العالم الذي عرف طول الموجة قائلًا: «إنه شخص أعرفه! لقد سجلت موجته قبل موته»، وسيقارن تسجيله بطول الموجة التي سجلها أخيرًا، وسيعرف أن اختراعًا أو آلةً أصبح في استطاعتها أخيرًا أن تتلقى رسالةً كانت حلمًا منذ قرون، وهي رسالة استمرار وجود الفرد، وهو ما نطلق عليه خلود الروح.

ولربما لا يتلقى هذه الرسالة عالم من العلماء، بل سيدة تنتظر في نافذة مفتوحة إلى السماء.